

مَطْبَعَةُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعِرَاقِيِّ

بَغْدَادُ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ مِنْ تَارِيخِهَا وَأَخْبَارِهَا الْحَضَارِيَّةِ

تصنيف

جمال الدين الآلوسي



مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

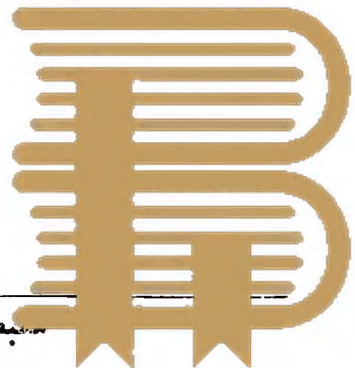
١٥٣٢ هـ

بَغْدَادُ فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ مِنْ تَارِيخِهَا وَأَخْبَارِهَا الْحَضَارِيَّةِ

تصنيف

جمال الدين الآلوسي

شبكة كتب الشيعة



شبكة المجمع العلمي العراقي

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

shiabooks.net

رابطه يديل < mktba.net

تقديم

بغداد .. مدينة السلام

عن يونس بن عبد الأعلى : قال :
 قال لي محمد بن إدريس السافعي ، رضي الله
 عنه : يا يونس ، أدخلك بغداد ؟ فقلت :
 لا . فقال : يا يونس ، ما رأيت الدنيا
 ولا الناس .

لما ولت ناصيةَ الشمسِ عَنانَا	ومشأت قاصَّةَ النجمِ عَنانَا
ضاقتِ الشمسُ ، ولكنَّ شأنُها	كان أعلى من عُلَى الشمسِ مكانَا
يعتري الشمسَ أقولُ وهي في	أفقها طالعةٌ أَنَا فَأَنَا

*

يا لها جوصرةٌ ! شَفَّتْ سَنًا	من تَوَاجِها ، وراحت لَحانَا
أبدًا تبصرُها فائتةٌ ،	بهرمُ الدَّهرِ وتغلو عَمَوانَا
كُلَّمَا جَدَّ عليها قَدَمٌ ،	نَضَرَتْ وجهًا ، وزادت لَمعانَا

تَنْتَحِي أُنْفَاءً تَأْفِقاً صُغْداً وَتَرُودُ الطَّيْحَ الْأَرْفَعَ شَانَا
 كَبَّرْتَ تَارِبَ نَفْسٍ وَهَوَى وَهِيَ تَطْرَحُ لِحْظٍ وَرِهَانَا
 دُونَ أَدْنَى يَهْمَةٍ مِنْ عِزِّهَا تُلْسُ الثُّمُسُ لِكَيْفِهَا لِيَانَا

*

لَمْ يَرَ الدُّنْيَا أَمْرُؤُا لَمْ تَرَهَا عَيْنُهُ يَوْمًا ، وَلَا الْحَسَنَ أَشْبَانَا
 مُشْتَهَى طَرْفٍ ، وَهَوَى خَائِفٍ بِنَفْسِهِ الْحَسَنَ وَيَعْلُو خَفَافَانَا
 وَشَى نَفْسٍ تَصَبَّأَهَا الْهَوَى رَأَى الْأُنْسَ لَدَيْهَا وَالْأَمَانَا

*

وَرِثْتُ مَا أَثْلَتَهُ (طَيْبَةً) وَ(دِشْتُ) ، وَأَجَعَّتْهُ زِيَانَا
 كُلُّ مَا أَمْتَلَرِمَ مِنْ مُتَمَحِّثٍ لَطِيفِي أَغْلَاهُ مَاسًا وَجْهَانَا
 وَرِثْتُ بَغْرَسَ الْمَعَالِي طَبَّاءً وَسَقَّتْهُ دِرَّةَ الْحُبِّ لُبَانَا
 أَتَرَفْتُ خُرَّانَهَا ، فَازْدَهَرَتْ وَزَكَّتْ نَجْنَى وَآثَارَ إِسَادَا

كَانَتْ نَاحِيَةُ الْفَجْرِ عَقْدًا نَبِيًّا
وَأَعْيَدَ الْفَضْلُ أَفْهَقًا لِدَانَا
رَحِمَ (النَّصْر) ! لَعَلَّ سَارَتْ بِهَا
يَدُهُ إِلَى حَيَاةٍ وَكَيَانَا !



سُدَّةُ الْمَلِكِ .. وَمِنْ أَطْرَافِهَا
لَمَّتِ الدُّنْيَا فِجَاجًا وَرِعَانَا !
جَمَعَتْ نِجَاجَهَا فِي وَاحِدٍ
جَمَعَ الْجَمْدَ مَكَانًا وَزَهَانَا !
دَوَّرَتْ كَالْأَرْضِ وَأَنْدَحَ أَتْسُهَا
وَعَدَا أَغْطَمَ سَهَا دَوْرَانَا !
رَنَّ فِي الدُّنْيَا صَدَاهُ، وَهَلَا
يُطْرِبُ الدُّنْيَا عَلَى الدَّخْرِ جَنَانَا
يُثَلِّ تَجْمَعُ الطَّيْرِ فِي كُلِّ قَمَرٍ
وَنَدَاوِ الشَّهِيدِ قَدَسَ اللِّسَانَا
أَسْمَعَتْ مَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا مَسْمَعٍ
وَأَعَارَتْهُ لِسَانًا وَبَيَانَا
وَأَنَّ شَرْقَ الْأَرْضِ بِالْحَبِّ لَهَا
سَلَّمَ الْمَغْرِبُ بِالطَّاعِمِ دَانَا
رَحِمَ (الْإِسْلَامِ) مَنْ أَوْشَا بِهَا
عَلَفَتْ بِمَفْأً عَلَى بَعْضِ جَنَانَا



(الْحَفَارَاتُ) ، أَلَمْ تَلَوْثِ بِهَا
غَيْرَ الْأَيَّامِ ، أَهْمِيئِهَا عِيَانَا

قَدْ تَلَّيْنِ عَلَى بَاهَانِهَا ،

كَأَنْتِ (الْفَصْحَى) لَهَا أَوْعِيَّةٌ

رَبِّ تَوْنٍ نَاصِلٍ ، عَادَ بِهَا

وَعُلَى قَدْ كَادَ يَعْرِدُهَا الْبِلَى ،

وَعِصَامِي ، كَسَتْهُ نُعْلَمًا

وَسَاعٍ خُصْرَةٍ مُهْدَبَةٍ

وَعَمَّا زَهْنِ أَنْصَارًا وَأَقْنَانَا

كَشَفِيفِ الصُّورِ زَادَتْهَا أَقْنَانَا

مِنْ سَنَا الْإِبْرِيذِ أَنْهَى لَمَعَانَا

كَأَلَّاتُهَا مِنْ عَوَادِيرِ صَبَانَا

مِنْ بُرُودِ الْمَجْدِ تَوْشِيًا عِطَانَا

فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ أَوْلَتْهَا الضَّمَانَا

نَهَضَتْ زَهْرَاءُ سَمَاءِ الذُّرَا

هَفَلَتْ بِالْعِلْمِ وَالسَّيْفِ مَعًا

تُرْنَا فِي قَرْنٍ ، وَأَسْتَحْصَا :

تَحْتَهَا (وَهْلَةٌ) يَجْرِي ضَاحِكًا

مُتَمِّعًا مِنْ كُلِّ نَعْمَى غَضَنَةٍ

كُنَّا رِ الْيَمِّ يَذْكُو وَمَغْنَانَا

نَفَدَتْ لِلْعِلْمِ وَالسَّيْفِ صِرَانَا

صَاحِبَ الْعِلْمِ لَدَيْهَا الصُّوْلَانَا

بِحِمْلِ الْخِصْبِ وَيَسْتَشْفِي الْجَانَا

بِابْتِرَاقِهِ رِطَابًا وَسِيمَانَا

أَلَيْسَ الْأَوْضَاحُ لِمَا عَ التَّنَا يَرْفُوقُ الْبِشْرُ عَلَيْهِ قَعْمَانَا
 كَنَدَوِيهَا .. رِقَّةً رَقْرَاقَةً وَمِرَاهَاً ، دَانْشَرَاهَاً وَهَنَانَا
 تَسْ تَرَى رَقْرَقَ فِي صَاحِبِهِ خُلْفَةُ الْأَزْهَرِ وَاللُّوَّةِ الرَّجَانَا ؟

*

يَا بِي " بَعْدَادَ " ، بَلِّ بِي ، وَأَنَا وَأَبِي قَلَّ لِي " بَعْدَادَ " فِدَانَا !

محمَّد بَهْجَةُ الْأَثَرِي

هـ ١٣٩٥/١

م ١٩٧٥/١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

بغداد هي « مدينة المنصور » ، وتسمى « المدينة المَدَوَّرَة »
دَوَّرَتْ فِي الْأَرْضِ وَانْدَاحَ اسْمُهَا
وَعَدَا أَعْظَمَ مِنْهَا دَوْرَانَا (١) .

وَتُسَمَّى « مدينة السلام » . ومن أسمائها « الزوراء » . شرع في بنائها المنصور
الخليفة الثاني للدولة العباسية سنة ١٤٥ هـ ، وانتقلت إليها الدولة سنة ١٤٨ هـ .
قال الخطيب البغدادي : « بلغني عن « أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » ،
قال : قد رأيت المدن العظام المذكورة بالإتقان والإحكام ، بالشَّامَاتِ -
وبلاد الروم ، وفي غيرها من البلدان ، فلم أَرْ مَدِينَةً قَطُّ أَرْفَعَ سَمَكًا ،
ولا أجودَ اسْتِدَارَةً ، ولا أَثْبَلَ نَبْلًا ، ولا أَوْسَعَ أَبْوَابًا ، ولا أجودَ فَصِيلًا
من « الزوراء » . كأنما صُبَّتْ فِي قَالِبٍ ، وكأنما أفرغت إفراغًا » .
وقال : « الصناعة بالبصرة ، والفصاحة بالكوفة ، والخير ببغداد » .
وقال علي بن المحسن التَّنُوحِي : « أخبرني أبي ، قال أبو القاسم
ابن الحسن الديلمي ، قال : « سافرت في الآفاق » ودخلت البلدان من حدسمرقند
إلى القيروان ، ومن سرنديب إلى بلد الروم ، فما وجدت بلدًا أفضل ولا
أطيب من بغداد » .

وقال لسبكتكين حاجب معز الدولة المعروف بالحاجب الكبير ، وقد
سأله ، قال : قد سافرت الأسفار الطويلة ، فأني بلد وجدت أطيَبَ وأفضَلَ ؟
فقلت : أيتها الحاجب إذا خرجت من « بغداد » ، فالَدُنْيَا كُلُّهَا رُسْتَاقٌ » .
وقال أبو القاسم عبيدالله بن علي الرَّقَظِي ، وكان أحد أدبائها « ومن
أَلِفَهِ الْمَعَرِّي فِي سَفَرِهِ إِلَى بَغْدَاد » قال : « أخذ أبو العلاء الْمَعَرِّي ، وهو

(١) من قصيدة الأستاذ محمد بهجة الأثري .

ببغداد يوماً يدي فغمزها ، ثم قال لي : يا أبا القاسم ، هذا بلد عظيم لا يأتي عليك يوم وأنت به إلا رأيت فيه من أهل الفضل من لم تره فيما تقدم .
 وكان بعضهم إذا ذكر بغداد ، قرأ قوله تعالى : (بلدة طيبة ورب غفور) .
 ونقل الخطيب البغدادي ، قال : « من مناقبها التي أفردها الله بها دون سائر الدنيا شرقاً وغرباً ، الأخلاق الكريمة ، والسجايا المرضية ، والمياه العذبة العذقة » والفواكه الكثيرة الدمثة ، والأحوال الجميلة ، والحذق في كل صفة ، والجمع لكل حاجة . والأمن من ظهور البدع ، والاعتباط بكثرة العلماء والمتعلمين ، والفقهاء والمتفهمين ، ورؤساء المتكلمين ، وسادة الحساب والنحو ، ومجيدي الشعراء ، ورواة الأخبار والأنساب وفنون الآداب ، وحضور كل طرفة ، واجتماع ثمار الأزمنة في زمن واحد ، لا يوجد ذلك في بلد من مدن الدنيا إلا بها . ولا سيما زمن الخريف . ثم إن ضاق مسكن بساكن وجد خيراً منه . وإن لاح له مكان أحب إليه من مكانه . لم يتعذر عليه النقلة إليه ، من أي جانب من جانبيه أراده ، ومن أي طرف من أطرافه خفف عليه . ومتى هرب أحد من خصمه وجد من يسترّه في قرب أو بُعد ، وإن أثر أن يستبدل داراً بدار ، أو سكة بسكة ، أو شارعاً بشارع ، أو زقاقاً بزقاق ، فغير ذلك من التبديل اتسع له الإمكان في ذلك [على] حسب الحالة والوقت . ثم عيون التجار المجهزين ، والسلطين المعظمين . وأهل البيوتات المبجلين ، في ناحية ، تنبعث الخيرات لهم إلى الذين هم في الحال دونهم ، غير منقطع ذلك ولا مفقود . فهي من خزائن الله العظام التي لا يقف على حقيقتها إلا هو وحده ، ثم هي مع ذلك منصورة محبورة ، كلما ظن عدو الإسلام أنه فائز باستئصال أهلها ، كبتته الله ، وكتبته لمنخريه ، واستوصلت قدرته بما ليس في تقدير الخلق أجمعين ، فضلاً من الله ونعمة . والله ذو الفضل العظيم .

وقال الخطيب :

« وأهل بغداد موصوفون بحسن المعرفة والتثبت في أخذ الحديث وآدابه . وشدة الورع في روايته ، اشتهر ذلك عنهم ، وعرفوا به . »

وقال ابن عُليّة المحدث : « ما رأيت أحسنَ رغبة في طلب الحديث من أهل بغداد » .

ووصف أحد كبار المؤرخين شعب العراق فقال : « إن العراق ، الذي بُنيت فيه بغداد ، هو صفوة الأرض ، ووسطها . يحيط به ستة أقاليم ، هي : الترك ، والهند ، والصين ، والشام ، والحجاز ، ومصر ، لذلك اعتدلت ألوان أهله ، وامتدت أجسامهم ، وسَلِمُوا من شقرة الروم والصقالبة ، ومن سواد الحبش وسائر أجناس السودان ، وجفاء أهل الجبال وخراسان ، ودمامة أهل الصين ، ومن جالسهم وشاكل خلقهم ، فسلموا من ذلك كله ، واجتمع في أهل هذا القسم من الأرض محاسن جميع أهل الأقطار ، بلطف من العزيز القهار » وكما اعتدوا في الخلقة كذلك لطفوا في الفطنة ، والتمسك بالعلم والأدب ومحاسن الأمور ^(١) .

وإنما هذا الوصف أراد به أهل بغداد وحدهم ، ولا ينطبق على كل القطر لاختلافهم في اللون والجنس . وبغداد حينذاك عروس الدنيا ، وعاصمة أكبر إمبراطورية فيها ، ومستودع أضخم بيت للمال ، وقبلية للطامحين الى الثراء السهل والبذخ والترف ، فقصدها النوايع والعباقرة والصناع والحقاق من سائر تلك الشعوب النسي ورثت مدنيات فارس والهند والصين والفراعنة والفينيقيين ، حتى اليونان والرومان ، واختلطوا في شعبها الأصيل ، وانصهروا شيئاً فشيئاً في بوتقة اجتماعية واحدة ، فكوّنوا كتلة شعبية ذات لون خاص ، وغلب عليهم طابع الأكثرية العربي ، وسادت فيهم لغة الحاكمين العرب » ودخل معظمهم في الإسلام . وكانت بغداد حين بنائها « المنصور » منقسمة داخل أسوارها الى أربع وعشرين محلة . ثم اتسعت رقعتها بعد زمن قصير الى أضعاف ما كانت عليه ، فشملت جانبي « الرصافة » و « الكرخ » ، وتفرعت ثوارعها المريضة الى فروع كثيرة ، وتناثرت قصورها الى مسافات شاسعة ، وبني سكّانها في كل حيّ من أحيائها عدداً من المساجد على غاية

(١) تاريخ بغداد ج ١ / ص ٢٢ .

من الأناقة ودقة الهندسة وجمال الذوق ، ففرشوا بعضها بالمرمر المسنون أو الحجارة السوداء اللامعة ، وغطّوا جدرانها بالفسيفساء على صور حدائق مورقة بأزهارها وأثمارها الملونة بالألوان الطبيعية ، ونصبوا في أفنيئها الأحواض والقنوات ، وأقاموا منائرهم العالية حول القباب المسدانة بالخزف المدهون بالأخضر والأبيض والأزرق والأحمر ، فبدت لناظرها عن بُعد أشبه بغابة كثيفة من تلك المنائر ، وقد انعكست أشعة الشمس فوق أهلتها المذهبة ، وشيدوا قرب كل مسجد حمامات أنيقة للاستحمام والنظافة ، حتى بلغ عددها الآلاف ، وغرسوا الحدائق العامة ، وتفننوا في جلب أنواع الورود والزهر من البلاد النائية ، وأكثروا من المتنزهات الشعبية ، عند تقاطع الشوارع ، وحول الأحواض المائية ، وقد اشتهر منها « بركة زلزل » ، والجسور الثلاثة القائمة على نهر دجلة ، وفيها الكثير من الممرات على ضفاف الجداول والقنوات المتصلة داخل المدينة ، وقد بلغ مجموعها مئة وخمسين قنطرة . وفي ضواحيها كثير من المتنزهات (أمثال : قطربل ، وطير ناباذ ، ومنتزه الكرخ) التي كان يقصدها الناس في أيام عطلهم وأعيادهم ، ويرتادها الشعراء والمُجَنِّان وعشاق اللهو والطرب والتبذل . وعدد كبير من الأديرة المشيئة في المواقع الجميلة . وعنى البغداديون ببناء قصورهم ومساكنهم وتشبيدها على طراز هندسي جميل ، وكل هذه القصور محاطة بحدائق غناء ، وعليها تماثيل البرنز والمرمر على شكل حيوانات وطيور يخرج من أفواهها الماء بأصوات مختلفة .

و « دار القرار » قصر « زبيدة » من أعظم قصورهم . قال كاتب في وصفه : « إنّه كان محاطاً بحديقة عظيمة ، جمع فيها جل ما في الدنيا من أنواع الطيور والوحوش والحيوانات النادرة ، وإن بهو الاستقبال ، وطوله ثمانون ذراعاً ، مفروش ببساط واحد مرصع بالأحجار الكريمة ، ويقوم سقفه على أسطوانات من الأبنوس المزيت بالعاج والذهب ، وقد كتبت على جدرانها آيات من التنزيل الحكيم ، بخطوط ذهبية زاهية . وليس فيها مسمار واحد إلا من الذهب . وقصر جعفر البرمكي في

«الشَّمَامِيَّة» تنهى في الإبداع والبذخ . وأمعن البغداديون في التظاهر بالنعمة ، وأسرفوا بالترف والذائد ، وتفتنوا فيها فزينوا بيوتهم بالألوان والأصباغ . وأنشوها بالوشي والديباج والستائر الذهبية والبسط الثمينة ^(١) . وابتاعوا الخيل الجياد والبغال البيض ، وطهموها بالسروج المزخرفة واللجم المفضضة ، وحملوا عليها في مواكبهم السلاح المحلى بالذهب والجوهر . واقتنوا العبيد والخصيان والجواري الفاتنات من مختلف الشعوب . وفي بغداد سوق لتجارة الرقيق . وعُنُوا بتحضير الأطعمة الطيبة ، وسخوا في الإنفاق عليها ، وتفتنوا في صنع الحلوى كالفالودج المغوس بدهن الفستق . واستعملوا أواني الذهب والفضة ، وشربوا بالزجاج الملون المنقوش بأبدع التصاوير . وفي ذلك يقول أبو نواس الحسن بن هانئ :

تدار علينا الراح في عَسَجَدِيَّة
حَبَبَتُهَا بأنواع التَّصَاوِيرِ فارسُ
قَرَارَتِهَا كِيسرى ، وفي جَنَابَتِهَا
مَهْأً تَدْرِيهَا بالقِيسِيّ الفوارسُ

وكانت المنازل في الصيف تبرّد بالثلج ، أو بالخيش المبلل بالماء وبالمراوح المرشوشة . وتعاطى الناس الشراب ألواناً ، واتخذوا للشراب لباساً خاصاً ، ورياحين ونُدْماناً . وكانوا يعطرون أنديتهم بالنَدِّ والبخور ، ويقدمون العطر بعد الانتهاء من الأكل . وكانت ألبستهم في غاية من الإتقان ، فمنها المقصّبة ، ومنها الموشاة والحرير الملون . وكانت بغداد مصدراً لأزياء النساء ، لوجود نساء الأمراء والخلفاء والموسرين والقادة . وكانت المُلَاعة الطويلة مستعملة لستر الجسم وإخفاء مفاته عن الأنظار وأهل الفضول . وكانت العصابات قد انتشرت ، يعصب بها الرأس ، ويشد مؤخرها حول الرقبة ، وكثيراً ما كانت العصابات تكلل بالجوهر ، وترصع بالأحجار الثمينة . وعرفت نساء بغداد التجميل ، فزججن الحواجب ، وعقصن الشعر على شكل

(١) انظر كتاب هارون الرشيد ، لجومرد .

التاج ، أو تركنه خُصْلاً قصيرة وقذائل على الظهر . ومنهن من كنَّ يقصرن شعرهن ، ويعرفن بالغلاميات على طراز الرجال والعلمان . ولم يكن الحجاب معروفاً في بغداد الا في عهودها البوذية والسلجوقية .

وللبغداديين أفراح يقيمونها بالمناسبات . أما النيروز فلا يحتفل به الا الفُرس والكرد والأكراد .



قال محمد بن سلام : سمعت أبا الوليد يقول : قال لي شعبة : أدخلت بغداد ؟ قلت : لا ، قال : فكأنك لم تَرَ الدنيا .

وسأل الإمام الشافعي صاحبه يونس : « يا يونس : أدخلتَ بغداد ؟ قال : لا ، قال : يا يونس : ما رأيت الدنيا ، ولا رأيت الناس » . وقال بعضهم : « الأرض كلها بادية » ، وبغداد حاضرتها .

ونقل ياقوت الحموي في معجم البلدان ، قال :

« من عجيب ذلك ما ذكره أبو سهل بن نوبخت ، قال : أمرني المنصور » لما أراد بناء بغداد بأخذ الطالع ، ففعلت ، فاذا الطالع في الشمس » وهي في القوس ، فخيرته بما تدل النجوم عليه من طول بقائها وكثرة عمارتها وفقر الناس الى ما فيها ، ثم قلت : وأخبرك خطة أخرى أسرك بها يا أمير المؤمنين . قال : وما هي ؟ قلت : نجد في أدلة النجوم أنه لا يموت بها خليفة أبداً حتف أنفه . قال : فتبسم ، وقال : الحمد لله على ذلك ، هذا من فضل ربي ، يؤتية من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

وكان من أعجب العجب أن « المنصور » مات وهو حاج ، و « المهدي » مات بماسبذان ، و « الهادي » مات بـ « عيساباذ » والرشد مات بـ « طوس » ، و « الأمين » قتل بالجانب الشرقي ، و « المأمون » مات بالبذندون قرب طرسوس ، والمتنصر والمتوكل والمتنصر وباقي الخلفاء ماتوا بسامراء . ثم انتقل الخلفاء الى « التاج » من شرقي بغداد (يريد الرصافة) .

البَابُ الْأَوَّلُ

بغداد في الشعر العباسي

أفاض الأدباء والشعراء في مدح بغداد وذكر محاسنها فأطنبوا ، ووجدوا مكان
القول ذا سعة فأطالوا وأطابوا .

من ذلك قول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفي الشاعر
عند تحول الخلفاء من بغداد :

أعانت في طول من الأرض والعرض

كبغداد من دار بها مسكن الخفض ؟

صفا العيش في بغداد ، واخضر عوده

وعيش سواها غير خفض ولا غص

تطول بها الأعمار ، إن غداها

مرري ، وبعض الأرض أمرأ من بعض

قضى ربها أن لا يموت خليفة

بها ، إنه ما شاء في خلقه يتقضي

تنام بها عين الغريب ، ولا ترى

غريباً بأرض الشام يطعم في الغمض

فإن جريت بغداد عنهم بقرضها

فما أسلفت إلا الجميل من القرض

وإن رُميت بالمجر منهم وبالقلي

فما أصبحت أهلاً لمجر ولا بغض

بغداد جنة الأرض :

قال أحد الفضلاء : « بغداد جنة الأرض ، ومدينة السلام ، وقبة الإسلام »

ومجمع الوافدين « وغرة البلاد ، وعين العراق » ودار الخلافة »

ومجمع المحاسن والطيبات « ومعدن الطرائف واللطائف ، وبها أرباب الغايات

في كل فن وآحاد الدهر في كل نوع » .

وقال أبو إسحاق الزجاج : « بغداد حاضرة الدنيا ، وما عداها بادية » .
 وقال أبو الفرج البغيا : « هي مدينة السلام ، بل مدينة الإسلام . الخِلافةُ
 الإسلامية بها عشت » وفترخت ، وضربت بعروقها « وبسقت بفروعها »
 وإن هواءها أعذى من كل هواء ، وماءها أعذب من كل ماء ، وإن نسيمها
 أرق من كل نسيم » .

وكان إذا طرأ على (ابن العميد) أحد من متحلي العلوم والآداب ، وأراد
 امتحان عقله ، سأله عن بغداد . فإن فطن بخواصها ، وتنبه على محاسنها ،
 وأثنى عليها « جعل ذلك مقدمة فضله » وعنوان عقله .

ولما رجع الصاحب من بغداد ، سأله ابن العميد عنها « فقال : « بغداد في
 البلاد » كالأستاذ في العباد » ، فجعلها مثلاً في الغاية في الفضل :



ووصف المقدسي البشاري بغداد وأهلها ، قال :

« بغداد لأهلها الخصائص والظرافة » والقرائح واللطافة . هواء رقيق
 وعلم دقيق « كل جسد بها » وكل حسن فيها ، وكل حاذق منها « وكل
 قلب إليها ، وكل حرب عليها . وهي أشهر من أن توصف ، وأحسن من
 أن تنعت « وأعلى من أن تمدح » .

تحيا النفوس بريها

قال في وصفها عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطمى :

ما بين قطر بل فالكرخ نرجسة
 على تقلبها في كل ما حين

تندى « ومنبت خيرى ونسرين

سقى لتلك القصور الشاهقات وما

تخفي من البقر الإنسية العين

تحيا النفوسُ بِرِيّاهَا إِذَا نَفَحَتْ
 وحرست بين أوراق الرياحينِ
 تَسْتَنُّ « دِجْلَةُ » فيما بينها فترى
 دُهمَ السّفِينِ تَعَالَى كالبراذينِ
 مناظر ذاتُ أبوابٍ مفتحةٍ
 أنيقةٍ بزخارفٍ وتزيينِ
 فيها القصور التي تهوي بأجنحةٍ
 بالزائرين إلى القوم المزورين
 من كل حِرَاقَةٍ يعلو فقارتها
 قصرٌ من الساج عالٍ ذو أساطينِ



الدنيا بأجمعها بغداد :
 قال ابن زريق الكاتب :
 سافرتُ أبغي « لبغداد » وساكنها
 مثلاً ، قد اخترتُ شيئاً دُونَهُ الياسُ
 هيهات ! « بغداد » الدنيا بأجمعها
 عندي ، وسُكَّانُ « بغداد » همُ الناسُ



بغداد منبسط الآمال :
 قال بعضهم :
 أبغداد يا دار الملوك « ومجتنى
 صنوف المُنَى يا مستقرّ المنايرِ
 ويا جنة الدنيا ، ويا مجتنى الغنى
 ومنبسط الآمال عند المناجر



هي البلدة الحسنة :

وقال طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن يصف بغداد :
سقى الله صوبَ الغاديات حلةً

يبغداد بين الخلد والكرخ والجسر
هي البلدة الحسنة حُفَّت لأهلها

بأشياء لا يُجَمَعْنَ مُذْ كُنَّ في مصر
هواءٌ رقيق في اعتدالٍ وصحة
وماءٌ له طعمٌ ألدُّ من الخمر
ودجلتها شطآنٍ قد نُظِمَا لنا

بتاجٍ الى تاج وقصرٍ الى قصرٍ
ثراها كسكٍ والمياه كفضةٍ
وحصباؤها مثل البواقيت والدُرِّ



فارق بغداد ففارق الجنة :

لعليّ بن جبلة الأنصاري « المعروف بـ « العكوك » ، وقد ارتحل
من بغداد :

لهفي على « بغداد » من بلدة

كانت من الأسقام لي جنة

كأنني « عند فراقي لها ،

« آدم » لما فارق « الجنة »



لذات بغداد :

قال أبو نواس الحسن بن هانيّ الحكّمي :

وقائل : هل تُريدُ الحجَّ ؟ قلت له :

نعم ؟ إذا قُنيَتْ لذاتُ « بغداد »

أَمَا وَ « قُطِرَ بُلٌّ » مِنْهَا بِحَيْثُ أَرَى ،
 فـ « قبة الفِرْك » من أكناف « كلواذِرِ »
 فـ « الصالحية » فـ « الكرخ » التي جمعت
 شذّاذ « بغداد » ما هُم لي بشذّاذِ
 فكيف بالحنّج لي مادمتُ منغمساً
 في بيت قوادة أو بيت نَبّاذِ !!
 وهَبْكَ من قصف « بغداد » تخلّصني
 كيف التخلّصُ لي من « طيرنا باذِرِ » ؟



السفن والحرّاقات في بغداد :

تفنن البغداديون في صنع الحرّاقات والسفن للتزّه في دجلة « منها على
 شكل الذهبيات والقباب ، ومنها على شكل العقبان والأُسُود » ومنها على
 شكل الدُّلْفِين . وروي أنه أحصيت السُّمِيرِيَّات المعبرانيات بدجلة ،
 فكانت ثلاثين ألفاً « لكثرة من يغدو ويروح بين الكرخ والرُّصافة من
 أهل المصالح .

وكان للأمين عدد من هذه السفن « قال أبو نُوَاس الحسن بن هانئ »
 الحَكَمِي يصف هذه الحرّاقات :

سَخَّرَ اللهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا
 لَمْ تُسَخَّرْ لِمُصَاحِبِ الْحَرَابِ
 فَإِذَا مَارِ كَابُهُ سِرْنَ بَرّاً
 سار في الماء رَاكِباً لَيْثَ غَابِ
 أَسَدًا بِأَسْطَى ذِرَاعَيْهِ يَهْوِي
 أَهْرَتَ الشِّدْقِ كَالِحِ الْإِنْيَابِ

لا يعاليه باللسجام ، ولا السو
ط ، ولا غمر دجلة في الركاب
عَجِبَ الناس إِذْ رَأَوْكَ عَلَى صُورَةٍ
لَيْثٍ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ
سَبَّحُوا إِذْ رَأَوْكَ سَرَتْ عَلَيْهِ
كَيْفَ لَوْ أَبْصَرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ ؟
ذَاتَ زَوْرٍ وَمَنْسَرٍ وَجَنَّا حَيْثُ
نَشَقُّ الْعُبَابَ بَعْدَ الْعُبَابِ
تَسْبِقُ الطَّيْرُ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا اسْتَعْجَلُوهَا بِجَيْشَةٍ وَذَهَابَ
بَارَكَ اللَّهُ لِلْأَمِينِ وَأَبْقَا
ه ، وَأَبْقَى لَهُ رِذَاءَ الشَّبَابِ
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ
هَاشِمِيٌّ مَوْفَّقٌ لِلصَّوَابِ



جسر بغداد :

قدم عبد الملك بن صالح بن علي العباسي الى بغداد ، فرأى كثرة الناس فيها ، فقال :

« ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة إلا ظننت أن الناس قد نُودِيَ فيهم » ! ولا غرو فقد ازدحمت بغداد بسكانها ، واتسعت حتى شملت مساحة واسعة من الأرض على جانبي دجلة ، وقامت فيها حارات هي أشبه بمدن متلاصقة . وكان يربط مدينة المنصور بمدينة المهدي جسران ، تغنى الشعراء بجمالهما ، وإنهما نزهة وسلوة لمن أضناه الوجد وهاج به الشوق .

قال علي بن الفرج الفقيه في أحد هذين الجسرين :

أَيَا حَبْدَا جَسْرٍ عَلَى مَتْنِ دَجَلَةٍ
بِإِتْقَانٍ تَأْسِيسٍ وَحُسْنٍ وَرَوْنَقٍ

جمال وفخر للعراق ونزهة
 وسلوة من أضناه فرط التشوق
 تراه اذا ما جئته متأماً - لا -
 كسطرٍ عبيرٍ خطٍّ في وسطٍ مهْرَقٍ
 أو العاج فيه الآبَنُوسُ مُرَقَشُ
 مثال فيُولٍ نَحْنُها أرضُ زَبَقٍ



وقال علي بن المحسن التَّنُوخِيّ : أنشدني أبي لنفسه :
 يومٌ "سرقنا العيش فيه خلصة"
 في مجلسٍ بفناء دجلة مفردٍ
 رَقَّ الهواءُ برقةٍ قُدَّامَه
 فغدوتُ رَقاً للزمان المسعدِ
 فكأن دجلةَ طيلسانٌ أبيض
 والجسرُ فيها كالطراز الأسودِ



من دخل بغداد :

يقول الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف الفيروزآبادي : « مَنْ
 دخل بغداد ، وهو ذو عقل صحيح وطبع معتدل ، مات بها أو بحسرتها » .
 والشعراء الذين تسعّر في صدورهم الشوق إليها بعد إبراحها ، كثيرون .
 منهم : القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي ، وقد نبأه
 المقام ببغداد ، فرحل إلى مصر ، فخرج البغداديون يودعونه ، وجعلوا
 يتوجعون لفراقه ، فقال : والله لو وجدت عندكم في كل يوم مُدّاً من
 الباقيتي ما فارقتكم . وقال في رحلته هذه مقطوعة عَبَّسَ فيها عن حنينه ووجده
 إلى بغداد ومغانيتها : قال :

سلامٌ على بغدادٍ من كل منزل
 وحقٌ لها مني السلامُ المضاعفُ
 فوالله ما فارقناها عن قِلي لها
 وإني بشططي جانيبيها لتعارفُ
 ولكنها ضاقت عليَّ برُحبيها
 ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
 وكانت كخيَلٍ كنتُ أهوى دُنُوهُ
 وأخلاقه تنأى به وتخالف

وقال فيها أيضاً :

طيب الهواء ببغداد يشوقني
 قرباً إليها وإن عاقت مقاديرُ
 وكيف أرحل عنها اليوم إذ جمعت
 طيبَ الهواءين : ممدودٌ ومقصورٌ



بغداد معدن كل طيب :

قال أبو بكر الخطيب البغدادي :

على « بغداد » معدن كل طيب
 ومغنى نزهة المتنزهين
 سلامٌ كلما جرحت بلحظ
 عيونُ المشتكين المشتهين !
 دخلنا كارهين لها ، فلما
 ألفناها خرجنا مكرهينها
 وما حبُّ الديار بنا ، ولكن
 أمرُ العيش فرقةٌ من هوين



أبرحل ألف

قُلْدِ عبيد الله بن عبد الله بن طاهر اليمنَ ، فجزع لخروجه ، فقال :
أَبْرَحَلُ أَلِفٌ ، وَيَقِيمُ أَلِفٌ ،

وَأَحْيَا لَوْعَةً ، وَيَمُوتُ قَصْفٌ ؟

على بغدادَ دارِ الله مني

سلامٌ ما سجا للعين طَرْفٌ

وما فارقتها لِقَلِي ، ولكن

تناولسني من الحدثان صَرْفٌ

أَلَا جَارٌ ؟ أَلَا فَرَجٌ قَرِيبٌ ؟

أَلَا جَارٌ من الحدثان كَهْفٌ ؟

لعلَّ زماننا سيعود يوماً

فيرجعَ أَلِفٌ وَيُسَرَّ أَلِفٌ

فبلغ الوزير هذا الشعر ، فأعفاه .



وقال أبو سعد محمد بن علي بن خلف النيرماني (وفي تأريخ بغداد
للهمداني : نيرمان من قرى الجبل بالقرب من همدان ، فمرة ينسب الى
همدان ، وتارة ينسب الى نيرمان) وبقية الأبيات مروية كلها في « فوات
الوفيات » . قال متشوقاً :

«لِيلِي» في بغداد هل أنتمأ ليا

على العهد مثلي ، أم غدا العهد باليا ؟

وهل ذرّفت يومَ النوى مُمَلَّتَا كَمَا

عليّ كما أُمسي وأصْبَحُ بَاكِياً ؟

وهل أنا مذكورٌ بخير لديكما

إذا ما جرى ذكرٌ لمن كان نائياً ؟

فِدَى لَكَ يَا بَغْدَادُ كُلَّ مَدِينَةٍ
 مِنْ الْأَرْضِ حَتَّى خُطَّتِي وَدِيَارِيَا
 فَقَدْ طُفْتُ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا
 وَسَيَّرْتُ خَيْلِي بَيْنَهَا وَرَكَابِيَا
 فَلَمْ أَرَ فِيهَا مِثْلَ بَغْدَادٍ مُتَزَلًّا ،
 وَلَمْ أَرَ فِيهَا مِثْلَ دِجْلَةٍ وَادِيَا
 وَلَا مِثْلَ أَهْلِهَا أَرْقَ شَمَائِلًا ،
 وَأَعَذَّبَ أَلْفَاظًا ، وَأَحْلَى مَعَانِيَا
 وَكَمْ قَائِلٍ : لَوْ كَانَ وَدُّكَ صَادِقًا
 لِبَغْدَادٍ ، لَمْ تَرْحَلِ ، فَقُلْتُ : جَوَابِيَا
 يَقِيمُ الرِّجَالِ الْمُسْرُونَ بِأَرْضِهِمْ
 وَتَرْمِي النَّوَى بِالْمُسْقِرِينَ الْمَرَامِيَا



لَهْفَ نَفْسِي :

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِي ، وَكَانَ يَقِيمُ فِي الْبَصْرَةِ :
 لَهْفَ نَفْسِي عَلَى الْمَقَامِ بِيغْدَا
 دَ ، وَشَرِبِي مِنْ مَاءِ كُوزٍ بِشَلَجِ
 نَحْنُ بِالْبَصْرَةِ الذَّمِيمَةِ نَسْقَى
 شَرَّ سُقْيَا مِنْ مَائِهَا الْأُتْرُجِيِّ
 كَيْفَ نَرْضَى بِشَرْبِهِ ، وَبَخِيرِ
 مِنْهُ فِي كَنْفِ أَرْضِنَا نَسْتَنْجِي |



وَقَالَ آخَرُ :

سَقَى أَرْبُعَ الْكَرْخِ الْغَوَادِي بِدِيمَةِ
 وَكُلَّ مَلِثٍ دَائِمِ الْهَطْلِ مُسْبِلِ

منازل فيها كل حسن وبهجة
وتلك لها فضل على كل منزل



وقال البياضى :

ولنا بزوراء العراق مواسم
كانت تُقام لطيبها أسواق
فكئثن بكت عيني دماً شوقاً الى
ذاك الزمان ، فمثلهُ يُشتاقُ



لأبن الرومي يحن إلى بغداد :

بَلَدٌ صَحِبَتْ بِهِ الشَّبِيبة والصَّبَا
ولبست ثوب العِزِّ وهوَ جَدِيدُ
وإذا تَمَثَّلَ فِي الضَمِيرِ رَأْيُهُ
وعليه أغصانُ الشَّبابِ تَمِيدُ



يوم ببغداد :

قال مطيع بن إياس :
ويوم ببغداد نعمنا صباحه
على وجه حوراء المدامع نَطْرَبُ
بيت ترى فيه الزجاج كأنه
نجومُ الدجى بين الندامى تقلبُ
يصرف ساقينا ، ويقطب تارة
فياطيها مقطوبة حين تقطبُ
علينا سحيق الزعفران وفوقنا
أكاليل فيها الياسمين المذهبُ

فما زلت أسقى بين صَنْجٍ وَمِزْهَرٍ
من الراح حتى كادت الشمس تغربُ



أنست بالعراق :

وقال القاضي أبو الحسن علي بن النبيه :
أنستُ بالعِراقِ بدرًا منيرًا ،
فَطَوْتُ غَيْهَبًا ، وخاضت هجيرًا
واستطابت رُبًا نسائم بفسدا
د ، فكادت لولا البُرى أن تطيرًا
ذكرت من مسارح « الكرخ » روضاً
لم يزل ناضراً وماءً نَمِيرًا
واجتنت من رُبًا « المحوّل » نُورًا
واجتلت من مطالع « التاج » نُورًا



آهًا على بغداد :

ولبعض نساء بغداد :
آهًا على بغدادِها وعِراقِها
وظبائنها والسِرِّ في أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه
تبدو أهلّتها على أطواقها
متبخترات في النعيم كأنما
خلّق الهوى العذريّ من أخلاقها
نفسى الفداء لها ، فأَيُّ محاسنٍ
في الدهر تشرق من سنا إشراقها !



محلة باب الطاق :

كانت بغداد مقسمة الى محالّ ، كلّ محلة كأنها مدينة قائمة بنفسها بأسواقها ومساجدها ومدارسها وحماماتها وأرباضها وحدائقها . وأوسع هذه المحالّ « القرية » و « باب الطاق » . وفي « باب الطاق » قال القزويني صاحب كتاب آثار البلاد وأخبار العباد : « كان بها سوق الطير ، فاعتقدوا أن من تعسّر عليه شيء من الأمور فاشترى طيراً من « باب الطاق » وأرسله ، سهل عليه ذلك الأمر . وكان عبدالله بن طاهر قد طال مقامه ببغداد ، ولم يحصل له إذن الخليفة « فاجتاز يوماً بباب الطاق » فرأى قُمريّة تنوح ، فأمر بشرائها وإطلاقها . فامتنع صاحبها أن يبيعها الا بخمس مئة درهم « فاشتراها وأطلقها ، وقال :

ناحت مطوّقةً بباب الطّاقِ

فجرت سوابقُ دمعِي المَهراقِ

كانت تغرّد بالأراك ، وربّما

كانت تغرّد في فروع السّاقِ

فرمى الفراقُ بها العِراقَ ، فأصبحتْ

بعد الأراك تنوح في الأسواقِ

فُجِيعت بأفراخٍ ، فأسبل دمعها

إن الدموع تبوحُ بالمشتاقي

تعيَسَ الفراق وبُتَّ جبلٌ وتبينه

وسقاه من سُمِّ الأساودِ ساقِ

ماذا أراد بقصده قُمريّة

لم تدرِ ما « بغدادُ » في الآفاق ؟

بي مثل ما بكِ يا حمامةُ « فأسألِي من فكَّ أسْرَكَ أن يحلَّ وثاقي



أُنْبِكِي عَلَى بَغْدَاد :

صَحْبَ إِسْحَاقَ الْمَوْصِلِي الْخَلِيفَةَ الْوَاتِقَ فِي سَفَرِهِ ، فَقَالَ يَتَغْنَى مَتَشَوْقًا إِلَى بَغْدَاد :

أُنْبِكِي عَلَى بَغْدَادَ وَهِيَ قَرِيبَةٌ ؟
فَكَيْفَ إِذَا مَا أَزْدَدَتْ مِنْهَا غَدًا بَعْدًا ؟ !
لَعَمْرُكَ مَا فَارَقْتَ بَغْدَادَ عَنْ قَلْبٍ
لَوْ أَنَا وَجَدْنَا عَنْ فِرَاقٍ لَهَا بُدًّا
إِذَا ذَكَرْتَ بَغْدَادَ نَفْسِي ، تَقَطَّعَتْ
مِنَ الشُّوقِ ، أَوْ كَادَتْ تَمُوتُ بِهَا وَجَدًّا
كَفَى حَزْنًا إِنْ رُمْتُ لَمْ أُسْتَطِعْ لَهَا
وَدَاعًا ، وَلَمْ أَحْدِثْ بِسَاكِنِهَا عَهْدًا



مُعْجَزٌ أَنْ تُرَى لِبَغْدَادَ مِثْلًا :

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ الْوَاسِطِيُّ :
أَلِدَارُ السَّلَامِ فِي الْأَرْضِ شَبْهٌ ؟
مُعْجَزٌ أَنْ تُرَى لِبَغْدَادَ مِثْلًا ؟
مَرْبَعٌ لِلْقُلُوبِ فِيهِ رَبِيعٌ
مَتَوَالٍ إِذَا الرِّبِيعُ تَوَالَى
بِلَدَةٍ تَسْتَفَادُ فِيهَا الْمَعَالِي
وَالْمَعَانِي شَمُوسُهَا تَتَجَلَّى



أَرَا جَعَلَتْ تِلْكَ الْإِيَالِي :

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجُرْجَانِيُّ :
أَرَا جَعَلَتْ تِلْكَ الْإِيَالِي كَعَهْدِهَا
إِلَى الْوَصْلِ ، أَمْ لَا يَرْتَجِي لِي رَجُوعُهَا ؟

وصحبة أقوامٍ لَبِسْتُ لِفَقْدِهِم
 ثِيَابَ حِدَادٍ يَسْتَجِدُّ خَلِيْعُهَا
 إذا لاح لي من نحو « بغداد » بارق
 تجافت جنوبي واستطير هجوعُها
 وإن أخلفتها الغادياتُ وعودَها
 تكلَّفَ تصديق الغمام دموعُها
 سقى جانبي « بغداد » كلُّ غمامة
 يحاكي دموعَ المُستَهام هُوعُها
 معاهد من غزلانٍ لِنَسٍ تحالفت
 لواظها أن لا يداوى صريعُها
 بها تسكن النفس النفور ويغتدي
 بآنسٍ من قلب المقيم نزوعُها
 يحنُّ إليها كُـلُّ قلبٍ ، كأنما
 تشاد بحبات القلوب ربوعُها
 فكُـلُّ ليالي عيشها زمنُ الصبا
 وكُـلُّ فصول الدهر فيها ربيعُها



سأغفر للأيام :

وقال القاضي الجرجاني أيضاً :
 سقى جانبي بغداد أخلافُ مُزنة
 تُحاكي دموعي صوبَها وانحدارَها
 فلي فيهما قلب شجاني اشتياقه
 ومهجته حرّى أقلّ ادّكارَها
 سأغفر للأيام كلَّ عزيمة
 إذا قرّبت بعد البعاد مزارَها



مرأى ببغداد من دجلة :

ولبغداد منظر حسن لمن يراها من دجلة . تكاد أخذ بمجامع القلوب ،
ولاسيما في الفصول الطيبة المواء ، وفي ليالي القمر . وقد تغنى بمنظرها الشعراء .
ومن ذلك قول السّلاميّ ، وقد ركب زورقاً في دجلة :

وميدانٍ تجول به خيولٌ

تقود الدارعين ولا تُقَادُ

ركبتُ به الى اللذات طيرفاً

له جسمٌ وليس له فؤادُ

جرى فحسبت أن الأرضَ وَجَهَهُ

ودجلةٌ ناظرٌ وهو السّوادُ



دجلة والقمر :

وقال القاضي التنوخي : يصف دجلة والقمر يلعب عليها :

أحسنُ بدجلةَ والدُّجى مُتَصَوِّبُ

والبدْرُ في أفقِ السّماءِ مُغْتَرِبُ

فكأنتها فيه بِسَاطُ أَزْرَقُ

وكأنته فيها طِرازُ مُذْهَبُ



وقال منصّور :

كم ليلةٍ سامرتُ فيها بدرَها

من فوق دجلة قبل أن يتغيّبا

والبدْرُ يَجْنَحُ للأفول كأنّه

قد سلَّ فوق الماء سيفاً مُذْهَباً



في ذم بغداد :

وجرى ذمها على لسان جماعة من أهل الورع والصلاح ، ولا سيما الزهاد والنسّاك . وما حملهم على ذلك إلا ما عاينوه فيها من الترف واللهو ، واندفاع مترفيها وراء اللذة ، وانغماس شبابها في المجون واللهو ، وعزوفهم عن الذِّكر والقرآن ، وتهاونهم بأوامر الدين ، كما شاع ذمّها على لسان المغاليك والمعلمين من الشعراء . ومن ذلك قول بعض الصالحين :

قل لمن أظهر التنسك في النـا

س ، وأمسى يُعَدُّ في الزُّهّادِ :

الزَمَ الثَّغَرَ والتواضع فيه

ليس « بغداد » منزل العُبّادِ !

لِإِنَّ « بغداد » للملوك محلٌّ

ومُنَاخٌ للفرس الصيَّادِ



وللمفاليس دار الضنك والضيق :

ومن شائع الشعر في ذلك قول أحد القاضيين أبي محمد عبد الوهاب

المالكي :

بغدادُ دارٌ لأهل المال طيبةٌ

والمفاليس دارُ الضنك والضيقِ

أصبحتُ فيها مُضَاعاً بين أظهرهم

كأنّني مُصْحَفٌ في بيتِ زنديقِ



بلدة تمطر الغبار :

قال مطيع بن إلياس :

زادَ هذا الزمانُ ثِيراً وعسراً

عندنا اذْ أَحَلَّنا بغدادا

بلدة تمطر الغبار على النَّا
 س كما تمطر السماء الرّذاذا
 خربت عاجلاً كما خرب اللّـ
 هُ بأعمالِ أهلها «كلواذى»



أعرابي يفضّل سكّنى الحزن على «كرخ بغداد» :
 لرؤضة من رياض الحزن أو طرف
 من «القرية» جرّد غير محروث
 أشهى وأحلى لعيني من مررت به
 من كرخ بغداد ذي الرمان والثوث



وكتب عبد الله بن المعتز الى صديق له يمدح سامراء ويصف خرابها ، ويذم
 بغداد :

« كتبت من بلدة قد أنهض الله سكانها ، وأقعد حيطانها ، فشهد اليأس فيها
 ينطق « وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكأن عمرانها يطوى ، وخرابها ينشر .
 وقد تمزقت بأهلها الديار « فما يجب فيها حق جوار ، فحالها تصف للعيون
 الشكوى ، وتشير الى ذم الدنيا . على أنها وإن جُفيت معشوقة السكّنى
 رجيسة المثوى . كوكبها يقظان ، وجوهرها عريان ، وحصاؤها جوهر ،
 ونسيمها معطر ، وترابها أذفر ، ويومها غداة ، وليلها سحر ، وطعامها
 هنيء ، وشرابها مريء . لا كبلدتكم (يريد بغداد) الوسخة السماء ، الومدة
 الماء والهواء « جوّها غبار ، وأرضها خبّار ، ومازها طين « وترابها
 سرجين « وحيطانها نزوز ، وتشربنها تموز . فكمن من شمسها من محترق «
 وفي ظلّها من عريق . ضيقة الديار ، وسيئة الجوار . أهلها ذئاب ،
 وكلامهم سياب ، وسائلهم محروم ، ومالهم مكتوم ، ولا يجوز إنفاقه »

وَلَا يُحَلُّ خِنَافَهُ . حُشُوشَهُمْ مَسَابِلُ ، وَطَرَفَهُمْ مَزَابِلُ ، وَحَيِّطَانَهُمْ أَخْصَاصُ ،
وَبَيُوتُهُمْ أَقْفَاصُ ۝ وَلِكُلِّ مَكْرُوهِ أَجَلٌ ، وَلِلْبَقَاعِ دَوْلٌ ۝ وَالْدَّهْرُ يَسِيرُ
بِالْمَقِيمِ ، وَيَزْجُ الْبُؤْسُ بِالنَّعِيمِ ۝



و قال من قصيده :

كَيْفَ نَوْمِي وَقَدْ حِلَّتْ بِبَغْدَا
دَ مَقِيمًا فِي أَرْضِهَا لَا أَرِيْمُ ؟
بِبِلَادٍ فِيهَا الرَّاكِبَا عَلَيْهِ —

نَ أَكَالِيلُ مِنْ بَعُوضٍ تَحُومُ
جَوْهَا فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ دُخَا
نَ كَثِيفٌ ، وَمَاؤُهَا يَحْمُومُ

وَبَحَّ دَارِ الْمَلِكِ الَّتِي تَنْفَحُ الْمِسْ
كَ إِذَا مَا جَرَى عَلَيْهِ النَّسِيمُ
كَيْفَ قَدْ أَقْفَرَتْ وَحَارَبَهَا الدَّهْرُ

بِرِّ ۝ وَعَيْنُ الْحَيَاةِ فِيهَا الْبُومُ
نَحْنُ كُنَّا سَكَانَهَا فَانْقَضَى ذَا
لَكَ عَنَّا ، وَأَيُّ شَيْءٍ يَسْدُومُ ؟



كَعْنَيْنِ تَعَانِقُهُ عَجُوزُ :

و قال

أَطَالَ الْمَهْمُ فِي بَغْدَادٍ لَيْسَلِي
وَقَدْ يَشْقَى الْمَسَافِرُ أَوْ يَفْزُوزُ
ظَلَلْتُ بِهَا عَلَى رَغْمِي مَقِيمًا

كَعْنَيْنِ تَعَانِقُهُ عَجُوزُ ۝



تَعَلَّمْتُ نَسِجَ التَّكَاكُ :

و قال أيضاً ، وقد كان مسجوناً في حبسها الكبير ، وقد تعلَّم حياكة

التكك ، وكانت هذه الحياكة وتطريزها يضرب بها المثل في سجون بغداد ،
وكذلك كانت الى عهود قريبة :

تعلمت في بغداد نسج التكك

وكتبت امرأة قبل حبسي ملك

وقيدت بعد ركوب الجيـا

د ، وماذاك الا بيدور الفلك



ود أهل الزوراء زور :

قال محمد بن أحمد بن شميعة البغدادي :

ود أهل الزوراء زور ، فلا تغف

تترز بالوداد من ساكنيها

هي دار السلام حسب ، فلا يبط

مع منها إلا بما قيل فيها

يلمز أهلها بالبخل ، وأنهم يكتفون من ترحاب أصدقائهم بالسلام .



ميدانها :

قال أحد الشعراء :

هل الله من « بغداد » يا صاحٍ مخرّجي

فأصبح لا تبدو لعيني قصورها

وميدانها المذري علينا ترابها

إذا شجبت أبنائها وحميرها

وقال آخر :

أدم « بغداد » والمقام بها

من بعد ما خيرة وتجريب

ما عند سكانها لمختبـط

خير ولا فرجة لكروب

يحتاج باغي المقام بينهم
 الى ثلاثٍ من بعدِ تشريبِ
 كنوزِ قارونَ أن تكونَ له ،
 وعمرِ نوحٍ ، وصبرِ أيوبِ
 قومٌ مواعيدهم مزخرفة
 بزخرف القول والأكاذيبِ
 خلّوا سبيل العلي لغيرهمُ
 ونافسوا في الفُسوق والحُوبِ



شُهَب البطون :
 بات أعرابيٌّ في بغداد ، فهاجت عليه براغيثها : فقال شاكياً :
 لقد طال في « بغداد » ليلى ، ومن يَبِيتُ
 ببغداد يُصْبِحُ ليلَهُ غيرَ راقِدٍ
 بِلادٍ إذا وَلَّى النَّهارُ تَنافرت
 براغيثُها من بين مَثْنَى وواحدٍ
 دِيازجةُ شُهَب البطون ، كأنَّها
 بِغَالٍ بِرِيدٍ أرسلت في مَداوِدِ



كفى حزنًا :
 وقال أحد الشعراء ، وقد ضاقت عليه مسالك الرزق في بغداد :
 كفى حَزَنًا ، والحمدُ لله : أنَّني
 ببغداد قد أعْيَيْتُ عليَّ مذاهبي
 أصحاب قومًا لا أَلَدُ صِحابهم
 وآلُ قومًا لست فيهم براغبِ

ولم أثور في بغداد حباً لأهلها
ولا أنا فيها مستفاداً لطالب
سأرحل عنها قالياً لسراتها
وأتركها ترك الملول المجانب



سقياً لبغداد :
وهذا شاعر يمدح بغداد ، ويذم أهلها :
سقياً لبغداد ورعيّاً لها
ولا سقى صوب الحيا أهلها
يا عجباً من سقل مثليهم !
كيف أبيعوا جنّة مثلها ؟ !



بغداد حين تمطر تندى :
وقال أعرابي من الريف ، وقد استوبأ مناخها :
أرى الريف يدنو كل يوم وليلة
وأزدد من « نجد » وساكنه بُعداً
ألا إن بغداداً بلاد بغیضة
إليّ ولین أمست معيشتها رَغداً
بلاد تری الأرواح فيها مریضة
وتزداد نَتناً حين تمطر أو تندى



بغداد دار بليّة :
وقال أعرابي أقام بها ، :
ألا يا غراب البين ! مالك ثاوياً
ببغداد لا تمضي ، وأنت صحيح ؟

ألا إنَّما بغداد دارُ بليَّةٍ
هل اللهُ من سجن البلاد مُريحٌ ؟



بغداد تصلح للموسر :

قال أبو يعلى بن الهبارية : أنشدني معدان التغلبي :

بغدادُ دارٌ « طيِّبها آخذٌ »

نسيمها منِّي بأنفاسي

تصلح للموسر « لا لأمريءٍ »

بيت في فقرٍ وإفلاس

لو حلَّها قارونُ ربُّ الغنى

أصبح ذا همٍّ ووسواسٍ

هي التي تُوعَدُ « لكنَّها

عاجلة للطاعم الكاسي

حورٌ وولدانٌ ومن كلِّ ما

تطلبُهُ فيها سوى النَّاسِ (١)



ليملك يا بغداد :

قال طاهر بن الحسين الخزاعي بالولاء :

زعم النَّاس أن ليملك يا بغـ

دادُ ! ليلٌ يطيب فيه النَّسيمُ

(١) أي الجنة « لكنَّها من غير ناس .

وَلَعَمْرِي ! مَا ذَاكَ إِلَّا لِأَن خَا
لَفَهَا بِالنَّهَارِ مِنْكَ السَّؤْمُ
وَقَلِيلَ الرَّخَاءِ يَتَّبِعُ الشَّدَّ
عِنْدَ الْأَنَامِ خَطْبٌ عَظِيمُ



سَأَلَ الْمُعْتَصِمُ أَبَا الْعَيْنَاءِ عَنْ بَغْدَادَ ، وَكَانَ سَيُّ الرَّأْيِ فِيهَا « فَقَالَ : هِيَ ،
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! كَمَا وَصَفَهَا عِمَارَةُ بْنُ عَقِيلٍ :

مَا أَنْتَ يَا بَغْدَادُ « إِلَّا سَلْحٌ إِذَا اعْتَرَاكَ مَطَرٌ أَوْ نَفْحُ
وَلِنْ جَفَفَتْ فُتْرَابٌ بِرَّحُ



وحيد المغنية :

وَأَشْتَهَرَتْ فِي بَغْدَادَ مَغْنِيَةٌ بَارِعَةُ الصَّوْتِ جَمِيلَةُ الصُّورَةِ ، اسْمُهَا « وَحِيدٌ » ،
وَكَانَتْ تَعْدُوْ مِنْ مَفَاخِرِ بَغْدَادَ وَزِينَتِهَا . هَامَ بِصَوْتِهَا النَّاسُ ، وَأَعْجَبَتْ
عَاشِقِيهَا أَيْ إِعْجَابَ ، وَفَتَنَتْ ابْنَ الرَّومِيِّ فَخَلَّدَهَا بِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ الْفَيْسَةِ :
يَا خَلِيلِيَّ ! تَيَسَّمَّتَنِي « وَحِيدٌ » .

فَفُؤَادِي بِهَا مُعَنَّيٌّ عَمِيدُ
غَادَةُ زَانَتُهَا مِنَ الْغَصَنِ قَدْ
وَمِنْ الظُّبُنِي مُقْلَتَانِ وَجِيدُ
وَزَهَاهَا مِنْ قَرْعِهَا وَمِنْ الْحَدِّ -
- يَنْ ذَاكَ السَّوَادُ وَالتَّوْرِيدُ
فَهِيَ بَرْدٌ بِخَدَّيْهَا وَسَلَامُ
وَهِيَ لِلْعَاشِقِينَ جَهْدُ جَهِيدُ

مَالِيَا نَصْطَلِيهِ مِنْ وَجَنَتَيْهَا
 غَيْرَ تَرَشَّافٍ رِيْقَهَا تَبْرِيدُ
 مِثْلَ ذَلِكَ الرُّضَابِ أَطْفَأَ ذَلِكَ ...
 وَجَنَدَ لَوْلَا الْإِيَاءُ وَالتَّصْمِيدُ
 وَغَرِيرٍ بِحَسْنِهَا ، قَالَ : صِفْنَهَا .
 قُلْتُ : أَمْرَانِ بَيِّنٌ وَشَدِيدُ
 يَسْهَلُ الْقَوْلُ إِنَّهَا أَحْسَنُ الْأَشْءِ
 سِيَاءٍ طُرّاً ، وَيَصْعُبُ التَّحْدِيدُ
 تَتَجَلَّى لِلنَّاضِرِينَ إِلَيْهَا ———
 فَشَقِيٌّ بِحَسْنِهَا وَسَعِيدُ
 ظَبِيَّةٌ تَسْكُنُ الْقُلُوبَ وَتُرْعَا
 هَا ، وَقَمْرِيَّةٌ لَهَا تَغْرِيدُ
 تَتَغَنَّى كَأَنَّهَا لَا تُغَنِّي
 مِنْ سَكُونِ الْأَوْصَالِ وَهِيَ تُجِيدُ
 لَا تَرَاهَا — هُنَاكَ تَجْجَحُظُّ عَيْنُهَا
 لَكَ مِنْهَا ، وَلَا يَدِيرُ وَرِيدُ
 مِنْ هُدُوءٍ وَلَيْسَ فِيهِ انْقِطَاعُ
 وَسُجُوءٍ وَمَا بِهِ تَبْلِيدُ
 مَدَّةً فِي شَأْوٍ صَوِيَّهَا نَفْسٌ كَا
 فِي كَأَنْفَاسِ عَاشِقِيهَا مَدِيدُ
 وَأَرْقَى الدَّلَالُ وَالنُّجُجُ مِنْهُ
 وَبِرَاهُ الشَّجَا فَكَادَ يَبِيدُ
 فَتَرَاهُ يَمُوتُ طَوْرًا وَيَحْيَا
 مُسْتَلَدٌ بَسِيطُهُ وَالنَّشِيدُ

فيه وشي " وفيه حلتي من النّفث
 سم مصوغ " يختال فيه القصيد
 طاب فؤوها وما ترجّع فيه
 كل شيء بها بذاك شهيد
 ثغّب ينقّع الصّدَى ، وضاء
 عندّ يوجد السرورُ الفقيد
 فلها الدهر لائمٌ مستزيد
 ولها الدهر سامعٌ مُستعيد
 في هوى مثلها يخيفُ حليم
 راجحٌ حليمه ، ويغفوى رشيد
 ما تعاطي القلوب إلا أصابت
 بهواها منهنّ حيث تُريد
 وتَرُ العزفِ في يديها مُضاه
 وتَرُ الزحف فيه سهم شديد
 عيبُها أنّها اذا غنّت الأحـ
 رارَ ظلُّوا وهم لديها عبيد
 واستزادت قلوبهم من هواها
 برقاها وما لديهم مزيـد



مغـاني بغداد

من معالم بغداد ومُتَنَزَّهاتها : « قصر وضاح » و « بركة زلزول »
التي يقول فيها أحد الشعراء :

لو أن زهيراً وأمراً القيس أبصرا

ملاحمة ما تحويه « بركة زلزول »

لما وصفنا سلمى ولا أمَّ جندب

ولا أكثر اذكر الدخول وحول

والمُتَنَزَّه في باب الكرخ . و بركة زلزول ببغداد تقع بين الكرخ والصرّة وباب
المحول وسويقة أبي الورد . حفرها زلزول . ووقفها على الناس ، فنسبت
اليه . وزلزول هذا كان يضرب به المثل بحسن ضربه على العود . ضرب للمهدي
والهادي والرشيد ، حتى عرف بزلزل الضارب .

قال « علي بن الجهم » يصف قيان المفضل « بباب الكرخ :

نزلنا بباب الكرخ أفضل منزل

على محسنات من قيان المفضل

فلا بن سرينج والغريص ومعبّد

ودائع في آذاننا لم تبدل

أوانس ما فيهين للضيف حشمة

ولا ربّهن بالمهيب المجل

يسر إذا ما الضيف قلّ حياؤه

ويغفل عنه وهو غير مغفل

ويكثر من ذم الوقار وأهله

إذا الضيف لم يأنس ولم يتبدّل

ولا يدفعُ الآيدي السفيهةَ غيرةً
 إذا نال حظاً من لبوسٍ وما كل
 ويُطرق لِطراقِ الشُّجاعِ مهابةً
 ليطلقَ طرفَ الناظرِ المتأملِ (١)
 فتأتمِلُ بدءاً في بيتهِ وتبدَأُ لَنَ
 وإيَّاكَ والمولى ، وما شئتَ فافعلِ
 أشيرُ بيدٍ « واغمِزْ بطرفٍ ، ولا تخفِ
 رقيباً إذا ما كنتَ غيرَ مُبَخَّلِ
 وأعرضْ عن المصباحِ والنهَجِ بدمه
 فإنَّ خمدَ المصباحِ فادُنُ وقبِلِ
 وسلِّ غيرَ ممنوعٍ « وقلِّ غيرَ مُسَكَّتِ
 ونمِّ غيرَ مدعُورٍ « وقم غيرَ مُعَجَّلِ
 لك البيت ما دامت هداياك جمَّةً
 ودمتَ مليّاً بالشرابِ المُعَسَّلِ
 تُصان لك الأبصار من كلِّ منظرٍ
 ويُصَغَى إليك بالحديثِ المُفَصَّلِ
 فبادرْ بأيَّامِ الشبابِ « فإنتها
 تفوت وتفننى ، والغواية تنجلي
 ودعْ عنك قولَ النَّاسِ : أَلِفَ مالهُ
 فُلانٌ « فأحسنْ مدبراً غيرَ مُقْبِلِ
 هل العيشُ إلَّا ليلةٌ طرحت بنا
 أواخرها في يومٍ لموِّ مُعَجَّلِ

(١) الشجاع : ذكر الأفعى .

سقى الله « باب الكرخ » من مُتَنَزَّهٍ
 الى « قصر وَصَّاح » « فبركة زلزلِ »
 مساحب أذيال القيان « ومسرح الـ
 حسانِ ، وماوى كلَّ خِرْقٍ مُعْدَلِ
 منازلُ لا يستتبع الغيث أهلها
 ولا أوجه اللذات عنها بمُعْزَلِ
 منازل ، لو أن امرأ القيس حلَّها
 لأقصر عن ذِكر « الدَّخُولِ وَحَوْمِلِ »
 لِذَنْ لِرَأْيِ أَمْنَحُ الْوَدَّ شَادِنَا
 مُشْتَمِرَ أذيال القبا غير مرسلِ
 اذا الليل أدنى مضجعي منه لم يقل :

« عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزِلِ ! »



عيون المها أو القصيدة الرصافية :

ولعلي بن الجهم القصيدة الرُصافية ^(١) التي فتن الأدباء بمطلعها وبنسج
 القصص حولها :

- (١) عدد أبياتها ثلاثة وأربعون بيتاً على وفق ترتيب الأستاذ خليل مردم
 وقد شرح ديوان ابن الجهم وطبعه وقدم له . جمعها من مصادر شتى .
 ووردت متفرقة في كتب الأدب . ومن أهم مصادرهما : حماسة ابن
 الشجري « ومراة الزمان لسيط ابن الجوزي ، وعيون التواريخ لابن
 شاعر ، والكشكول للبهاء العاملي الذي أورد منها ٢٤ بيتاً . ومن اللف
 ما نسج حولها من القصص ما حكاه ابن الجوزي في كتاب الأذكياء ، قال :
 قعد رجل على جسر بغداد « فأقبلت امرأة بارعة الجمال من جهة
 الرُصافة الى الجانب الغربي « فاستقبلها شاب ، فقال لها : رحم الله
 عليّ بن الجهم « فقالت : رحم الله أبا العلا المعري . وما وقفا بل سارا .
 قال الرجل فتبعتهما المرأة ، فقلت لها : والله الا ما قلت ما اراد بابن الجهم ،
 فضحكت وقالت : اراد به :

عيون المهّا بين الرّصافّة والجسّرِ
 جَلَبَبْنِ الهوى من حيثُ أدري ولا أدري
 أعدنْ لي الشوقَ القديمَ ، ولم أكن
 سلوتُ ، ولكن زِدْنِ جَمَراً على جَمَرِ
 سَلِمْنِ وأسلمن القلوبَ ، كأنّما
 تُشكُّ بأطرافِ المُشَقَّقَةِ السُّمْرِ
 وقُلْنِ لنا : نحنُ الأهلّةُ ، إنّما
 تضيءُ لمن يسري بليّلي ولا تغري
 فلا بذلَ الا ما تَزوّدَ ناظرُ
 ولا وصلَ الا بالخيال الذي يسري
 أزحْن رَسِيس القلب عن مُسْتَقَرِّهِ
 وألْهَبْنِ ما بين الجوانِحِ والصدرِ
 فلو قبلَ أن يبدو المشيب بدأني
 بيأس مُبينٍ أو جنحنا الى الغدرِ
 ولكِنَّه أودى الشبابُ ، وإنّما
 تصاد المهّا بين الشبيبة والوفْرِ
 أمّا ومشيبٍ راعهُنَّ لربّما
 غمزن بنائناً بين سَحَرٍ الى نَحَرِ
 وبتنا على رغم الوشاة كأنّنا
 خايطانٍ من ماء الغمامة والخمرِ

= عيونُ المهّا بين الرّصافّة والجسّرِ
 جلبن الهوى من حيثُ أدري ولا أدري
 وارتدنا أنا بأبي العلاء قوله :
 فيا دارها بالخيف إنّ مزارها
 قريب ، ولكن دون ذلك أهوال

فَإِنْ حُلْنَ أَوْ أَنْكَرْنَ عَهْدًا عَهْدَنَّهُ
 فغَيْرُ بَدِيعٍ لِلْغَوَانِي وَلَا نُكْرٍ
 خَلِيلِي ! مَا أَحْلَى الْهَوَى وَأَمَرَّةُ !
 وَأَعْلَمَنِي بِالْحُلُوِّ مِنْهُ وَبِالْمُرَّةِ !
 كَفَى بِالْهَوَى شُغْلًا ، وَبِالشَّيْبِ زَاجِرًا
 لَوْ أَنَّ الْهَوَى مِمَّا يُنْهَنَّهُ بِالزَّجْرِ
 بِمَا بَيْنَنَا مِنْ حُرْمَةٍ ، هَلْ رَأَيْتُمَا
 أَرَقَّ مِنَ الشُّكْوَى وَأَقْسَى مِنَ الْهَجْرِ ؟
 وَأَفْصَحَ مِنْ عَيْنِ الْمَحَبِّ لَسَرِّ .
 وَلَا سَيِّمَا إِنْ أَطْلَقْتَ عِبْرَةَ تَجْرِي ؟
 وَمَا أَنْسَ مِثْلَ الْأَشْيَاءِ ^(١) لَا أَنْسَ قَوْلَهَا
 لِحَارَتِهَا : مَا أَوْلَعَ الْحُبَّ بِالْحَرِّ !
 فَقَالَتْ لَهَا الْآخَرَى : فَمَا لَصَدِيقُنَا
 مُعَنَّى ؟ وَهَلْ فِي قَتْلِهِ لَكَ مِنْ عُدْرٍ ؟
 صِلِيهِ ، لَعَلَّ الْوَصْلَ يُحْيِيهِ ، وَاعْلَمِي
 بَأَنَّ أَسِيرَ الْحُبِّ فِي أَعْظَمِ الْأَسْرِ
 فَقَالَتْ : أَذُودُ النَّاسَ عَنْهُ ، وَقَلَمًا
 يَطِيبُ الْهَوَى إِلَّا لَمَنْهَتِكَ السِّتْرُ
 وَأَيُّقِنَا أَنَّ قَدْ سَمِعْتَ ، فَقَالَتَا :
 مَنْ الطَّارِقُ الْمُصْغِي إِلَيْنَا وَمَا نَدْرِي ؟
 فَقُلْتُ : فَنَى إِنْ شِئْتُمَا كَتَمَ الْهَوَى
 وَلَا فَخْخَلَاعُ الْأَعِنَّةِ وَالْعُدْرُ

(١) مِثْلَ الْأَشْيَاءِ : مِنْ الْأَشْيَاءِ ، لَفَةً لِأَحَدِي الْقِبَالِ .

على أنه يشكو ظلوماً وبُخلاًها
 عليه بتسليم البشاشة والبشر
 فقالت : هُجِينَا ۖ قلت : قد كان بعض ما
 ذكرت ، لعلَّ الشرَّ يُدْفَعُ بالشرِّ
 فقالت : كأنني بالقوافي سوائراً
 يَرِدُنْ بَنامِصراً ، وَيُصْدِرُنْ عَن مِصْرِ
 فقلت : أَسَاتِ الظَّنَّ بِي ، لست شاعراً
 وإن كان أحياناً يجيش به صدري !
 فما كُلُّ من قَادَ الجيَادَ يَسُوسُهَا
 ولا كُلُّ مَنْ أَجْرَى يقال له : مُجِيرِي
 صِلِي واسألِي مَنْ شئتِ يُخْبِرُكِ أَنَّنِي
 على كَلِّ حَالٍ نِعَمَ مُسْتَوْدَعُ السَّرِّ
 وما أنا ممن سار بالشعر ذِكْرُهُ
 ولكنَّ أشعاري يُسَبِّحُهَا ذَكْرِي
 وللشعر أنباع كثيرٌ ، ولم أكن
 له تابعاً في حالٍ عسرٍ ولا يُسرٍ
 وما الشعرُ مما أُستَظْلُ بِظِلِّهِ
 ولا زادني قدراً ولا حَطَّ من قدرِي
 وبقية القصيدة ثلاثة عشر بيتاً في مدح الخليفة .



دِيْمَةُ رَوْتِ بَغْدَاد ۖ

وله أيضاً في وصف دِيْمَةِ رَوْتِ بَغْدَاد ۖ منها :
 فلما رأت حُرَّ الثرى متعقداً
 بما زلَّ منها والربا تستزيدها

وأن أقاليم العراق فقيرة
 إليها ، أقامت بالعراق نجودها !
 فما بَرَحَتْ بغداد حتى تفجَّرت
 بأوديةٍ ما تستفيقُ مُدودُها
 وحتى رأينا الطيرَ في جنباتها
 تكاد أكُفُّ الغانيات تصيدُها
 وحتى اكتست من كلِّ نورٍ كأنَّها
 عروسٌ زهاها وشيُّها وبرودُها
 ودجلةٌ كالدرع المضاعف نسجُها
 لها حلقٌ يبدو ويخفى حديدُها
 فلمّا قضت حَقَّ العراق وأهله

أتاها من الريح الشمال بريدُها



وقال أحد الشعراء في ريم ابن رامين :
 هل من شفاءٍ لقلبٍ لَجَّ محزونٍ
 صَبَّ يميل الى ريم ابن رامين ؟
 ياربَّ ! إنَّ ابنَ رامينٍ ، له بقيرٌ
 عينٌ ، وليس لنا غيرُ البراذينِ !



بغداد في عينية ابن زريق البغدادي

اشتهر ابن زريق الكاتب البغدادي بقصيدته العينية (لاتعذليه) ، وهي
 من الشهرة والتداول ما يجعلنا نكتفي بقسم منها . والقصيدة كاملة منشورة
 في مواضع عديدة ، منها الكشكول ^(١) :

(١) ١١٨/١ - ١٢٠ بتحقيق طاهر احمد الزاوي .

أستودع الله في « بغداد » لي قمراً
بالكرخ من فلك الأضرار مطلقه
ودّعته وبودّي لو يوّدعني
صَفَوُ الحياة وأنّي لا أودّعه
وكم تشفع بي خوف الفراق ضحى
وأدمعي مُستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ، ثوب الصبر مُنخرق
عني بفرقته ، لكن أرقعه
إني أوسّع عذري في جنايته
بالبين عني ، وجرمي لا يوسّعه
رزقتُ مُلكاً فلم أحسن سياسته
وكلُّ من لا يسوسُ الملك يُخلّعه
ومن غدا لا بساً ثوب النعيم بلا
شكرٍ عليه ، فإنّ الله ينزّعه
كم قائل لي : ذقت البين ، قلت له :
الذنبُ والله ذنبي لست أدفعه
الا أقمتَ فكان الرشد أجمعه
لو أنني يومَ بانَ الرشدُ أتبعه



أشهر قصور بغداد التاريخية

القصور الشهيرة التي شيدت في « بغداد » أيام عصرها الذهبي كثيرة لاحصر لها ، وقد ذهب أثرها ، وانطمس بانيانها ، ولم يبق لها ذكر إلا في أسفار التواريخ وكتب البلدان ، نذكر منها :

قصر الخُلد :

بناه المنصور في الجانب الغربي بعد فراغه من تخطيط مدينته واقامة سورها . شاده على شاطئ دجلة الأيمن ، وبُنيت حواليه المنازل للقادة والوزراء وللبيت العباسي . فصارت محلة واسعة عرفت بالخُلد ، نسبة الى القصر المسمى بالخلد - وموقعه مرتفع يشرف على نهر دجلة ، وتكتنفه بسايتن وغياض ، لذلك كان عذباً طيب الهواء ، يشرح الصدر ، ويسرّ النظر .

مرَّ بالخلد علي بن أبي هاشم الكوفي ، فنظر اليه فقال :

بَنُوا وقالوا : لا نَمُو

تُ ، وللخراب بَنَى المُبِينِي

ما عاقل فيما رأى

تُ إلى الخراب بمطمئن

وأمر المنصور المهندسين أن يمدوا الى مدينته قناتين : قناة من « نهر دجلة » الآخذ من دجلة ، وقناة من نهر الكرخ الآخذ من الفُرات ، وجرهما الى مدينته في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالآجر والصاروج من أعلاها . وكان كل من القناتين المذكورتين تدخل مدينة بغداد وتنفذ في الشوارع والأرباض ، وتجري صيفاً وشتاءً ، لا ينقطع ماؤها في وقت من الأوقات .

وذكر الحارث بن أبي أسامة : أن المنصور فرغ من بناء الرُصافة سنة أربع وخمسين ومئة .

وذكر محمد بن موسى المنجم : أن المعتصم وابن أبي دُوَاد اختلفا في

مدينة أبي جعفر المنصور والرصافة أيهما أعلى . فوزنتُهما ، فوجدت المدينة أعلى من الرصافة بذراعين ونحوٍ من ثلثي ذراع . وجعل المنصور المسجد الجامع في المدينة ملاصقاً لقصره المعروف بقصر الذهب .



قصر القوارير :

هو قصر (زبيدة بنت جعفر) ، وقد كان محاطاً بحديقة عظيمة . جمع فيه جُلّ ما في الدنيا من أنواع الطيور والوحوش والحيوانات النادرة . طول بهو الاستقبال فيه ثمانون ذراعاً مفروشة ببساط واحد رصع بالأحجار الكريمة ، ويقوم سقفها على أسطوانات من الأبنوس المزيّن بالعاج والذهب ، وقد كتبت على جدرانه آيات من التزليل الحكيم بخطوط ذهبية زاهية ، وليس فيه مسمار واحد إلا من الذهب .



قصر التاج :

قصر التاج : اسم لدار مشهورة من دور الخلافة ببغداد . كان أول من وضع أساسه وسمّاه بهذا الاسم . المعتضد بالله » ، ولم يتم في أيامه . فأتمه ابنه . المكفي بالله . بما نقضه من القصر المعروف بالكامل ومن القصر الأبيض المعروف بالكيسرّوي . وكان مبنياً على خمسة عقود ، كل عقد على عشر أساطين ، وكل أسطوانة خمس أذرع . ووقعت عليه أيام . المقتفي » سنة تسع وأربعين وخمس مئة صاعقة ، فتأججت فيه وفي الدار التي كانت القبة أحدى مرافقها . وبقيت النار تعمل فيه تسعة أيام ، وقد صيّرتُهُ كالفتحمة ، ثم أطفئت . وكانت آية عظيمة . ثم أعاد . المقتفي » بناء القبة على الصورة الأولى دون الأساطين ، وبقي كذلك الى سنة أربع وسبعين وخمس مئة ، فتقدم الخليفة « المستضيء » بنقضه وإبراز المُسنّاة . ووضع البناء على خطّ مستقيم من مُسنّاة « التاج » . ووضع موضع الصحن الذي تجلس فيه الأئمة للمبايعة^(١) ولعلّ هذا القصر هو القائم الى الآن في الجهة الشرقية بوزارة الدفاع .

(١) تلخيص من معجم البلدان ، ومن كتاب أخبار بغداد للعلامة محمود شكري الالوسي .

القصر الجعفري

قصر بناه جعفر بن يحيى البرمكي في « الشَّماسية » ، وأنفق عليه مالاَ كثيراً تجاوز العشرين مليون درهم ، جلب اليه أمهر البنائين وأبرع المهندسين ، وحمل اليه كل غريب وعجيب من أثاث وغِراس وأشجار . فلما قارب فراغه « سار اليه أصحابه ، ومنهم مؤنس عمران وكان عاقلا ، فطافوا بالقصر » وقال كل من حضر في وصفه ومدحه ما أمكنه وتعباً له ، ومؤنس ساكت ، فقال له جعفر : مالك ساكتاً لا تتكلم ؟ فقال : حسبي ما قالوا . ففهم أنه يكتنم أمراً ، فقال : أقسمت عليك لتقولنَّ . فقال : اذا أبيت إلا أن أقول فيصير على الحق ، قال : نعم . فقال : أسألك بالله إن مررت الساعة بدار بعض أصحابك ، وهي خير من دارك هذه ، ما كنت صانعاً ؟ قال : حسبك ، فهيمتُ ، فما الرأي ؟ قال : إذا صرت الى أمير المؤمنين ، وسألك عن تأخرك ، فقل : سرت الى القصر الذي بنيته لمولاي « المأمون » . فأقام جعفر في القصر بقية ذلك اليوم « ثم دخل على « الرشيد » ، فقال له : من أين أقبلت ؟ وما الذي أخرّك الى الآن ؟ قال : كنت في القصر الذي بنيته لمولاي « المأمون » في الجانب الشرقي على « دجلة » . فقال له الرشيد : وللمأمون بنيته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وقد كتبت الى النواحي باتخاذ فرش لهذا الموضع ، وقد بقي شيء لم يتهياً اتخذاه ، وقد عولنا على خزائن أمير المؤمنين إمّا عارية وإمّا هبة . قال : بل هبة ، وأسفر اليه بوجهه ، ووقع منه بموقع حسن ، وقال : أبى الله أن يقال عنك إلا ما هولاك ، أو يطعن عليك إلا برفعك . ووالله لاسكنته أحد سيواك ، ولا أَلَمَّ ما يُعْوزُهُ من الفرش إلا خزائنا . وزال من نفس « الرشيد » ما كان ضامره ، وظفر بالقصر بطمأنينة . فلم يزل جعفر يتردد اليه أيام فرحه ومُتَنَزِّهاته ، الى أن أوقع الرشيد بالبرامكة . ثم انتقل الى « المأمون » . فكان من أحب المواضع اليه « وأشهاها لديه » وأقطع جملة من البرية اتخذها ميداناً لسباق الخيل واللعب بالصَّوالجة « وحيرَ

الوحوش (حديقة للحيوانات المختلفة) ، وأجرى فيه نهراً أجراه من « نهر المعتلى » ، وابنتى قريباً منه منازل للخاصة ، وعرفت هذه المحلة بـ « المأمونية » . وعند عودته من « خراسان » بعد مقتل « الأمين » نزل في القصر المذكور ، وكان يعرف « بالقصر المأموني » . ثم بعد زواجه ببوران بنت الحسن بن سهل وهبه لبوران « ثم للحسن أبيها » وغلب عليه اسم الحسن . وكان يقال له « القصر الحسيني » ، وبقي لابنته الى أيام « المعتمد على الله » « فاستزلهما « المعتمد » عنه ، فأخذت في إصلاحه وتجديده ورميه « وفرشته بالفرش المذهبة » والنمارق المقصبة ، وزخرفت أبوابه بالستور ، وملأت خزائنه بأنواع الطرف مما يحسن موقعه عند الخلفاء . ثم استولى عليه « المعتضد بالله » « فزاد فيه ، واتخذ له سوراً ، وابنتى على نحو ميلين « قصر الثريا » ، وابنتى تحت القصر آراجاً من القصر الى « الثريا » تمشي جواريه فيها وحرمة وسراريه « وبقي عامراً الى الغرق الأول الذي صار ببغداد فعفى أثره .



قصر الثريا :-

كان هذا القصر في الجانب الشرقي من « بغداد » بالقرب من « القصر الحسيني » وكان بديع الصنعة . بناه الخليفة المعتضد بالله « قرب « الناج » على ميلين منه . وقد وصفه ابن المعتز رحمه الله فقال :

سَلِمَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الدَّهْرِ

فَلَا زِلْتُ فِينَا بَاقِيًا أَوْسَعَ الْعُمُرِ

حَلَلْتُ « الثَّرِيَا » خَيْرَ دَارٍ وَمَنْتَلٍ

فَلَا زَالَ مَعْمُورًا ، وَبُورِكَ مِنْ قَصْرِ

جَنَانٍ وَأَشْجَارٍ تَلَاقَتْ غُصُونُهَا

وَأُورِقْنَ بِالْأَثْمَارِ وَالْوَرَقِ الْخُضْرِ

ترى الطير في أغصانهم هواتفاً
 تنقل من وكثر لهن إلى وكثر
 وبنان قصر قد علّت شرفاته
 كمثل نساء قد تربعن في أزري
 وأنهار ماء كالسلاسل فجبرت
 لترضع أولاد الرياحين والزهر
 عطايا إله منعم كان عالماً
 بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر



دور بغداد التاريخية الشهيرة

دور بغداد كانت متخذة على هندسة الفرس وصناعتها ، وعلى مثال ما بنت الروم في الشام ، وهي مجاللة كلساً ، ومرفوعة على طابقين ، ومبني بالآجر ما ارتفع منها عن الأرض ، وبالحجر ما يماسها أو يقربُ منها ، رفعا للماء في أوائل السيل والفيضان . ومنهم من كان يقوى الآجر بالقصباء والحلفاء ويغمسه بالجص حتى يصير يابساً . وليس لدور العوام أسوار تحيط بها ، وإنما طاقاتها مظلة على الشوارع . وإذا ما ارتفع المار على حجر أو على دابة ، تيسر له أن ينظر الى مقاصيرها . وأما دور المتولين وأهل النعمة فإنها ثلاثة أقسام ، يجمعها سور واحد . وهي مقاصير الحرم وحجرات الخدم ومجلس السلام والضيافة ، وهي بمكان من الزينة . وفي وسط دورها جنان يزرع فيها البقل والرياحين وأشجار الزينة والفاكهة ، وعلى جدرانها وسقوفها نقوش ورسوم ملونة أو فسيفساء ذهب ، وعلى دائر الأبواب كتابة ، يتخذونها من الزجاج المقطع ، ويحيطونها بخشب أسود من الآبنوس ، ويعلقون عليها ألواحاً من النحاس المحفور أو المرسوم تمثل مناظر تسر النظر وتبهج النفوس . ومن جمال مبانيهم ما يتخذون لها من حسن خارجها فإن القباب التي يرفعونها في أعلى السطوح على عمد دقيقة يخيل للناظر إليها أنها لا تستند الى شيء ، وكأنما هي معلقة في الهواء . ولما كان الحر يشتد وهجه في أيام الصيف ، وكان افتقار أهلها الى رطوبة الماء افتقار النفس الى الهواء ، قلَّ أن يخلو سوق من أسواقهم أو بناء من مبانيهم من سقاية يساق اليها ماء دجلة ، ولذلك لايسير الرجل فيها الا محفوفاً بالشجر المزهر والرياحين التي يتناشد الشعراء أشعارهم في وصفها . وهذا دليل على أن الزوراء ماء ونماء ، ولأهلها في اقامة الأحواض عناية خاصة ، فيرفعون عليها عمداً من الرخام ، ويعقدون من فوقها قباباً مغطاة بالآيات المرسومة بماء الذهب ، فتوسعوا من اتخاذها للضرورة الى المغالاة بزيتها على سبيل الترف والترفة . وإذا اشتد

عليهم الحرّ اتخذوا أسراباً تحت الأرض (سراديب) ، وأقاموا فيها بالنهار ليكسروا فيها شدة الحر . ولقد عظمت عناية أبي جعفر المنصور ومن جاء بعده بهذه المدينة ولا سيما هارون الرشيد . وكان لها أربعة أبواب أولها باب خراسان ، والثاني باب الكوفة ، والثالث باب الشام ، والرابع باب البصرة .

دار الخلافة :

من دورها الشهيرة دار الخلافة . وكانت في الجانب الغربي من بغداد . وكان يحيط بها حدائق القصر وجنانه . قد أقيمت فيها أحواض يتصوب منها الماء ، وعليها عمد من الرخام تمتل قبابا مغطاة بالرسوم والآيات الموسومة بماء الذهب . وإلى ما وراء الجنان قصر الخلد وقصر السلام . وكان أبو جعفر المنصور يسكنه . فإذا انتهى السالك من ذلك الممر ، وصل إلى باب القصر . وهو معقود تحت القبة التي تزين في الأعياد ، وعليه مسامير كثيرة من الفضة والذهب . فإذا تجاوز هذا الباب فهو في دار مسورة بالعمدان ، وعلى دائرها مقاصر منجدة أرضها وحيطانها بالأرمني . وفي أطرافها دهليز ينبعث إليه الضوء من شمسيات منقوبة في القباب . فمن جاز الدهليز دخل في دار أفصح من الدار الأولى ، وفيها كثير من العمد المخرمة التي كان الخلفاء يوجهون عنايتهم إلى الأكثار منها في جميع بناياتهم ، حتى كان في صحن من صحن دور الخلافة سبع وأربعون سارية ، لو أن ثمانين غلاماً وقفوا وراءها ما رأهم أحد ممن في صدر الصحن . ثم ينتهي السالك المار من هذا الدهليز إلى سلم من الرخام المجزّع ، وبين كل رخامة قضيب من الذهب يشدّ بعضها إلى بعض ، وهو مفروش ببسط طيرية من الديباج ، عليها أبيات في مدح الخليفة ، وفيه كراسي مرصعة بأصداف اللؤلؤ ، وفراشها مبطن بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب .

أبواب دور الخلافة :

وكان لدور الخلافة أبواب عديدة ، منها : باب الفردوس ، وهو باب دار عظيمة من دور الخلافة . ومنها باب المراتب ، وهو أحد أبواب دار

الخلافة ببغداد ، كان من أجل أبوابها وأشرفها ۞ له حاجب عظيم القدر نافذ الأمر . داخله محملة كبيرة كما كان يسكنها الأكابر والأشراف وذوو البيوتات القديمة . ومنها باب الخاصة ۞ أحدثه الطائع لله ، وكانت عليه منظره مقابل دار الفيل .

ومنها دار الطواويس . وكانت هذه الدار من الدور الشهيرة بدار الخلافة ، من بناء المطيع . ولما أكملها استوقفت أنظار الناظرين في حسن وصفها وعجيب هندستها مع سعة ساحتها وكثرة بيوتها ، فكانت مُتَنَزَّه النفوس وجنة الدنيا ، فما تسمع فيها الا تغريد البلابل ، وتصفيق المياه في الجداول . وكان من يشاهد رصانة بنائها يظن أنها تدوم الى اليوم المعلوم .

ومنها دار القوارير بنتها زبيدة بنت جعفر ، واستعملت في بنائها القوارير . وكانت تستوقف النظر وتحير البصر ، وقدمر ذكرها . ومنها دار الشجرة ۞ وكانت داراً من أبنية الممتدور . قيل : سميت بذلك ، لأنه كان فيها شجرة عظيمة من ذهب ، صور عليها أنواع الطيور والفاكهة ، وفي وسطها بركة كبيرة مدورة وتمائيل . قال الحموي : والذي رأيناه نحن أنها كانت المحلة بها مساكن ودور ، وكان يسكنها أنسباء الخليفة وأولاد الخلفاء بأهلهم كالمحبوسين يمنعون من الخروج منها ، ولهم أرزاق دارة عليهم ، وسموا بذلك لأنهم من شجرة النسب .



الرشيد وزبيدة

لا تذكر بغداد الا ويذكر الرشيد وزبيدة مقرونين بعصرها الذهبي ، فجمال بغداد ومجدها بالرشيد هو الذي ألبسها ذلك العز التالد ، وهو الذي أضفى عليها ذلك المجد الخالد ، وهو الذي أكسبها صيتها البعيد ، وهو الذي أسبغ عليها قدرها العتيد . كان الرشيد وزبيدة القدوة للبغداديين فيما يأخذون وما يدعون . رسم لهم طريق الحضارة ، ومهد لهم طرق سبيل السعادة . نقل ترف الدنيا الى بغداد ، وجعلها تعيش في بحبوحة من الرفاهية ، وهياً لأهلها وسائل العيش . لم يسمع عن الخلفاء من كان أسمح من الرشيد ببذل المال . يقال إنه كان ينفق على طعامه في كل يوم عشر آلاف درهم ، وربما اتخذ له الطبّاخون ثلاثين لوناً من الطعام ينال منه البائس والمحروم ، ويتصدق بألف درهم كل صباح وإنه لما بنى بزبيدة بنت جعفر اتخذ وليمة لم يسبق أن رأى البغداديون مثلها ، وجعل الحبات فيها غير محصورة ، حتى كان يهب أواني الذهب مملوءة بالفضة ، وأواني الفضة مملوءة بالذهب ونوافج المسك وقطع العنبر . وباع جملة ما أنفق خمسة وخمسين مليون درهم^(١) . وظهرت زبيدة في درع من الدر لم يقدر أحد على تقويمه بثمن ، وعليها من الحلبي حتى لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من الجواهر . وان الرشيد لم ينفرد وحده بكثرة الإنفاق ، فإن « زبيدة » كانت وجهاً من وجوه بغداد المشرقة ، عملت على ازدهار العمران ، وصنعت من أعمال البر ما عجز عنه الملوك العظام . ومن أعمالها ومبراتها الخالدة أنها حين حُجّت أوعزت الى عمالها ووكلاء أموالها أن يحفروا الآبار على طول الطريق بين الكوفة والمدينة . وفي حجها هذا عازمت أن تسقي الحجاج باحتفار عين تجريها الى مكة من خالص مالها ، فجلبت الماء من مسافة اثني عشر ميلاً ،

(١) لاشك ان هذا المقدار مبالغ فيه .

لم تحل دون تنفيذ عزمها صِعب الجبال ، وفي إنفاذ إرادتها قالت لوكيلها قولتها الخالدة : « عزمت عليك أن تفعل ، ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً » . قال صاحب كتاب الفخري : « كانت دولة الرشيد من أحسن الدول ، وأكثرها قاراً وروثقاً وخيراً » وأوسعها رقعة مملكة . جبى الرشيد معظم الدنيا . ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد . وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه الى أعلى درجة . وكان فاضلاً شاعراً ، راوية للأخبار والآثار والأشعار ، صحيح الذوق والتميز ، مهيباً عند الخاصة والعامة » .

حج في عام من أعوام خلافته ، حين أراد أن يعهد الى أولاده ، ومعه ابنه الأمين والمأمون ، ويحيى بن خالد بن برمك ، والفضل بن يحيى ، وجعفر بن يحيى . فلما وصلوا الى المدينة ، جلس الرشيد ومعه يحيى « فأعطيا الناس . وجلس الأمين ومعه الفضل » فأعطيا الناس . وجلس المأمون ومعه جعفر ، فأعطيا الناس . وقد ضربت الأمثال بكثرة هذه الأعطيات الثلاث ، حتى كانوا يسمّون هذا العام « عام الأعطيات » ، وقال شاعرهم ابن منذر :

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت

بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر

فتظلم بغداد وتجلو لنا الدجى

بمكة ما تمحو ثلاثة أقمـر

فما خلقت إلا لجود أكفهم

وأقدامهم إلا لأعواد منبر

اشتهر اسم الرشيد في بلاد الغرب لصِلاته الوثيقة بـ « شارلمان » ، وللعلاقات السياسية المعقودة بينهما . ومما زاد في ذبوع شهرته بين أمم الغرب « كتاب ألف ليلة وليلة » . فلا يمكن أن يذكر بغداد الا ويذكر الرشيد وألف ليلة

وليلة . قال صاحب الفخري : « كان الرشيد من أفاضل الخلفاء ، وفصحائهم »
وعلمائهم ، وكرمائهم . كان يحج سنة ١١٠٠ ويغزو سنة ، مدة خلافته ،
الا اذا شغلته أحداث مملكته . وكان اذا حجَّ حجَّ معه مئة من الفقهاء . واذا لم
يحج ، أحجَّ ثلاث مئة رجل منهم . ولم يُرَ خليفة أسمح منه بالمال . وكان
لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخره . وكان يحب الشعر والشعراء ، ويكرمهم ،
ويغدق عليهم العطاء ١١٠٠ . قال أبو المعالي الكلابي :

فمن يطلب لقاءك أو يُسرِّدهُ

فبالحرَمَيْنِ أو أقصَى الثغورِ

ففي أرض العدو على طِميرِ

وفي أرض البنية فوق طورِ^(١)

وما جاز الثغور سواك خلق

من المستخلفين على الأمورِ

قال الخطيب البغدادي : « اجتمع للرشيد مالم يجتمع لأحد من جِددِ
وهزل . ووزراؤه البرامكة لم يرمثلهم سخاءً وسرواً . وقاضيه أبو يوسف .
وشاعره مروان بن أبي حفصة ، وكان في عصره كجريد في عصره . ونديمه عم
أبيه العباس بن محمد . وحاجبه الفضل بن الربيع أثبه الناس وأشدَّهم تعاضماً .
ومغنيه ابراهيم الموصلِي واحد عصره في صناعته . وضاربه زلزل . وزامره
برصوم . وزوجته « أم جعفر » أرغب الناس في خير ، وأسرعهم إلى كل
برٍّ . وهي أسرع الناس في معروف : أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك »
إلى أشياء من المعروف ١١٠٠ .

يقول الجاحظ : « كان الرشيد أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته »

(١) وفي رواية : « فوق كور » .

وأكثرهم بها عناية ، وأحز مههم فيها أمراً . إنه كان في أيام استقراره يقسم أعماله في ليالي أسبوعه ، ليطلع على أحداث انبراطوريته الواسعة .

يقول فيه منصور النمري :

إن أخلف الغيث لم تخلف معالـه

أو ضاق أمر ذكرناه فيه تـسعُ

ووقف في طريقه رجل من الأمويين وأنشده :

يا أمين الله ! لـمني قائلُ

قولَ ذي لبٍّ وصدقٍ وحسبُ

لكم الفضل علينا ، ولـنا

بكم الفضل على كل العربِ

عبدُ شمسٍ كانَ يـتَلُو هاشمًا

وهما بـعندُ لأمٍ ولأبِ

فـصـلِ الأرحامِ مِنـنا إنـما

عبد شمس عمّ عبد المطلبِ

فأعطاه عن كل بيت ألف دينار ، ثم قال له : « لو زدتنا لزدناك ! »

وروى الخطيب البغدادي عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، قال : « دخلت على أمير المؤمنين الرشيد ، فقال : أنشدني من شعرك ، فأنشدتهُ :

وأمره بالبُخيلِ ، قلت لها : اقصري

فذلك شيء ما اليه سبيلُ

أرى الناسَ خـيـلـانَ الجوادِ ، ولا أرى

بـخيلاً له في العالمينَ خـيـلُ

ومن خيرِ حالات الفتى لو علمته

إذا نال خيراً أن يكون يـنـيـلُ

عطائي عطاء الكثيرين تكثراً

ومالي - كما قد تعلمين - قليلٌ

ولاني رأيت البخل يزري بأهله

ويحقر يوماً أن يقال بخيلٌ

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى

ورأيُ أمير المؤمنين جميلٌ

قال : لا ! كيف ان شاء الله ! يا فضل ! أعطه مئة ألف درهم . لله در

آيات تأتينا بها ، ما أحسن فصولها ، وأثبت أصولها !

ومدحه أشجع السُّلَمي بعد قفوله من « هرقله » وانتصاره على الروم :

لازلت تنشر أعياداً وتطويها

تمضي لها بك أيام وتمضيها

أمت « هرقله » تهوي من جوانبها

وناصر الله والإسلام يرميها

ملكته وقتلت الناكثين بها

بنصر من يملك الدنيا وما فيها

ما روعي الدين والدنيا على قدم

بمثل « هارون » راعيه وراعيها

فأجزل له العطاء .

وصلاته للشعراء ليس لها عد ولا حصر ، وقد كانت من أسباب رفاهية

هذه الطبقة .

قال أبو نؤاس في رثائه وتهنئة الأمين :

جرت جَواري بالسعد والنحس

فنحن في مأتم وفي عُرْس

القلبُ يبكي والسنُّ ضاحكة

فنحن في وحشة وفي أنس

يضحكننا القائم الأمين ويكيـ

نا وفاة الإمام بالأمسـ

بدران : بدرٌ أضحى ببغداد في الـ

« خُلد » ، وبدرٌ بطُوس في رمـسـ

وله :

الناس ما بين مسرور ومحزونـ

وذي سقام بكـفـ الموتـ مرهونـ

من ذا يُسرُّ بدُئيّاهُ وبهجتهاـ

بعد الخليفة ذي التوفيق « هارون » ؟

و (زبيدة) كانت الدرة اللامعة في تاج الرشيد ، بل هي الشمس المشرقة لبلاطه . من أعمالها الخيرة إقامة المنازل والمصانع والبرك من بغداد الى مكة . نذبت نفسها وأموالها وعرفاء عمالها وبرعاء مهندسيها لإتمام مشروعها ، فتم لها ما أحببت ، وأصبح ركب الحاج يحط ركابه في هذه المنازل آمناً على نفسه ، يلقي برّاً ورفقاً ، والماء موفور له ولدوابته . أبقت مرافق ومنافع في هذا الطريق تعم وفد الله الحجيج . . وكان لها مئة جارية يحفظن القرآن الكريم ، لكل واحدة منهن وردٌ عشر من القرآن ، يسمع في قصرها صوت كدوي النحل من قراءة القرآن . وكان لها أبادٍ يرض على أهل العلم ، تبترهم ، وتديم صلاتهم . ولمفضا لها على الفقراء والمساكين مضرب الأمثال . يأكل من مطبخها المئات كل ليلة . وكانت مفزع الخائف وملاذ الملهوف ، وشفاعتها لا ترد عند الرشيد ، ونزعها العربية عنيفة : تقاوم نفوذ الفرس . وكانت من عوامل القضاء على البرامكة ، لما كانت تحسّ من نفوذهم وافتتان الناس بهم ، ولا سيما أهل فارس .

نحجت بعد العام الذي أوصلت به الماء مع أخ لها ، فكان حجها ربيعاً وغيشاً لذوي البيوتات من أهل المدينتين المقدستين . نقل المؤرخون أنها أنفقت

في حجها هذا أربعة وخمسين ألف ألف درهم . وربما كان هذا مع نفقات المنازل وكلفة (عين زبيدة) .

وشهدت أم جعفر زبيدة (واسمها سكيئة ، وقيل أمة العزيز) زفاف « بوران » زوج المأمون . فألبستها كسوة ثمينة تاريخية تعرف بـ « البسدة الأموية » ، وأهدت إليها « نهر الصلح » . وابتنت « قصر القرار » ، واتخذت لبهوه الكبير بساطاً من الديباج ، جمعت فيه صور كل الحيوانات والطيور المعروفة ، وجعلت أعينها من البواقيت . وكانت قدوة لأميرات عصرها . وابتنت جنسها من السريات البغداديات في رقي الذوق والتفنن في الملابس . وعنهما تصدر (مودة الموسم) كاتخاذها الآنية من الذهب المرصع بالجواهر ، والثياب الموشاة . والقباقب من الفضة والآبنوس . واصطناعها الكلاليب من الذهب الملبس بالوشى ، واتخاذها الديباج والسمور . واتخاذها الخف مرصعاً بالجواهر ، واتخاذها الشاكرية من الجوارى ، فجرى نساء العصر على تقليدها . وخلاصة القول هي وزوجها الرشيد من زينات بغداد ، وكل واحد منهما وجه مشرق من أوجه بغداد الطلقة ، لا يمر القارئ بتاريخ بغداد ما لم يتشوف الى خبرهما . رحمهما الله ، وأجزل ثوابهما عن الدين والعلم والعمران خير الجزاء.



مجالس الرشيد الحضارية

كان شعاره الذي يردده دائماً : « يقبح بالسلطان أن لا يكون عالماً » .
والعناية بالعلم والعلماء والأدب والأدباء والغناء والمغنين والبناء والرياسة ورفاهية الشعب ، هي جماع فنون الحضارة ، وأدام ضروب المدينة . وأيام الرشيد التي سميت « أيام العروس » أجمل أيام الخلافة العباسية . ولم يمر على بغداد منذ تأسيسها الى عصورها المتأخرة أبهى وأنصر من أيام الرشيد . تولى الخلافة وهو في سن الشباب : حيوية دافقة ، وفُتُوَّة متوثِّبة ، وتربية ناضجة على يد أساتذة متخصصين . فلما أتى اليه أمر الخلافة ، قرب اليه العلماء والأدباء والشعراء ، وقرب كل ذي موهبة وفن « واجتمع في بلاطه جهابذة كل فن . وكانت مجالسه لا تخلو من فقيه أو نحوي أو شاعر أو فنان ضليع بالموسيقى والغناء . والرشيد أديب رقيق يتذوق الشعر وينظمه . وكان الرشيد من أشد الخلفاء عناية بتنظيم مجالسه بالرغم من كثرتها . له « مجلس الأسرة » الذي ينظر في شؤون السياسة العليا المتعلقة بأمر الخلافة وبولاية العهد ، وهو مجلس لا يحضره الا مشيخة بني هاشم من بني العباس ، ويعقد بالمناسبات المهمة ، ويحضره الوزير المفوض .

و« مجالس النظر » ينظر فيها في شؤون الدولة العامة « وهي كثيرة ، » تعقد باستمرار ، تدار فيها سياسة الخلافة وإدارة الولايات وتعيين العمال وإرسال الجيوش للجهاد والفتوح ، ويحضرها وزير التفويض ، برئاسة الخلافة طبعاً .

و« مجالسه الخاصة » التي تعقد بأمره في أوقات فراغه ، منها ما يكون خاصاً بالعلماء ، ومنها ما يكون للأدباء والشعراء . وهي أشبه بمجالس ثقافية علمية لا تخلو من فوائد يفيد منها الرشيد ، وليس لها وقت معين . ولكنها تجتمع له بين الفينة والفينة بحسب رغبته ، والرشيد يدير المباحثات ويأذن بالكلام ، فلا يتحدث أحد من الحاضرين الا بإذن منه ، ولا تجرى المناظرات الا بموافقة ، هو

يسأل الجماعة ويختار المجيب والمعقبن على الجواب، ولا يسمح لأحد أن يتجاوز حدود الآداب المحددة . تكلم الأصمعي مرة في أحد هذه المجالس ، ولم يراع قواعد الآداب، وكان حديث عهد بهذه المجالس، فقال له الرشيد بعد أن خلا المجلس من الآخرين : يا عبد الملك « أنت أحفظ منا » ونحن أعقل منك ، لا تعلمنا في الملا ، ولا تسرع الى تذكيرنا في الخلا ، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال . فإذا بلغت بالجواب قدر استحقاقه « فلا تزد . وإياك والبدار الى تصديقنا وشدة التعجب مما يكون منا ، وعلمنا ما نحتاج اليه على عتبات المنابر ، وفي أعطاف الخطب ، وفواضل المخاطبات ، ودعنا من مخاطبة حوشي الكلام وغرائب الأشعار » وإياك وإطالة الحديث الا أن نستدعى ذلك منك ، ومنى رأيتنا صادفين عن الحق ، فارجعنا اليه ما استطعت من غير تغرير بالخطأ ولا إضجار بطول التردد » .

و « مجلس المصاحبة » أي المؤانسة ، وهو مجلس يعقد أحياناً في النهار في الوقت الذي يحس فيه الخليفة بتعب نفسي أو ملل فكري ، فيدعو اليه من يأنس بمجالسته وترتاح اليه نفسه من العلماء البارزين أو الأدباء الظرفاء أو الشعراء أو الرواة . وقد يتكون هذا المجلس من شخص واحد أو أكثر من اثنين ، ولا يشترط في هذا المجلس لباس خاص ، ولا تفترض فيه قيود شديدة . وهو أشبه بمجالس السمر والمنادمة ، وقد خصص لهذا اللون من المجالس بيت مال خاص ، سماه « بيت مال السرور » لتقديم المنح والأعطيات .

وهناك مجلس للغناء والموسيقى وإنشاد الشعر المغنى على الآلات ، وأكثر القول إن الفنون الجميلة كما يسمونها اليوم هي من ضروب الحضارة العليا .

وهذا مثال لمجلس السمر والمؤانسة رواه الأصمعي ، ومنه يتجلى تفضل الرشيد بفنون الشعر والآدب ، وعمق ثقافته اللغوية والأدبية : دخل الأصمعي البهو المزين بالألوان والذهب والفرش النادرة لأول مرة ، فوجد الخليفة في أبهى زينة جالساً في الصدر ، وبجانبه وزيره الفضل ، وحوطهما الشموع المضيئة على قصب المناور ، والخدم وقوف على مقربة منهما ، فأحس في نفسه شيئاً من الروعة

ولكنه تقدم الى حيث يسمعان صوته ثم سلم ، فردا عليه السلام ، وأمره الرشيد بالجلوس ريثما تسكن نفسه ويهدأ روعه ، ثم بدأ بالكلام مخاطبا الرشيد : يا أمير المؤمنين « اضءاءة كرمك ، وبهاء مجدك ، مجيران لمن نظر اليهما من غير اعتراض أذبة له . أتسألني فأجيب ، أم أبتدى فأصيب بيمن أمير المؤمنين وفضله؟ » . فتبسم الفضل « ثم قال للرشيد : ما أحسن ما استدعى الاختبار ، وقد استسهل الفاتحة وأجدر به أن يكون محسناً ! إنه والله يا أمير المؤمنين قدم مبرزاً محسناً في استشهاده على براءته من الحيرة » وأرجو أن يكون محسناً . قال الرشيد : أرجو ذلك . ثم قال للأصمعي : أدن . . . أشاعر أم راوية ؟ قال : راوية يا أمير المؤمنين . قال : لمن « قال لذي جد وهزل بعد أن يكون محسناً . قال الرشيد : ما رأيت أدعى للعلم ولا أخبر بمحاسن بيان فتقته الأذهان منك . ولئن صدرت حامداً أثرك لتعرفن الفضل موجهاً اليك سريعا .

وسأله الرشيد عن أرجوزة للشاعر « روبة بن العجاج » يمدح فيها أحد خلفاء بني أمية ، فأنشده الأصمعي أولها ، حتى اذا وصل الى مدح بنسي أميسه انتقل الى أرجوزة للشاعر نفسه في مدح جد الرشيد « أبي جعفر المنصور » ، فسُرَّ الرشيد بهذه الالتفات البارة .

ثم سأله عن قصيدة للشاعر عدي بن الرقاع في مدح الوليد بن يزيد الأموي « مطلعها : « عرف الديار توهماً فاعتادها » . فراح الأصمعي يجري في إنشادها ، فكان الرشيد يوقفه عند كل بيت منها ويقول له : ماذا قال الوليد عندما سمع هذا البيت ؟ فيجيبه الأصمعي وكأنه كان حاضراً في ذلك المجلس « فيعجب الرشيد بأجوبته وصحة روايته ، ويناقشه أحياناً في قوله ، وكان الرشيد قد درس أخبار هذه القصيدة . ثم يسأله عما قال الشعراء الحاضرون في ذلك المجلس حين انشاده ، فيجيبه الأصمعي بما كان قد جرى . ثم انتقل الخليفة الى شاعر آخر كان يحفظ أكثر شعره ، وهو « ذو الرمة » قال له : هل رويت للشاعر ذي الرمة شيئاً ؟ قال الأصمعي : الأكثر

يا أمير المؤمنين . قال الرشيد : لا أسالك سؤال امتحان ، ولا كان هذا عليك ، ولكنني أجعله سبباً للمذاكرة . فإن وقع عن عرفانك ، والا فلا ضيق عليك بذلك عندي . ثم سأله معنى بيت غريب لهذا الشاعر ، فانطلق الأصمعي في تفسيره ، وأتى بالشواهد والأدلة ، وما زال حتى قال له الرشيد : أصبت .

ثم تحول بعد ذلك الى ذكر الشاعر « الشماخ بن مزرد » وسأله عن قصيدة له ، فأثنى عليها الأصمعي له . وهكذا ظل الرشيد يسأل ، والأصمعي يجيب . ودام المجلس طويلاً حتى قال الرشيد للأصمعي : أمسك ، واستغفر الله ثلاثاً . لقد وفيت ، وأمتعت منشداً ، ووجدتك محسناً في أدبك ، معبراً عن سرائر حفظك .

وأمر له بتعجيل ثلاثين ألف درهم في ليلته ، وأمر له الفضل بتسعة وعشرين ألف درهم^(١) . وكانت هذه الجلسة قد غيرت مجرى حياة الأصمعي ، وفتحت أمامه باباً واسعاً نحو عالم الشهرة والجد والغنى .

وراح الأصمعي يحضر مجالس العلم والأدب مع غيره ، ويشترك في المناظرات في الموضوعات التي يجيدها ، وبدأ الرشيد شيئاً فشيئاً يدرك قيمة الأصمعي النابغ ، ويلتفت إليه حين يُسبدي رأيه ، ويصغي الى سحره لنشاده للشعر ، ويلتفت الى مناقشاته مع الآخرين ، حتى صار يعجب بلباقته ومنطقه وبغزارة علمه وخفة روحه وبسرعة بديهته .

وهذا مثال آخر لما كان يجري في مجالسه :

يقول الأصمعي : كنا عند الرشيد ، وبحضرته الكسائي وأبو يوسف القاضي وآخرون ، فسأل الرشيد عن كلمة « محرم » في بيت الشاعر « الراعي » :

قتلوا (ابن عفان) الخليفة محرمًا

ودعا فلم أرَ مثله مخذولا

فقال الكسائي : كان محرمًا بالحج . قال الأصمعي : هذا خطأ ، فأصرَّ الكسائي على رأيه ، فقال الأصمعي : فقولهم :

(١) العقد الفريد ٣/ ١٣٦ - ١٣٨ .

قتلوا كِسْرَى بليلاً محرماً

تركوه لم يمتنع بكفن

هل كان كسرى محرماً بالحج ، وهو غير مسلم ؟ قال الكسائي : فما معنى « محرماً » هنا إذن ؟ قال معناه : لم يحل من نفسه ما يوجب القتل . فاقنع الكسائي ، وقال الرشيد : ما تطاق في الشعر يا أصمعي ، وقال لهم : لا تعرضوا له في الشعر .

وفي مجلس آخر قال الرشيد : أنشدونا ما قيل في وصف العقاب ، فسكت القوم ، ولم يأتوا بشيء ، فقال الأصمعي : أحسن ما قيل فيها :
بانت يورقها في وكرها سغب

وناهض يخلص الأقوات من فيها

وقول امرئ القيس :

كان قلوب الطير رطباً وبابساً

لدى وكرها العناب والحشف اليابس (١)

فقال الرشيد : ما بعل القوم في شيء إلا وجدت عندك فيه شيئاً .

وأنشد الكسائي في مجلس الرشيد أبياتاً للشاعر « أفنون التغلبي » حتى وصل إلى قوله :

أم كيف ينفع ما تعطى العلوق به

رئمان أنف إذا ما ضنَّ بالبن

قرأها (رئمان) بفتح النون ، فقال الأصمعي : هي بضم النون . وتجادلا في ذلك ، فحكم من كان في المجلس بصحة قول الأصمعي .

قال الأصمعي : كنا عند الرشيد وبحضرته أبو يوسف القاضي ، وكان الحديث عن صلة اللغة بالاجتهاد الفقهي ، فسألته عن الفرق بين « عقلت القتيل » و « عقلت عنه » فلم يأت بشيء . فقلت له : « عقلت القتيل » إذا أدبت عنه « و « عقلت عنه » إذا ألزمته دية فأديتها عنه . فاستحسن ذلك .

(١) ما بعل أي ما احتار .

وسأل الرشيد من حضر مجلسه ذات يوم عن صدر البيت الذي عجزه :
 « ومن يسأل الصعلوك أين مذهبيه ؟ » فلم يُجب أحد من حاضري
 مجلسه ، فقال : أين الأصمعي ؟ قالوا : مريض في بيته . قال : احملوا له ألف
 دينار لنفقته وسد حاجته ، واكتبوا بهذا اليه . فحمل الرسول المال والسؤال
 وأتى دار الأصمعي ، فرد الجواب على الرقعة ، يقول : أنشدنا خلف
 الأحمر لأبي النشاش الأعرابي :

وداوية تيهاء يُخشى بها الردى

سرت بأبي النشاش فيها ركائبه

ليدرك ثاراً أو ليكسب مغنماً

جزيلاً ، وهذا الدهر جَمَّ عجائبه

وسائلة : أين الرحيل ؟ وسائل

ومن يسأل الصعلوك أين مذهبيه ؟

وروى القصيدة كلها .

وشبه الدكتور عبد الجبار جوهر صاحب كتابي الرشيد والأصمعي بلاط
 الرشيد هذا ببلاط « لويس الرابع عشر » ملك فرنسا أكبر عاهل في أوربة بين
 عامي ١٦٤٣ - ١٧١٥ ، وإن كان الرشيد قد سبقه بألف سنة تقريباً . فقد اجتمع
 لكل منهما في بلاطه عباقرة العصر وقادة الفكر . فوزير لويس الرابع عشر
 « مزاران » داهية أوربة السياسي والإداري أشبه بيحيى بن خالد في زمانه ،
 وشعراؤه « راسين ، ولافونتين ، وبوالو » كأبي العتاهيه « ومروان بن أبي حفصة ،
 وأبي نواس في حكمهم وغزلهم وإنتاجهم ، وأدباؤه في نقد فن الشعر » روشفوكو
 ولا بروبز وفليشي « أشبه بالكسائي ويحيى بن المبارك اليزيدي ، وعمرو
 ابن كلثوم العتابي ، وجليسه « مولير » في مسرحياته الفكرية قريب الشبه
 بالأصمعي في روايته ووادره عن الأعراب . وقد أطلق الفرنسيون على عصر
 لويس اسم « عصر الشمس والنور » كما أطلق العرب من قبل اسم « العروس »
 على أيام الرشيد .

وكان الرشيد يجعل أهل العلم والأدب، ويقربهم، ويبذل لهم العطاء بسخاء، ويوقر مجلسهم، ويوصي أولاده باحترامهم، ويحضر مجالسهم مستخفياً لئلا يحرجهم إذا أعلن حضوره حلقات دروسهم، يسمع لنصائحهم ومواعظهم. أكل أبو معاوية الضرير على مائدته يوماً، فلما قام ليغسل يديه أخذ الرشيد من يد الخادم الإبريق وصب الماء وهو لا يدري.

وعهد الرشيد بتعليم ابنه الأمين إلى الكسائي وإلى الأحمر النحوي، وعهد بتعليم ولده المأمون إلى سيبويه وإمام النحويين وإلى اليزيدي.

وحفظ لنا التاريخ وصية للرشيد أوصى بها الأحمر لما عهد إليه بتأديب الأمين جديرة أن تكون قدوة للمربين وللآباء معا، قال الرشيد: «يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه، فصبر يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعتك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذله بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهاً فعليك بالشدة والغلظة».

هذا حاله في الحاضرة. فاذا غزا مجاهداً، أو حج البيت العتيق، صحب جمعا من العلماء والأدباء والرواة والمنشدين. وإذا شغل بالجهاد أحسج تلك السنة ثلاث مئة من العلماء ومن شيوخ بني العباس بالنفقة السابعة والخدمة الراقية.

أما مجالس العلماء أيام الدولة العباسية إلى القرن الخامس، فهي إما في بيوتهم، وإما يحتل العالم زاوية من جامع المدينة أو المحلة، ويتحلق حوله طلاب العلم، والطالب ينتقل من حلقة إلى أخرى، ومن أستاذ إلى آخر. فحلقات الدرس تبدأ بعد صلاة الصبح وقد يستمر بعضها إلى صلاة الظهر، وتشمل القرآن وعلومه من تجويد وقرآيات وتفسير ولغة، إلى استنباط لأصول الفقه، والفقه وأصوله، والحديث

ورؤاته ، وتقد الحديث وعرضه على ما في كتاب الله وطرق التجريح المعروفة لدى علماء الحديث ، والعربية نحوها وصرفها وفقها ، والشعر والشعراء ، والأخبار ، والمنطق ، والفلسفة الإسلامية ، وعلم الكلام ، والجدل الخ . وكان (بيت الحكمة) الذي بدأ أيام الرشيد ، وازدهر أيام المأمون ، يشبع المعرفة لطالبيها بما ييسر من كتب مؤلفة ومترجمة .

ولا يفوتني وأنا أكتب عن مجالس الرشيد ومجالس العلماء أن ألمح ولو بصورة مقتضبة الى انتشار العمران وتغالي الأفراد بالرياش والأثاث وعروض الزينة في عهد الرشيد ، ككل ذلك كان نقلة عريضة الى الأخذ بحضارة الأمم المجاورة والوافدة الى « مدينة السلام » ، والى المدن العربية ، رسخت وشاعت الحياة الناعمة المترفة بوسائل لحوها وترفها بجانب التقدم العلمي والأدبي . وتسابق المثرون من الخاصة والعامة الى التغالي بالبناء . وكان الرشيد بفطرته ميالاً للجلود والثرف برغم ما عرف عنه من تقى وورع ، وكان ما يأتيه من مال وخير يهيئ له هذا البذخ على أهله ومن يحضر مجالسه من العلماء والشعراء والقادة وعلى أبناء الشعب . وكانت مكة المكرمة والمدينة المنورة ينال أهلها القسط الأوفر من سخائه وبره لعامة الناس ، ولا سيما بيوتات بني هاشم وطلاب العلم وشيوخهم . وتغالى ذوو اليسار في اقتناء الجوارى حتى غدت أثمان بعضهم يفوق حد المعقول ، ويشترط فيهن المهارة والتعلم والغناء . واتخذوا الفرش من الخز والديباج والسمور ، ومسامير الأبواب والأخشاب من الذهب والفضة واتخذوا الحدائق الغناء ، وجلبوا اليها الأشجار وغرائبها ، وأقاموا المُتَنَزَّهات وميادين السباق ، واتخذوا من نهر دجلة وجزره الصغيرة التي تظهر في أيام الصيف مُتَنَزَّهات ، وبنوا عليها وعلى شطآنه الخواصق والمسابع . وصنع الأمين خمس حراقات ، إحداها على صورة الأسد ، والثانية على صورة الفيل ، والثالثة على صورة العقاب ، والرابعة بصورة الحية ، والخامسة بصورة الفرس ، وقد أنفق عليها مالا عظيما . وصفها أبو نؤاس بقوله من أبيات :

سخر الله للأمين مطايا
 لم تُسَخَّرَ لصاحب المحرابِ
 فإذا ما ركابه سِرْنَ برّاً
 سارَ في الماء راكباً ليث غابِ
 عَجِبَ الناس إذ رأوك على صور
 رةٍ ليث تَمُرُّ مرّاً السَّحابِ
 سَبَّحُوا إِذْ رأوك سِرت عليه
 كيف لو أبصروك فوق العُقابِ
 تَسِيْقُ الطَّيْرُ في السماء إذا ما اس
 تعجلوها بجيئة وذهابِ



وكانت زبيدة أم جعفر درة مضيئة في تاج الرشيد ، إليها يرجع الكثير من
 تدبير ملكه وازدهار عصره . وكانت أنفذ نساء العباسيين كلمة في الدولة ، ذات
 عقل ودين ورأي سديد ، أنشأت مسجداً على دجلة ، عرف بمسجد زبيدة ، كان
 آية في الفن والزخرفة . وحفرت بالحجاز العين المعروفة باسمها ، ومهدت الطريق
 لمائها في كل خفض ورفع وسهل ووعر ، حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر
 ميلاً . وبنت بمكة دار أبي يوسف التي ولد فيها النبي صلوات الله وسلامه عليه .
 وكان لها في السياسة رأي تسمو به على رأي الرجال . كانت هاشمية عربية ، عملت
 على إسقاط نفوذ البرامكة ، وإنقاذ البلاد من كيدهم الفارسي . اشتهرت بالفصاحة
 وجمال التعبير . كتبت الى المأمون بعد مقتل ابنها :

« لخير إمام قام من خير عنصرٍ
 وأفضل راقٍ فوق أعوادٍ منبرٍ
 ووارث علم الآمنين وفخرهم
 وللملك المأمون من أم جعفرٍ

الحمد لله الذي آذخرك لي لما أثنى عليّ ولدي . ما شككت ولداً كنت لي
عوضاً عنه .

أنفقت من أموالها الخاصة أموالاً طائلة على طريق الحاج بين الكوفة ، وأمرت أن
تقام المنازل والمصانع والبرك والآبار ، وأصبح ركب الحاج يحط ركابه في
هذه المنازل آمنة على نفسه يلقي بـيراً ورِفاءً ، والماء موفور له ولدوابه ، فأبقت في
هذا الطريق طريق زبيدة مرافق ومنافع نعم وفد الله تعالى كما يقول ابن جبير .



مجالس الغناء

حكى المسعودي قال : جمع الرشيد ذات يوم المغنين ، فلم يبق أحد من الرؤساء إلا حضر ، فاقترح الرشيد صوتاً ، فأمر صاحب الستارة ، وكان الرشيد وحاشيته يجلسون خلفها احتشاماً عن الابتذال . أمر « ابن جامع » أن يغنّي صوتاً اقترحه الرشيد ، ففعل ، فلم يطرب . ثم فعل مثل ذلك بجماعة ممن حضر . فلم يحرك منه أحد ، فقال صاحب الستارة لمسكين المدني المعروف بابن صدقة : يأمرك أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت ، فغنّه . قال إبراهيم الموصلي : فاندفع فغناه ، فأمسكنا جميعاً متعجبين من جراته بحضرتنا في صوت قد قصرنا فيه عن مراد الخليفة . فلما فرغ منه ، سمعت الرشيد يقول : يامسكين ! أعيدّه . فأعاده بقوة ونشاط . فقال : أحسنت وأجملت . ورفعت الستارة بيننا وبينه . فقال مسكين : ياأمير المؤمنين إن لهذا الصوت خبراً ، قال : وما هو ؟ قال : كنت عبداً خياطاً لبعض آل الزبير ، وكان لمولاي عليّ ضريبة أدفع اليه كل يوم درهمين . فاذا دفعت ضريبتني ، تصرف في حوائجي . فخطّطت يوماً قميصاً لبعض الطالبين ، فدفع إليّ درهمين وتغديت ، وسقاني أقداحاً ، فخرجت وأنا جذلان . فلقيتني سوداء على رقبتها جرة وهي تغني هذا الصوت ، فأذهلني من كل همّ ، وأنساني كل حاجة . فقلت : بصاحب هذا القبر والمنبر الا ألقيت عليّ هذا الصوت . فقالت : وحق صاحب هذا القبر والمنبر لا ألقينه عليك الا بدرهمين . فأخرجت الدرهمين ، فدفعتهما اليها . فأزلت الحرة عن عاتقها ، ووضعتها على فخذهما ، واندفعت تغني ، فما زالت تردّده حتى كأنه مكتوب في صدري . ثم انصرفت الى مولاي ، فقال لي : هلّمّ خراجك . فقلت : كان وكان . فقال : ياابن اللخناء ! وبطحنني . وضربني ، وحق رأسني ولحيتي . فبت ، ياأمير المؤمنين ! من أسوأ خلق الله حالاً ، وأنسيت الصوت ممّا نالني . فلما أصبحت ، غدوت نحو

الموضع الذي لقيتها فيه ، وبقيت متحيراً لأعرف اسمها ولا منزلها . إذ نظرت بها مقبلةً ، فأنسيت كل ما نالني ، وملت إليها . فقالت : أنسيت الصوتَ وربَّ الكعبة . فقلت : الأمر كذلك ، وعرفتُها ما مرَّ بي من الضرب وحلَّقِ الرأسَ واللحية ! فقالت : وحقَّ القبر ومنَّ فيه ، لافعلت إلا بدرهمين . فأخرجت جِلَمِي (مِقَصِّي) ورهنته على درهمين ، فدفعتهما إليها ، فأنزلت الجرةَ عن رأسها ، واندفعت تغني ، فمرت فيه . ثم قالت : كأنني بك مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف ! ثم انصرفت الى مولاي وجيلاً ، فقال : هلُمَّ خراجك ، فلويت لساني ، فقال : يا . . . ألم يكفك ما مرَّ عليك بالأمس ؟ فقلت : أعرفك الخبر ، إني اشتريت بخراجي أمس واليوم هذا الصوت ، واندفعت أغنيهِ . فقال لي : ويحك ! معك هذا الصوت ، ولم تعلمني ؟ إمرأته طالق لو كنتَ قلتَه أمسٍ لأعتقتك !

فضحك الرشيد : وقال : ويَلِّك ! ما أدري أيّما أحسنُ أحدثك أم غناؤك ؟ وقد أمرت لك ما ذكرته السوداء . ورفع منزلته الى المرتبة الأولى .

إبن جامع عند الرشيد :

وحدث اسماعيل بن جامع السَّهْمِي المغنِّي المشهور قصة اتصاله بالرشيد ، وروى لنا مجلساً طريفاً من هذه المجالس النابضة بالحياة الزاخرة بالمتعة التي كانت تعم مجالس البغداديين أيام عصرهم الذهبي . وابن جامع هو الذي شهد بحقه اسحاق الموصلي حين سمعه يغني ، يقول : « نظرت الى أبي يَسْقِلُ في عيني ، ويعظم ابن جامع ، حتى صار أبي في عيني كلاشي ! » .

قال ابن جامع : ضامني الدهر ضيماً شديداً بمكة ، فانتقلت بعيالي الى المدينة . فأصبحت يوماً وما أملك الا ثلاثة دراهم ، فهي في كُمِّي ، اذا أنا بجارية حُمَيْراء على رقبتهَا جَرَّة ماء « تريد الرِّكِيَّة تسعى بين يدي » ، وتترنم بصوت شجي ، تقول :

شكونا الى أحبابنا طول ليلنا

فقالوا لنا : ما أقصرَ الليلَ عندنا !

وذاك لأنّ النوم يغشى عيونهم

سراعاً ، وما يغشى لنا النوم أعيننا

فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما

نُلاقِي لكانوا في المضاجع مثلنا .

فأخذ الغناء بقلبي ، ولم يدر لي منه حرف ، فقلت : يا جارية ! أعجبنِي ،
والله ، حسنُ غنائِك . فلو شئتُ أعدت . قالت : حبّاً وكرامةً . ثم أسندت
ظهرها ، ووضعت الجرة على ساقها ، ثم انبعثت تغنيهِ . فوالله ما دار لي منه
حرف . فقلت : أحسنت ! فلو شئتُ أعدته مرةً أخرى . ففطِنْتُ وكَلَّحْتُ ،
وقالت : ما أعجبَ أمرَ أحدِكُم ! لا يزال يجيئُ الى الجارية عليها الضريبة
فيشغلها . فضربت بيدي الى الثلاثة الدراهم فدفعتها اليها ، وقلت : أقمِي
بها وجهك اليوم الى أن نلتقي . فأخذتها كارهةً ، وقالت : أنت الآن تُريد أن
تأخذ مني صوتاً ، أحسبُك ستأخذ منه ألف دينار . وألف دينار ، وألف
دينار ! وانبعثت نفسي ، فأعملت فكري في غنائها حتى دار لي الصوت وفهمته ،
وانصرفت مسروراً الى منزلي أردده حتى خفَّ على لساني . ثم إني خرجت أريد
بغداد ، فدخلتها ، فنزل بي المكاربي على باب المَحَوَّل ، فبقيت لا أدري
أين أتوجّه ، ولا من أقصد ، فذهبت أمشي مع الناس ، حتى أتيت البحر ،
فعبرت معهم ، ثم انتهيت الى شارع المدينة ، فرأيت مسجداً بالقرب من دار
« الفضل بن الربيع » مرتفعاً ، فقلت : مسجد قوم سرّاة . فدخلت ، وحضرتُ
صلاة المغرب ، وأقمّت بمكاني حتى صليت العشاء الآخرة على جوع وتعَب ،
وانصرف أهل المسجد ، وبقي رجل يصلي خلفه جماعة من الخدم ينتظرون
فراغه ، فصلى مليّاً ، ثم انصرف . فرآني ، فقال : أحسبك غريباً ! قلت :
أجل . قال : فمتى كنت في هذه المدينة ؟ قلت : دخلتها آنفاً ، وليس لي بها
منزل ولا معرفة ، وليست صناعتِي من البضائع التي أمّت بها الى أهل الخير !
قال : وما صناعتك ؟ قلت : أرغني . فوثب مبادراً ، ووكلَ بي بعض من
معه . فسألت الموكل بي عنه ، فقال : هذا سَلَام الأبرش . واذا رسول قد

جاء في طلبى . فأنتهى بي الى قصر من قصور الخلافة ، وجاوزني مقصورة ،
ثم أدخلت مقصورة في آخر الدهليز ، ودعا بطعام ، فأُتيَتْ بمائدة عليها
من طعام الملوك . فأكلت ، فإني لكذلك إذ سمعت ركضاً في الدهليز ، وقائلاً
يقول : أين الرجل ؟ قيل : هو هذا . قال : أدعوا له بغسول وخلعة وطيب .
ففعل ذلك بي . فحملت على دابة الى دار الخليفة ، وعرفتها بالحرس والتكبير
والأنوار . فجاوز مقاصير عدة ، حتى صرت الى دار قوراء ، فيها أسرة
في وسطها ، قد أضيف بعضها الى بعض . فأمرني الرجل بالصعود ، فصعدت ،
واذا برجل جالس عن يمينه ثلاث جوار في حُجُورهن العيدان ، وفي حجر
الرجل عود ، فرحب بي : مجالس حياله كان فيها قوم قد قاموا عنها ، فلم
ألبث أن خرج خادماً من وراء الستار ، فقال للرجل : تَغَنِّ ، فانبعث يغني
بصوت لي ، فغنتي بغير إصابة وأوتار مختلفة ، ودساتين مختلفة ، ثم عاد
الخادم الى الجارية التي تلي الرجل ، فقال لها : تغني . فغنت أيضاً بصوت لي
كانت أحسن حالاً من الرجل . ثم عاد الى الثانية ، وتوقعت مجي الخادم الي ،
فقلت للرجل : بسأبى أنت ! خذ العود وشد وتر كذا ، وارفع الطبقة كذا .
ففعل . وخرج الخادم ، فقال لي : تَغَنِّ عافاك الله ! فتغنيت بصوت
الرجل الأول على غير ما غنَّاه ، فإذا جماعة من الخدم يحضرون حتى استندوا
الى الأسرة ، وقالوا : ويحك لمن هذا الصوت ؟ قلت : لي . فانصرفوا عني
بتلك السرعة ، وخرج الي الخادم ، وقال : كذبت ! هذا الغناء لابن جامع .
ودار الدور . فلما انتهى الغناء الي ، قلت للجارية التي تلي الرجل : خذي العود ،
فعلمت ما أريد . فسوّت العود على غنائها ، فتغنيت ، فخرجت الي الجماعة
الأولى فقالوا : ويحك ! لمن هذا ؟ قلت : لي . فرجعوا ، وخرج الخادم ،
وقال : كذبت ! هذا الصوت لابن جامع . ثم دار الدور ، فتغنيت بصوت
لي لا يُعرَفُ إلا بي ، وسقوني ، فتزيدت الصوت :

ومالي لا أبكي وأندب ناقتي

إذا صدر الرعيان ورد المناهل

وكننت اذا ما اشتدَّ شوقي رحلتها

فسارت بمحزون كثير البلابل

فتزلزلت ، والله ، الدارُ عليهم ، وخرج الخادم ، وقال : ويحك ! لمن هذا الغناء ؟ قلت : لي ، فرجع . ثم خرج ، فقال : كذبت ! هذا غناء ابن جامع . فقلت : أنا إسماعيل بن جامع . فما شعرت إلا وأمير المؤمنين الرشيد وجعفر بن يحيى قد أقبلَا من وراء الستر ، فقال لي الفضل : هذا أمير المؤمنين ! قد أقبل إليك . فلما صعد السرير وثبت قائماً ، فقال لي : ابن جامع ؟ قلت : ابن جامع ، جعلني الله فداك ! قال : ويحك ! متى كنت في هذه البلدة ؟ قلت : آنفاً في الوقت الذي علم بي أمير المؤمنين . قال : اجلس ، يا ابن جامع . ومضى هو وجعفر . فجلسا في بعض تلك المجالس ، وقال لي : إيشراً وابسط أملك . فدعوت له . ثم قال : غنِّ ، يا ابن جامع ! فحضر بقلبي صوت الجارية الحمراء ، فأمرت الرجل بإصلاح العود وزنا وتعاهده حتى استقامت الأوتار ، وأخذت اللساتين مواضعها « وانبعثت أغني بصوت الجارية :

شكونا الى أحبابنا طول ليلنا

فقالوا لنا : ما أقصر الليل عندنا !

وذاك لأن النوم يغشى عيونهم

سراعاً وما يغشى لنا النوم أعيننا

فلو أنهم كانوا يلاقون مثلَ ما

نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

فنظر الرشيد الى جعفر ، وقال : أسمعت كذا قَطُّ ! قال : لا ، والله ، ما طرق سمعي مثله . فرفع الرشيد رأسه الى الخادم قريب ، فدعا بكيس فيه ألف دينار ، فترسّى به اليّ ، فصيرته تحت فخذي ، ودعوت لأمر المؤمنين . فقال : يا ابن جامع ! رُدَّ على أمير المؤمنين هذا الصوت . فرددته ، فتزيت

فيه . فقال له جعفر : ياسيدي ! أما تراه كيف يتزايد في الغناء ؟ هذا خلاف ما سمعناه أولاً ، وإن كان الأمر في اللحن واحداً . فرفع الرشيد رأسه الى ذلك الخادم ، فدعا بكيس آخر فيه ألف دينار ، وقال : تغنّ يا إسماعيلُ ما حضرك . فجعلت أقصد الصوت بند الصوت مما كان يملغني أنه يشتري عليه الجوّاري ، فأغنيّه . فلم أزل أفعل ذلك الى أن عسعس الليل ، فقال : أتعبناك ، يا إسماعيل هذه الليلة بغنائك ! فأعده على أمير المؤمنين (يريد صوت الجارية) . فتغنيت . فدعا الخادم ، وأمره فأحضر كيساً ثالثاً فيه ألف دينار . فتذكرت ما كانت الجارية قالت لي ، فابتسمت ولحظني . فقال : ويحك ! مِمَّ تبسّمت . فقلت : يا أمير المؤمنين ! الصدقُ منجاة . فقال لي : قل . فقصصت عليه خبر الجارية . فلما استوعبه ، قال : قد يكون هذا . وقام . ونزلت من السرير ، ولا أدري أين أقصد . فابتدرني فرّاشان ، فصارا بي الى دار قد أمر بها أمير المؤمنين ، أعسدّ فيها جميع ما يكون في مثلها من آلةٍ جلساء الملوك ، وندمانهم : من خدامٍ وجوّارٍ ووُصفاء ، فدخلتها فقيراً ، وأصبحت من جيّلةٍ أهنأها ومن مياسيرهم .



كلف الخلفاء العباسيون بالغناء والسماع ، وتبعهم في ولعهم هذا الأمراء والأعيان ، وتفشت الغِناء في طبقات الشعب عامة . وكان الخلفاء والوزراء والتجار ينفقون على رفاهيتهم عن سعة ، ويحيون حياة منعمة ، فحفلت قصورهم بالمغنين والموسيقيين . وكانت تزدان بمظاهر البَدخ والفن والزينة . فازدانت بالرياش الثمينة والسرُّر المطعمة ، ونضدت في صدورهم الخرفيات والمزهريات المرصعة بالأحجار والمذهبة بالوشي ، وعلفت على منافذها الستائر المفوّقة والمكتوبة بالحروف المذهبة بالآيات المبشرة والأشعار المطربة .

وقد أخذ العباسيون نظام مجالسهم عن الفرُس ، فكانوا طبقات ثلاثاً : الخليفة في صدر المجلس ، يليه أبناء الخلفاء وسرّوات البيت العباسي ، يقابلهم

أهل الخدمة بالفن والغناء ، والطبقة الثانية هم بطانة الملك أو الخليفة وندماؤه ووزرائه ومحدثوه . يقابلهم أصحاب أهل الموسيقى من الطبقة الثانية . ثم الطبقة الثالثة وهم أهل الدُّعابة والهَزْل ، وكان يقابلهم أصحاب المعازف والطناير والزماير . وكان لايزمر الحاذق من الزماير إلا على الحدّاق من المغنين . وكان أشهر الخلفاء العباسيين ولعاً بالغناء والموسيقى هو الرشيد ، فقد فاق من سبقه . واجتمع في عهده مالم يجتمع في بلاط خليفة قبله ولا بعده . اجتمع في وقت واحد ابراهيم الموصلي ، واسماعيل أبو القاسم . وابن جامع ، وزلزّل الضارب (منصور الضارب) ، وبرصوم الزامر ، ومسكين المدني ويعرف بابن صدقة . وكان هارون يجزل لهم العطاء ، ويعلي منزلتهم ، ويكرم أهل الفن والقلم . ويقدر منازل الموهوبين من كل علم ، لذلك قال المؤرخون (واللفظ لصاحب الفخري) : « لم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد ، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه الى أعلى درجة .

وكان ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق قد نالا قصب السبق ، وحظيا برضى الخلفاء . وكان ابراهيم أول من غنى الرشيد بعد توليه الخلافة :

اِذَا ظَلَمَ الْبَلَادِ تَجَلَّتْنَا

فَهَارُونَ الْإِمَامُ لَهَا ضِيَاءُ

بِهَارُونَ اسْتَقَامَ الْعَدْلُ فِينَا

وَعَاضَ الْجُورُ وَانْفَسَحَ الرَّجَاءُ

رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ سَكَنُوا إِلَيْهِ

كَمَا سَكَنْتُ إِلَى الْحَرَمِ الطِّبَاءُ

تَبِعَتَ مِنَ الرَّسُولِ سَبِيلَ حَقٍّ

فَشَأْنُكَ فِي الْأُمُورِ بِهِ اقْتِدَاءُ

والى ابراهيم الموصلي يرجع الفضل في تعليم الجوارى الغناء في عصره . فقد روى صاحب الأغاني عن إسحاق عن ابراهيم . قال : « لم يكن الناس يعلمون

الجارية الحسنة الغناء ، وإنما كانوا يعلمونه الصفرة والسود . وأول من علم
 الجواري المثنات أبي ، فانه بلغ بالقيان كل مبلغ ، ورفع من قدرهن .
 وفيه يقول أبو عيينة محمد بن أبي عيينة المهلبى ، وقد هوى جارية يقال
 لها « أمان » فأغلى بها مولاها السوم . وجعل يردّها الى ابراهيم واسحاق ابنه
 فتأخذ عنهما . فكلما زادت في الغناء ، زاد في سومه ، فقال أبو عيينة :
 قلتُ لما رأيت مولى « أمان »

قد طغى سومه بها طغيانا :

لاجزى الله الموصلى أباً إسـ

حقاً عنّا خيراً ولا إحسانا

جاءنا مرسلًا بوحى من الشـ

طان أغلى به علينا اليقانا

من غناء كأنه سكرات الـ

حبّ يُصبى القلوب والآذانا

ومن أغاني ابراهيم الموصلى :

ولي كَبِيدٌ مقروحة « مَنْ يبيعني

بها كَبِيداً ليست بذات قروح ؟

أباها عليّ الناسُ لا يشترونها ،

ومن يشتري ذالعة بصحيح ؟

أئنّ من الشوق الذي في جِوانحي

أَنِينٌ غصيصٍ بالشراب جريحـ

ومن أغانيه :

ألا يا حمامات اللوى ، عُدْنَ عوداً

فإني الى أصواتكن حزينٌ

فَعُدْنِ . فَلَمَّا عُدْنِ « كِيدَنْ يُمْتَنِّي ،
 وَكَدَتْ بِأَسْرَارِي لَهْنِ أَبِينِ
 دَعَوْنِ بِتَرْدَادِ الْهَدِيرِ ، كَأَنَّمَا
 سَقِينِ حُمَيَّا ، أَوْ بَهْنِ جَنُونِ
 فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُنِ حَمَائِمًا
 بَكَيْنِ ، وَلَمْ تَدْمَعْ لَهْنِ عَيُونُ !

وغنى إسحاق الموصلي :
 أتبكي على بغداد وهي قريبة ؟
 فكيف إذا ما ازددت منها غداً بعداً ؟
 لَعَمْرُكَ ! ما فارقت بغداد عن قِلي
 لو أنَّا وجدنا عن فراقٍ لها بُداً
 إذا ذكرت بغداد نفسي تقطعت
 من الشوق أو كادت تموت بها وجداً
 كفى حزنًا أنْ رحت لم أستطع لها
 وداعاً ، ولم أحدث بساكنها عهداً



ولم تقتصر هذه المجالس على الخلفاء وحدهم ، بل تعدتهم الى الأمراء
 وغيرهم من كبار رجال الدولة، بل تعدتهم الى الأعيان والتجار والعامّة .
 وصف المبرد مجلس محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين، فقال : « ارتاح
 محمد بن عبد الله بن طاهر للمنادمة، وقد حضره ابن طالوت، وكان من أخصّ
 الناس به ، وقال : لا بُدَّ لنا من ثالث تطيب لنا به المعاشرة ، وتلد بمنادمته
 المؤانسة . فمن ترى أن يكون ؟ واعفنا أن يكون شرير الأخلاق » أو دنس
 الأعراق، أو ظاهر الإملاق ! فأعمل ابن طالوت الفكر، فقال : أيها الأمير !
 خطر ببالي رجل ليس علينا من مجالسته من مؤونة ، وقد برى من إبرام

المجالسين (أي خفيف الروح) ، وخلا من ثقل المؤانسين ، خفيف الوظأة
إذا أحببت ، سريع الوثبة إذا أمرت . قال : ومن ذلك ؟ قال : ماني المؤسوس :
قال : أحسنت . فلما أحضر ، غنت (مؤنسة) جارية بنت المهدي :

ولست بناسٍ اذْ غدوا فتحملوا

دموعي على الأحساب من شدة الوجد

وقولي ، وقد زالت بليلِ حمولهم

بواكر نجدٍ لا يكن آخِر العهد

فقال ماني : أحسنت ، وبحق الأمير إلا ما زدت :

وقمت أناجي الفكر والدمع حائر

بمقلة موقوف على الضر والجهد

ولم يعدني هذا الأمير بَصْرَةً

على ظالم قد لجَّ في الحجر والصدِّ

فاندفعت تغنيه . فقال محمد : أعاشق أنت ، ياماني ؟ فاستحيا . وغمزه ابن

طالوت أن لا يروح له بشي . فيسقط من عينيه . فقال : بلغ طرب وشوق

كان كامناً فظهر ، وهل بعد الشيب صَبَوَة ؟

ثم اقترح محمد على (مؤنسة) هذا الصوت :

حجبوها عن الرياح . لأنسي

قلت : ياريحُ ! بلغيها السلاما

لو روضوا بالحجاب هان ، ولكن

منعوها عن الرياح الكلاما

فغتنه . فطرب محمد ، فقال ماني : ما على قائل هذا الشعر لو زاد فيه :

فتنعت ، ثم قلت لطيفي :

آهٍ إن زرت طيفها إماما

خُصَّهُ بالسَّلامِ مِنِّي ، فأخشى

بمَنعِها لَشِقْوَتِي أن تَنَامَ—

لَكَانَ أَتَقَبُّ لَزَنَدَ الصَّبَابَةِ بَيْنَ الْأَحْشَاءِ « وَأَشَدُّ تَغْلَغَلًا إِلَى الْكَبَدِ الصَّدِيِّ مِنْ زَلَالِ الْمَاءِ ، مَعَ حَسَنِ تَأْلِيفِ نِظَامِهِ « وَالْإِنْتِهَاءِ بِالْمَعْنَى إِلَى نَهَايَةِ تَمَامِهِ . فَقَالَ مُحَمَّدٌ : أَحْسَنْتَ ، يَا مَانِي ! ثُمَّ أَمَرَ مَوْئِذَةً بِالْحَاقِقِهَا بِالْبَيْتَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ « وَالْغَنَاءَ بِهِمَا . فَفَعَلْتَ « ثُمَّ غَنَتْ :

يَا خَلِيلِي سَاعَةَ لَا تَرِي مَا

وَعَلَى ذِي صَبَابَةٍ فَأَقِيمَا

مَا مَرَرْنَا بِدَارِ زَيْنَبَ إِلَّا

هَتَكَ الدَّمْعَ سِرًّا الْمَكْتُومَا

فَقَالَ مَانِي : لَوْلَا رَهْبَةُ التَّعَدِّي ، لَأَضَفْتُ إِلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ بَيْتَيْنِ لَا يَرِدَانِ إِلَى سَمْعِ ذِي لَبٍ فَيَصْدِرَانِ إِلَّا عَنْ اسْتِحْسَانٍ لَهَا . فَقَالَ مُحَمَّدٌ : يَا مَانِي ! الرِّغْبَةُ فِي حَسَنِ مَا تَأْتِي بِهِ حَائِلَةٌ دُونَ كُلِّ رَهْبَةٍ « فَهَاتِ مَا عِنْدَكَ . فَقَالَ :

ظُبِيَّةٌ كَالْهَلَالِ لَوْ تَلَحَّظَ الصَّخْرُ

رَ بِطَرْفٍ لَغَادَرْتَهُ هَشِيمَا

وَإِذَا مَا تَبَسَّمْتَ خِلْتِ إِيَّامَا

ضَبْرُوقَ ، أَوْ لَوْلَاؤًا مَنْظُومَا

فَقَالَ : أَحْسَنْتَ ، يَا مَانِي ! فَأَجِزْ هَذَا الشَّعْرَ :

لَمْ تَطْلُبِ اللَّذَاتِ إِلَّا بِمَنْ

طَابَتْ بِهِ اللَّذَاتُ مَأْنُوسُهُ

غَنَتْ بِصَوْتٍ أَطْلَقْتَ عِبْرَةً

كَانَتْ بِسَجْنِ الصَّبْرِ مَحْبُوسُهُ

فَقَالَ مَانِي :

وكيف صبر النفس عن غادة
تظلمها إن قلت طاووسه
وجُرت إن سميتها بانه
في جنة الفردوس مغروسه
وغير عدل إن عدلنا بها
جوهرة في البحر مغموسه
ثم سكنت . فقال محمد : ما عدا في وصفه لها . فقال ماني :
جلّت عن الوصف « فما فكرة

تلحقها بالنعى محسوسه
فقال محمد : أحسنت . فقالت مؤنسة : وجب شكرك يا ماني ، فساعدك
وعطف عليك إلفك ، وقارنك سرورك ، وفارقك محذورك ، والله يديم لنا
ذلك بقاء من به اجتمع شملنا . فقال لها ماني :

ليس لي إلف فيعطفني
فأرقت نفسي الأبا طيل
أنا موصول بنعمة من
حبله بالمجد موصول
أنا مغبوط بنعمة من
طبعه بالخير محبوب .

الى آخر الحديث .

وكان انتشار الغناء وتفشي دور اللهو راجعاً الى كثرة الجوّاري وبراعتهم
بالغناء ، وتعلمهن فنّ الحديث وآداب المناذمة .

وكان للمعتمد مجالسات ومذاكرات قد دونت في أنواع الآداب منها :
مدح النديم ، وذكر فضائله ، وما قيل في ذلك من المثنو والمنظوم ، وهياة

السماع وأقسامه وأنواعه ، وأصول الغناء ، وأخبار المغنين ومراتبهم . قال
العطوي في ذلك :

حيّ التّجّة أصحاب النّحيات
القائلين اذا لم نَسْقِهِم : هات !
أما الغداة فسكّرّي في نعيمهم
وبالعشيّ فصرّعي غير أموات
وبين ذلك قصف لا يعادله
قصف الخليفة من لهو ولذات



وازدهر الغناء في بغداد ، واشتهرت قيان بالعزف والغناء ، ولاسيما في
الأعياد والمواسم . وفي حفلات التّويج . وكان للمهرجان والنّوروز مجالس
صخب ورقص وزمّر . وكان في بغداد مجالس عامة . يؤمها الناس للترفيه
والسماع . ناهيك بما كان للخلفاء والعليّة من أهل بغداد من المجالس الخاصة
والمغنين المرتبين . وهذا ابن الرومي الشاعر الوصّاف ، يصف لنا مجلساً للعازفات
والمغنيات ، في عيد من هذه الأعياد التي تفتنّ البغداديون بإحيائها وإقامة
زيناتها . قال :

مِهْرَجَان كَأَنَّمَا صَوَّرْتَهُ
كيف شاءت مُخَيَّرَاتُ الْأُمَانِي
وَأَدِيلَ السُّرُورُ وَاللَّهُو فِيهِ
من جميع الهموم والأحزان
لَبِستَ فيه حلّيَ حفلتها الدتّ
سما وزافت ^(١) في منظر فتان

(١) زافت : تبخترت واختالت .

وأذالت من وشبها كُلَّ بُردٍ
كان قدماً تصونهُ في الصَّوانِ
وقيانٍ كأنَّها أمَّهاتٌ
عاطفاتٌ على بنيتها حَوَانِ
حاملاتٌ ومما حملن جَنِيناً
مُرُضِعَاتٍ ولسن ذاتَ لُبَانِ
مُلَقَمَاتٍ أَطْفَالِهن ثُدِيّاً
ناهيات كأحسن الرُّمَّانِ
مُفْعَمَاتٍ كأنَّها حافلاتٌ
وَدُهْنِي صِفَرٌ من دَرَّةِ الألبانِ
كلَّ طفل يُدعى بأسماء شتى
بينَ عودٍ ومِزْهَرٍ وكِرَانِ
أمَّه دهرها تترجم عنه
وهو بادِي الغنى عن الترجمانِ
غيرَ أنْ ليس ينطِقَ الدهرَ إلَّا
بالتزام من أمَّه واحتضانِ
أوتِي الحكمَ والبيانَ صَبِيّاً
مثل عيسى ابنِ مريمَ ذي الخِنانِ
لو تُسَلَّى به حديثُهُ رزٍ
لشفى داءَ صدرها الحَرَّانِ
عجباً منه ! كيف يُسَلِّي ويُشفي
مَعَ تَهْنِئَتِهِ على الأشجانِ ؟
فترى في الَّذي يُصَيِّخُ إليه
أمرات المحزون والحدَّالانِ

وتغنته بالمدايع فيسه
كلُّ غيداء غادةٍ مِفْتَانِ
ذات صوت تهزّه كيف شاءت
مثلما هزّت الصِّبا غصنَ بَانِ
يشنّى فينفُضُ الطَّلَّ عنه
في تشنّيه مثل حبّ الجُمانِ
جَهَوْرِيٌّ - بلا جفاء على السم
مع - مَشُوبُ بُغْنَةِ الغِزْلَانِ
فيه بَمٌ وفيه زِيرٌ من النَّغْدِ
سم ، وفيه مَثَالِثٌ ومَثَانِي
فتراه يَجِيلُ في السمع حيناً
وتراه يَدِقُّ في الأحيَانِ
يَلِجُ السمعَ مستمراً الى القلبِ
سب بلا إذنٍ لا ولا استئذانِ
ليس تخفى أنفاسُها ، إنها أنفا
سُ مهضومة الحشا خُمُصَانِ
فهْيَ كالسابق المضمَرِ يجري
لاحقَ الأَـ يَطْلَيْنِ غوج اللبَانِ
صِيغَ من طبع صوتها كلُّ لحنٍ
معها من لحونِ تلك الأغاني
أعجميُّ أنينُهُ ، عربيّ
مجددٌ ينتمي الى عدنان



الغلاء في بغداد

كانت الأموال تتدفق على بغداد أيام الرشيد ، وتُجَبَى إليها الخيرات من أنحاء الدنيا . اتسعت رقعتها وازدحمت بسكانها ، وزحفت إليها جموع المهاجرين من مختلف أصقاع المعمورة ، وتدفقت سيول أبناء الريف وراء لقمة العيش ، فلا عجب إذا ارتفعت فيها الأسعار ، ولا عجب إذا ضجَّ فقراؤها وذوو الدخل المحدود كما هي الحال في كل بلد اليوم .

فقال أبو العتاهية يشكو الى الرشيد الضائقة ، ويُهبّ به الى أن يتدارك أبناء شعبه ، ولا سيما المحرومين والبائسين ، فقال :

من مُبْلَغٌ عني الإِما	مَ نَصائِحاً متوالِيَهْ
لِني أرى الأسعـا	رَ أَسعارَ الرعيّةِ غاليَهْ
وأرى المكاسبَ نـزرةً	وأرى الضرورةَ فـاشيهْ
وأرى غـمومَ الدهرِ را	ثحةً تَمُرُّ وغاـديَهْ
وأرى اليتامى والأرا	مِلَ في البيوت الخاليَهْ
من بين راجٍ لم يـزل	يسـمـو إليك وراجيَهْ
يشكون مجهدةً بأـصـ	واتِ ضعافَ عاليَهْ
يرجونَ رـفـدك كي يـروا	مما لـقوه العافيَهْ
من يُـرـتـجى للناس غـيـد	سركَ للعيون البـاكيَهْ ؟
من مُصـبـياتِ جـوَعٍ	تَمـسـي وتُصـبـحُ طاويَهْ
من للبطون الجائعا	تِ ، وللجـسـوم العاريَهْ
يا ابنَ الخـلائفِ ، لا فـقـد	تَ ولا عـدـمت العافيَهْ
ألقيتُ أخباراً اليـ	ك من الرعيّة شافيَهْ



نكبة بغداد بعد وفاة الرشيد

كانت ولاية العهد من أهم أسباب الفتن والفساد طوال العهدين الأموي والعباسي . فقد حمل الحب والأثرة الخلفاء منذ قيام الدولة الأموية على أخذ البيعة لأولادهم ، الواحد بعد الثاني والثالث . وعلى الرغم مما جرّت ولاية العهد على الأسرة الحاكمة وعلى الأمة العربية من فتن وانقسامات ، لم يعتبر الخلفاء العباسيون بما حصل للذين كانوا قبلهم ، فارتكبوا الأخطاء نفسها . هذا الرشيد الموصوف بالعقل وحسن التدبير والتبصر بالعواقب دفعه حب الولد وإرضائهم الى تقسيم الإمبراطورية الإسلامية الواسعة بين أولاده الثلاثة ، وجعلهم ولاية عهده ، يليها الأمين ، ثم المأمون ، وبنده المؤمن (المعتصم) ، فألقى بأسهم بينهم ، وراش سهام العداوة ووجهها الى صدورهم ، وكانت عاقبة ما صنع في ذلك محفوفة بالمصائب والمهالك . فقال أحد الشعراء البغداديين يتوقع الشرّ وحلول النكبة ، وينذر الأمة بحرب عوان لا بدّ أن تسعر نارها بين الإخوة ، يلتقى الناس من ورائها شراً مستطيراً ، ويدبّس الخلافة وأهلها بلاء غير فان ، قال :

أقول لغُمةٍ في النفس منّي ،

ودمعُ العين يطردُ اطرادا :

خذي للهول عُدَّتَه بحزمٍ

ستَلْقَي ما سمينعُكَ الرُقّادا

فإنك إن بقيت رأيت أمراً

يطيل لك الكآبة والشهادا

رأى الملك المهذب شرّ رأي

بقسمته الخِلافةَ والبلادا

رأى مآلو تعقبه بعلم
 لبَيَّض من مفارقة السوادا
 أراد به ليقطع عن بَنِيهِ
 خِلَافَهُمْ وَيَتَذَلُّوا الْوُدَادَا
 فقد غرس العداوة غيرَ آلٍ
 وأورث شمل ألفتهم بدادا
 وألقَحَ بينهم حرباً عَوَاناً
 وأسلس لاجتنابهم القيادا
 فويلٌ للرعية عن قليل
 لقد أهدى لها الكُربَ الشِّدادا
 وألبسها بلاءً غيرَ فَنَانٍ
 وألزمها التضعُّع والفسادا
 ستجري من دِمَائِهِمْ بِحُورٌ
 زواخرٌ لا يبرون لها نَفَادَا
 فوزرُ بلائهم أبداً عليه
 أَغْيَاً كان ذلك أم رشادا ؟
 فكان ما توقعه ، ووقع ما تكهنه .

فقد نقض الأمين عهد الرشيد ، ودعا الى بيعه ولده ، وكانت فرصة
 اهتبلها أعداء العرب من المتسللين الى مناصب الدولة والقيادة ، فوسعوا الخلف
 بين الأخوين ، وأشعلوا نار الفتنة بين بغداد ومرو ، وسارت جيوش المأمون
 بقيادة طاهر الأعور بن الحسين الخُزَاعِي بالولاء وزهير بن المسيب وهرثمة بن
 أعين « وتوجهوا الى بغداد ، وكانت جيوش الأمين تلقى الهزيمة تلو الهزيمة
 حتى طوقت عساكرُ خراسان بغداد. فترل زهير بن المسيب الضَّبِّي بركة كلواذى ،
 ونصب المجانيق وحفر الخنادق . ونزل هرثمة « نهر بين » ، وعمل عليه خندقا

وسوراً ، ونزل عبيد الله بن الوضحاح « الشَّمْاسِيَّة » ، ونزل طاهر البستان الذي يباب الأنبار . ودام الحصار أربعة عشر شهراً ، لقي الناس خلالها بلاءً وضيقاً وشدة ، قتلاً ونهباً وتدميراً . فكثر الخراب والهدم ببغداد ، ودرست المنازل ، ووحشت الطرقات ، وأصاب البغداديين جهد وجوع ونقص في الأموال والأتقن والثمرات . فقال الشعراء في وصف هذه النكبة شعراً كثيراً . من ذلك قول الحسين الخليع :

أَتَسْرِعُ الرَّحْلَةَ لِغَدَاذَا

عن جانبي بغداد . أم ماذا ؟

أَمَا تَرَى الْفِتْنَةَ قَدْ آَلَفَتْ

إِلَى أُولَى الْفِتْنَةِ شَدْذَاذَا

وانتقصت ببغداد عمرانها

عن رأي لا ذاك ولا هَذَا

هدماً وحرَقاً قد أباد أهلها

عقوبة لا ذت بمن لا ذا

وخرج عنها الناس بجحة الحج تخلصاً من البلاء الذي حلَّ بأهلها .

أَظْهَرُوا الْحِجَّ وَمَا يَنْتَوُونَهُ

بل من الهرش يسريدون الهرب

كم أناس أصبحوا في غبطة

وكلَّ الهرش عليهم بالغضب

★

وقال بعض فتيان بغداد ، ولم أجد في المصادر قائل هذه الأبيات :

بَكَيْتُ دُمّاً عَلَى بَغْدَادَ لَمَّا

فَقَدْتُ غُضَارَةَ الْعَيْشِ الْأَنْثِي

تَبَدَّلْنَا هُمُوماً مِنْ سُرُورٍ

وَمِنْ سَعَةٍ تَبَدَّلْنَا بَضِيقِ

أصابتنا من الحُساد عينٌ
فأفنت أهلها بالمنجنيقِ
فقومٌ أحرِقُوا بالنار قسراً
ونائحةٌ تنوحُ على غريقِ
وصائحةٌ تنادي واصباحاً !
وباكيةٌ لفقدانِ الشقيقِ
وحوراءُ المدامع ذاتُ دَلٍّ
مضمخةُ الجاسد بالخَلُوقِ
تفِرُّ من الحريقِ الى انتهاب
ووالدُها يَفِرُّ الى الحريقِ
وسالبةُ الغزاة مقلتيها
مضاحِكُها كالألاء البروقِ
حيَارَى كالأهدايا مُبكرات
عليهن القلائدُ في الخَلُوقِ
ينادين الشقيقَ ولا شقيقُ
وتسدُّ فُجِدَ الشقيقُ من الشقيقِ
وقومٌ أخرجوا من ظِلِّ دُنْيَا
مَتَاعُهُمْ يُباعُ بِكُلِّ سُوْقِ
ومغتربٌ قريبُ الدار مُلقى
بلا رأسٍ بقارعة الطريقِ
توسط من قتالِهِمْ جميعاً
فما يدرون من أيِّ الفريقِ
فلا وَلَدٌ يقيم على أبيه
وقد هَرَبَ الصديق من الصديقِ

ومهما أنسَ من شيءٍ تولى
فلم يني ذاكرٌ « دار الرفيقِ »



ووصف الحسين بن الضحاك نساء قصر الخلافة في فتنة الأمين والمأمون
ورثي الأمين « ومنه قوله :

هتكسوا ببحرمتك التي هُتِكت
حُرِّمَ الرسول ودونها السُّجُفُ
وثَبَّتْ أقدارُك التي خَسَدَتْ
وجميعُها بالذُّلِّ مُعْتَرِفُ

أبدت مُخَلِّخَها على دَهَشٍ
أبكارُهُنَّ ورَّتِ النَّصَفُ
سَلَبَتْ مَعَاجِرُهُنَّ واجْتَلِيَتْ
ذات النِّقَابِ ونوزع الشَّنَفُ

فكَأَنَّهِنَّ خِلَالَ مُنْتَهَبٍ
دُرٌّ تَكْشَفُ دُونَهُ الصَّدَفُ
مَلِكٌ تَخَوَّنَ مَالِكُهُ قَدَرٌ
فَوَهَى ، وصرف الدهرِ مختلفُ

هيهاتَ بعدك أن يدومَ لنا
عِزٌّ ، وأنَّ يبقَى لنا شَرَفُ
بِأَمْنٍ يَخَوَّنُ نَوْمَهُ أَرَقُ
هدت الشجون وقلبه لَهْفُ

قد كنتَ لي أَمَلًا غَنِيَتْ بِهِ
فمضى ، وحلَّ محلَّه الأَسَفُ



مَرَجَ النِّظَامُ ، وَعَادَ مُنْكَرُنَا
عُرْفًا ، وَأُنْكِرَ بَعْدَهُ الْعُرْفُ
وَالشَّمْلُ مَنْتَشِرٌ لِفَقْدِكَ وَالـ
—دُنْيَا سَدَى وَالْبَالُ مُنْكَسِفُ



ووصف شاعر من المحمدية (أصحاب محمد الأمين) هذه الفتنة ، فقال :
لَنَا كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَةٌ لَا نَسُدُّهَا
يَزِيدُونَ فِيمَا يُطْلُبُونَ وَنَقُصُّ
إِذَا هَدَمُوا دَارًا أَخَذْنَا سَقُوفَهَا ،
وَنَحْنُ لِأُخْرَى غَيْرَهَا نَتَرَبَّصُ
فَقَدْ ضَيَّقُوا مِنْ أَرْضِنَا كُلِّ وَاسِعٍ
وَصَارَ لَهُمْ أَهْلٌ بِهَا وَتَعَرَّضُ
يُثِيرُونَ بِالطَّبْلِ الْقَنِيصَ ۖ فَإِنْ بَدَأَ
لَهُمْ وَجْهُ صَيْدٍ مِنْ قَرِيبٍ تَقَنَّنُوا
لَقَدْ أَفْسَدُوا شَرْقَ الْبِلَادِ وَغَرْبَهَا
عَلَيْنَا ۖ فَمَا نَدْرِي إِلَى أَيْنَ نَشْخَصُ
إِذَا حَضَرُوا قَالُوا بِمَا يَعْرِفُونَهُ ،
وَلِنْ لَمْ يَرَوْا شَيْئًا فَقَبْحًا تَخَرَّصُوا
وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ مِثْلُ مُحَرَّبٍ
رَسُولِ الْمَنَآيَا لَيْلَهُ يُتَلَصَّصُ



ووصف الحسين بن الضحاك جوارى « الخلد » واستحلال محارم الخلافة
في هذه الفتنة الموحية ، والحسين بن الضحاك من أصحاب الأمين :
وَمِمَّا شَجَا قَلْبِي وَكَفَكَفَ عِبْرَتِي
مَحَارِمُ مِنْ آلِ النَّبِيِّ اسْتُحِيلَتْ

ومتهوكة بالخلد عنها سُجُوفُهَا
 كَعَاب كَقَرْنِ الشَّمْسِ حِينَ تَبَدَّتْ
 إِذَا خَفَرْتَهَا رَوْعَةً مِنْ مَنَازِعِ
 لَهَا الْمِرْطَ عَادَتْ بِالْخُشُوعِ وَرَتَّتْ
 وَسِرْبَ ظِبْيَاءٍ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ
 هَتَفْنَ بِدَعْوَى خَيْرٍ حَيٍّ وَمَيَّتِ
 أَرْدُ يُدْأَى مِنِّي إِذَا مَا ذَكَرْتَهُ
 عَلَى كِبَدٍ حَرَّى وَقَلْبٍ مُفْتَتِّ



وقال الخُرَّيْمِيُّ يَعْقُوبُ بْنُ اسْحَاقَ بْنِ حَسَّانَ بْنِ قُوْهَيٍّ الْخُرَيْمِيُّ ، وَأَصْلُهُ مِنْ خُرَاسَانَ مِنْ بِلَادِ السُّفُودِ ، وَكَانَ مُتَّصِلًا بِخُرَيْمِ بْنِ عَامِرِ الْمُزَيَّنِيِّ وَآلِهِ ، فَتَنَسَّبَ إِلَيْهِ . وَلَهُ مَدَائِحُ فِي مُحَمَّدِ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ زِيَادٍ وَيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ . وَتَعَدُّ قَصِيدَتَهُ مَلْحَمَةً تَصَوُّرِيَّةً قِصَصِيَّةً اسْتَكْمَلَتْ كُلَّ فَنِّ الْمَلْحَمَةِ ، مَشَاهِدُهَا مَجْسُودَةٌ ، وَأَحْدَاثُهَا مَصُورَةٌ . وَهُوَ شَاهِدٌ عَيَانٌ فِي هَذِهِ النُّكْبَةِ الَّتِي حَلَّتْ بِبَغْدَادَ ، وَمَا زَالَتْ بِغْدَادُ فِي عَصْرِهَا الذَّهَبِيِّ ، رَوَاهَا الطَّبْرِيُّ فِي سَنَةِ ١٩٧ هـ (١) وَنَقَلَهَا صَاحِبُ كِتَابِ عَصْرِ الْمَأْمُونِ ، وَقَالَ يَذْكُرُ بِغْدَادَ وَيَصِفُ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ أَحْدَاثٍ وَقَعَتْ بَيْنَ الْأَمِينِ وَالْمَأْمُونِ ، وَالْحِصَارِ الَّذِي ضَرَبَهُ طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَى بَغْدَادَ ، وَقَدْ دَامَ ١٤ شَهْرًا :

قَالُوا وَلَمْ يَلْعَبِ الزَّمَانُ بِبَغْدَادِ
 دَوَّ وَتَعَثَّرَتْ بِهَا عَوَائِرُهَا
 إِذْ هِيَ مِثْلُ الْعُرُوسِ بَادِيَةٍهَا
 مُهَوَّلٌ لِلْفَتَى وَحَاضِرُهَا

جنةً دنيأً ودار مَغْبَطَةً
 قَلَّ من النّائبات واترُها^(١)
 دَرَّتْ خُلُوفُ الدُّنْيَا لساكنها
 وَقَلَّ معصُورُها وعامرُها
 وانفجرت بالنعيم وانجَعَتْ
 فيها بلذاتها حَواضِرُها
 فالقوم منها في روضة أنف
 أَشْرَقَ غِيبُ القِطَارِ زاهرُها
 من غَرَّةِ العيش في بُلْهَنِيَّةِ
 لو أن دُنْيَا يدوم عامِرُها
 دارُ ملوكٍ رست قواعدها
 فيها ، وقَرَّتْ بها منابرُها
 أهلُ العلى والثرى وأنديّة الـ
 فخر اذا عُدِدَتْ مُفاخرُها
 أفراخ نُعْمَى في إرثٍ مملُكة
 شدَّ عُرَاهَا لها أكابرُها
 فلم يزل والزمان ذو غِيَرٍ
 يَتَقَدَّحُ في ملكها أصاغرُها
 حتى نساقت كاساً مُثْمَلَّةً
 من فتنة لا يُقال عائرُها
 وافترقت بعد ألفةٍ شَبَعاً
 مقطوعةً بينَها أياصِرُها
 يا هـل رأيت الأملاك ما صنعت
 إذ لم يَزَعْهَا بالنصح زاجرُها

(١) أي مفزعها وذاعرها .

أَوْرَدَ أَمْلَاكُنَا نَفُوسَهُمْ
هَوَّةَ غِيٍّ أَعْيَتْ مَصَادِرُهَا
مَا ضَرَّهَا لَوْ وَفَتْ بِمَوثِقِهَا
وَاسْتَحْكَمَتْ فِي التَّقَى بِصَائِرُهَا
وَلَمْ تَسَافِكَ دِمَاءَ شَيْعَتِهَا
وَتَبْتَغِلْ فِتْيَةً تَكَابِرُهَا
وَأَفْنَعَتْهَا الدُّنْيَا الَّتِي جَمَعَتْ
لَهَا ، وَرَغَبَ النُّفُوسُ ضَائِرُهَا
مَازَالَ حَوْضُ الْأَمْلَاكِ [...]
مَسْجُورُهَا بِالْهَوَى وَسَاجِرُهَا
تُبْقَى فَضُولَ الدُّنْيَا مَكَاثِرَةً
حَتَّى أُيِّحَتْ كَرَهَا ذَخَائِرُهَا
تَبِيعَ مَا جَمَعَ الْأَبْوَةُ لِلْ
أُبْدَاءِ لَا أَرْبَحْتَ مَتَاجِرُهَا
بِاهِلَ رَأَيْتَ الْجَنَانَ زَاهِرَةً
بِرُوقِ عَيْنِ الْبَصِيرِ زَاهِرُهَا
وَهَلْ رَأَيْتَ الْقُصُورَ شَارِعَةً
تُكْنُ مِثْلَ الدُّمَى مَقَاصِرُهَا
وَهَلْ رَأَيْتَ الْقَرْيَ الَّتِي غَرَسَ الْ
أَمْلَاكُ مَخْضَرَةً دَسَاكِرُهَا
مَخْفُوفَةً بِالْكُرُومِ وَالنَّخْلِ وَالرَّ
بَحَانَ قَدْ دَمِيتُ عَاجِرُهَا
قَفَرًا خَلَاءً ، تَعْوِي الْكِلَابُ بِهَا
بَنَكِيرُ مِنْهَا الرُّسُومَ دَائِرُهَا

وَأَصْبَحَ الْبُؤْسُ مَا يُفَارِقُهَا
 إِلْفًا لَهَا « وَالرُّورُ هَاجِرُهَا
 بِيَزْنَ دَوْرَدٍ وَبِالْبَاسِرَةِ وَالشَّطِّ
 وَبِالرَّحَى وَالْخَيْزُرَانِيَّةِ الْـ مُعْلِيَا الَّتِي أَثْرَفَتْ قَنَاظِرَهَا
 وَقَصْرَ عَبْدِوَيْتِهِ عِبْرَةً وَهَدَى
 لِكُلِّ نَفْسٍ زَكَتَ سَرَائِرُهَا
 فَأَيْنَ حُرَّاسُهَا وَحَارِسُهَا ؟
 وَأَيْنَ مَجْبُورُهَا وَجَابِرُهَا ؟
 وَأَيْنَ خِصْيَانُهَا وَحِشَوَتُهَا
 وَأَيْنَ سَكَانُهَا وَعَامِرُهَا
 أَيْنَ الْجَرَادِيَّةِ الصَّقَالِبُ وَالْـ أَحْبُشُ تُعَدُّوهُدُلًا مُشَافِرُهَا
 يَنْصَدِعُ الْجُنْدُ عَنْ مَوَاقِبِهَا
 تَعْدُو بِهَا سُرًّا بِأَضْوَامِرُهَا
 بِالسِّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصَّقَالِبِ وَالْـ نَوْبَةُ شَيْتٍ بِهَا بَرَايِرُهَا
 طَيْرًا أَبَابِيلَ أَرْسَلَتْ عِشَا
 يَقْدُمُ سُدَانُهَا أَحَامِرُهَا
 أَيْنَ الظُّبْيَاءِ الْأَبْكَارِ فِي رَوْضَةِ الْـ مُلْكِ تَهَادَى بِهَا غَرَائِرُهَا
 أَيْنَ غَضَارَاتُهَا وَلَذَتْتُهَا ؟
 وَأَيْنَ مَحْبُورُهَا وَحَابِرُهَا ؟
 بِالْمَسْكِ وَالْعَنْبَرِ الْيَمَانِيِّ وَالْـ سَيَّانَجُوجٍ مُشْبُوبَةٍ بِحَامِرُهَا
 يَرْفُلْنَ فِي الْخَزِّ وَالْمَجَاسِدِ وَالْـ مَوْشِيَّ مَخْطُومَةٍ مَزَامِرُهَا
 فَأَيْنَ رَقَاصُهَا وَزَامِرُهَا
 سَجَبِنَ حَيْثُ انْتَهَتْ حَنَاجِرُهَا

تَكَادُ أَسْمَاعُهُمْ تَسْلُ إِذَا
عَارِضَ عَيْدَانِهَا مَزَامِرُهَا
أَمْسَتْ كَجَوْفِ الْحِمَارِ خَالِيَةً
بَسَعَرُهَا بِالْجَحِيمِ سَاعِرُهَا
كَأَنَّمَا أَصْبَحَتْ بِسَاحَتِهِمْ
عَادًا ، وَمَسَتْهُمْ حَسْرُ أَصِرُهَا
لَا تَعْلَمُ النَّفْسُ مَا يُبَاغِتُهَا
مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ أَوْ يُبَاكِرُهَا
تُضْحِي وَتُمْسِي دَرِيَّةً غَرَضًا
حَيْثُ اسْتَقَرَّتْ بِهَا شَرَاشِرُهَا
لَأَسْهُمُ الدَّهْرَ وَهُوَ يَرْشِقُهَا
مُخْنِطُهَا مَرَّةً وَبَاقِرُهَا
يَابُؤُسَ « بَغْدَادَ » دَارَ مَمْلَكَةِ
دَارَتْ عَلَى أَهْلِهَا دَوَائِرُهَا
أَمْهَلَهَا اللَّهُ ، ثُمَّ عَاقَبَهَا
لَمَّا أَحَاطَتْ بِهَا كِبَائِرُهَا
بِالْخَسْفِ وَالْقَذْفِ وَالْحَرِيقِ وَبِالْخِ
سْرِبِ التِّي أَصْبَحَتْ تَسَاوِرُهَا
حَلَّتْ بِبَغْدَادَ وَهِيَ آمِنَةٌ
دَاهِيَةٌ لَمْ تَكُنْ تَحَاذِرُهَا
طَالَعَهَا السُّوءُ مِنْ مَطَالَعِهِ
وَأَدْرَكَتْ أَهْلَهَا جَرَائِرُهَا
رَقَّ بِهَا الدِّينُ وَاسْتُخِفَّ بِبَيْدِي الدِّ
فَضْلُ وَعَزَّ النَّسَاكُ فَاجِرُهَا

وخطم العبد أنف ميتة
 بالرغم ، واستعبد حرائرها
 وصار ربّ الخيران فاسقهم
 وابتنز أمر الدروب ذاعرها
 من ير بغداد ، والجنود بها
 قد ربضت حولها عساكرها
 كل طحون شهباء باسلة
 تسقط أجالها زما جرّها
 تلقى بغسي الردى أو انسها
 يرهقها للقاء طاهرها
 والشيخ يعدو حزمًا ككتابها
 يقدم أعجازها يعاورها
 ولزهير بالقول مأسدة
 مرقومة صلبة مكاسرها
 كتائب الموت تحت ألوية
 أبرح منصورها وناصرها
 يعلم أن الأقدار واقعة
 وقعا على ما أحبّ قادرها
 فتلك بغداد ما بيني من الداء
 به في دورها عصافرها (؟)
 مخوفة بالردى منطقة
 بالصغر محصورة جبابرها
 وبين شطّ الفرات منه الى
 دجلة حيث انتهت معابرها

كهادي السُفراء: نافرُهُ

تركض من حولها أشاقرها (*)

يحرقها ذا « وذاك يهدمها

ويشتفي بالنهاب شاطرُها

والكرخ أسواقها معطّلة

يَسْتَنُّ عيارُها وعائرها

أخرجت الحرب من سواقطها

آسادَ غِيلٍ غلباً تساورُها

من البواري تِراسُها ومن الـ

مُخُوصِ إذا استَلَّمتْ مغايرُها

تغدو الى الحرب في جواشنها الـ

صوف إذا ما عُدَّت أساورُها

كتائب الهرش تحت رايتها

ساعد طرارها مقامرُها

لا الرزق تبغي ولا العطاء ولا

يحشرُها للقاء حاشرُها

في كلِّ دربٍ وكلِّ ناحيةٍ

خطارة يستهلُّ خاطرُها

بمثل هام الرجال من فِلَقِ الـ

صخر يزود المقلاعَ بائرُها

كأنتا فوق هامها عدفٌ

من القطا الكُدرُ حاج نافرُها

والقوم من نحنها لهم زَجَلٌ

وهي تَرامِي بها خواطِرُها

بل هل رأيت السيوفَ مُصَلَّتَةً
 شَهَرَهَا فِي الْأَسْوَاقِ شَاهِرُهَا
 وَالْخَيْلُ تُسْتَنُّ فِي أَزْقَتِهَا
 بِالْتَرَكِ مَسْنُونَةً خَنَاجِرُهَا
 وَالنَّفْطُ وَالنَّارُ فِي طَرَائِقِهَا
 وَهَابِيسًا لِلدِّخَانِ عَامِرُهَا
 وَالنَّهْبُ تُعَدُّ بِهِ الرِّجَالُ وَقَدْ
 أَبَدَتْ خَلَائِلَهَا حَرَائِرُهَا
 مَعْصُوبَاتِ وَسْطِ الْأَزْقَةِ ، قَدْ
 أَبْرَزَهَا لِلْعَيُونِ سَاتِرُهَا
 كُلَّ رَقُودٍ الضَّحَى مُخَبَّأَةً
 لَمْ تَبْدِ فِي أَهْلِهَا مُحَاجِرُهَا
 بَيْضَةُ خَدَرٍ مَكْنُونَةٌ بَرَزَتْ
 لِلنَّاسِ مَنَشُورَةٌ غَدَائِرُهَا
 تَعَثَّرُ فِي ثَوْبِهَا ، وَتَعْجَلُهَا
 كِبَّةُ خَيْلٍ رِيْعَتْ حَوَافِرُهَا
 تَسْأَلُ أَيْنَ الطَّرِيقِ وَالْهَمَّةُ
 وَالنَّارُ مِنْ خَلْفِهَا تَبَادَرُهَا
 لَمْ تَجْتَلِ الشَّمْسُ حَسَنَ بَهْجَتِهَا
 حَتَّى اجْتَلَتْهَا حَرْبٌ تَبَاسَّرُهَا
 يَا هَلْ رَأَيْتَ الثَّكَلِيَّ مُوَلَّوِلَةً
 فِي الطَّرْقِ تَسْعَى وَالْجَهْدَ بَاهِرُهَا
 فِي إِثْرِ نَعَشٍ عَلَيْهِ وَاحِدَهَا
 فِي صَدْرِهِ طَعْنَةٌ يَسَاوِرُهَا

يحملن قُوتاً من الطحين على لاد
أكتافٍ معصوبةً معاجرها
وذات عيش ضنكٍ ومقعدة
تشدخها صخرة تعاورها
تسأل عن أهلها وقد سلبت
وابتُزَّ عن رأسها غفائرها
باليتما والدَّهرُ ذو دُولٍ
يرجى ، وأخرى تخشى بوادرها
هل ترجعن أرضنا كما غنيت
وقد تنامت بنا مصايرها



مَنْ مَبْلُغٌ ذَا الرُّبَاسَتَيْنِ رسالاً
ت تَسَاءَتَى لِلنَّصِيحِ شَاعِرُهَا ؟
بأن خير الولاة قد علم النَّا
سُ إِذَا عُدَدَتْ مَآثِرُهَا
خليفة الله من بريته « الـ
مأمون » سائسها وجابرها
سمت اليه آمال أمتته
منقادةً برُّها وفاجرُها
شاموا حيا العدل من مخايله
وأصحرت بالتقى بصائرُها
وأحمدوا منك سيرةً ، جَلَّتْ الـ
شَكَّ ، وأخرى صحت معاذرها
واستجمعت طاعة برفقك للـ
مأمون نجديُّها وغائرها

فرعاء ينقى الشنار مريدها
 يهزّها بالسنان شاجرُها
 تنظر في وجهه وتهتف بالـ
 تُكَلِّل وعِزّ الدموع خامرها
 غرّغَرَ بالنفس ثم أسلمها
 مطلولة لا يخاف ثائرُها
 وقد رأيت الفتيان في عَرَصَةِ الدُّ
 -مَعْرَك مصبورةً مناخرُها
 كلّ فتى مناع حقيقته (؟)
 تشقى به في الوغى مساعرها
 باتت عليه الكلاب تنهشه
 غضوبةً من دمٍ أظافرُها
 أما رأيت الخيول جائلة
 بالقوم منكوبة دوائرُها
 تعثرُ بالأوجه الحسان من القة
 على ، وغُلّت دماً أشاعرُها
 يطان أكباد فتية نُجُـدٍ
 يفلق هاماتِهم حوافرُها
 أما رأيت النساء تحت المجانيه
 تن تَعَادَى شُعْثاً ضفائرُها ؟
 عقائل القوم والعجائز والعُ
 نس لم تخير معا صرُها (٥)

وأنت سمعٌ في العالمين له
 ومُقتلةٌ ما يَكِيلُ ناظرُها
 فاشكر لذي العرش فضلَ نعمته
 أوجب فضلَ المزيد شاكرُها
 واحذر فداءَ لك الرعية والد
 أجنادُ مأمورُها وأمرُها
 لا تردَنَّ غَمْرَةً بنفسك لا
 يصدرُ عنها بالرأي صادرُها
 عليك ضَحَضَاحُها فلا تلجِ إل
 غمرًا ملتجئةٌ زواخيرُها
 والقصدُ ، إن الطريق ذو شُعَب
 أشأمُها وَعَثُها وجائرُها
 أصبحت في أمةٍ أوائلُها
 قد فارقت هديَّها وأواخرُها
 وأنت سُرُورُها وسائسُها ،
 فهل على الحقِّ أنت قاسرُها ؟
 أدبٌ رجالاً رأيت سيرتهم
 خالف حكمَ الكتاب سائرُها
 وامتدُّ إلى الناس كَفَّ مرحمة
 تُسَدُّ منهم بها مَفَاقيرُها
 أمكنك العدل إذ همت به
 ووافقت مَدَّةَ مقاديرُها
 وأبصر الناس قصد وجههم
 وملكك أمةً أخايرُها

تشرع أعناقها إليك إذا لا
 سادات يوماً جمّت عشائرها
 كم عندنا من نصيحة لك في الـ
 تله وقربي عزّت زوافرها
 وحرمةٍ قربت أياصيرها
 منك أخرى ، هل أنت ذاكرها؟
 معي رجال في العلم مطلبهم
 رائحها باكر وباكرها
 دونك غراء كالوذيّلة ، لا
 تفقد في بلدة سوائرها
 لا طمعاً قلتها ولا بطراً
 لكل نفسٍ نفس تؤامرها
 سيرها الله بالنصيحة والخشـ
 ية فاستدمجت مرائرها
 جاءتك تحكى لك الأمور كما
 ينشر بزّ التجار ناشرها
 حملتها صاحباً أخائقة
 يظلّ عجباً بها يحاضرها



ذاك انتقام الله :

وكان يعاصر هذه الفتنة شاعر يعرف بالأعمى ، ويسمى بعلي بن أبي
 طالب . . وقَفَ الكثير من شعره على التوجع والتفجع لما حلّ
 بالبغداديين ، ووصف الفتنة وصفاً دقيقاً . ومن أشهر قصائده قصيدته
 الرائية ، قال :

تقطعت الأرحام بين العشائر
وأسلمهم أهلُ التقى والبصائر
فذلك انتقام الله من خلقه بهم
لما اجتروا من ركوب الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنوب توبة
ولا نحن أصلحنا فساد السرائر
ولم نستمع من واعظٍ ومذكّرٍ
فبينجح فينا وعظ ناهٍ وزاجرٍ
فأصبح بعض الناس يقتلُ بعضهم
فمن بين مقهور ذليلٍ وقاهيرٍ
وصار رئيس القوم يحمل نفسه
وصار رئيساً فيهم كلُّ شاطرٍ
فلا فاجرٌ للبرِّ يحفظُ حرمةً
ولا يستطيع البرُّ دفعاً لفاجرٍ
تراهم كأمثال الذئاب ، رأّت دماً
فأمّته ، لا تلوي على زجرٍ زاجرٍ
وأصبح فسّاق القبائل بينهم
تشدُّ على أقرانها بالخناسجر
فأبك لقتلى من صديقٍ ومن أخٍ
كريمٍ ومن جارٍ شفيقٍ مجاورٍ
ووالدةٍ تبكي بحزنٍ على ابنها
فبكي لها من رحمةٍ كل ظائر
وذات حليل أصبحت وهي أيتّم
وتبكي عليه بالدموع البوادر

تقول له : قد كنت عزاً وناصرأ ،
فَغُيِّبَ عَنِّي اليومَ عزِّي وناصري
وأبكٍ لإِحراقٍ وهَمْدٍ مَنَازِلِ
وقتلٍ ولِإِنهَابِ اللّهي والذخائرِ
وإبرازِ رِبَاتِ الخُدُورِ حواسراً
خَرَجْنَ بِلا خُمُرٍ ولا بِمَآزِرٍ
تراها حيارى ليس تعرف مذهباً
نوافراً أمثالَ الطُّبَاءِ النوافرِ
كَأَنّْ لم تكن « بَغْدَادُ » أَحسنَ مَنْظَرأ
وملهى رَأته عَيْنُ لاهٍ وناظرِ
بَلَى ! هكذا كانت ، فأذهب حُسْنَهَا
وَبَدَدَ مِنْهَا الشَّمْلَ حَكَمُ المَقَادِرِ
وَحَلَّ بِهِم ما حَلَّ بالناسِ قَبْلَهُمْ
فَأَضَحُوا أَحاديثاً لَبادٍ وحاضرِ
أَبْغَدادُ ، يادار الملوك ، ومُحْتَمَى
صُرُوفِ المَنايا ، مستقرَّ المَنابِرِ
وياجَنَّةَ الدنْيا ومُطْطَلَبَ الغنى
ومستنبطِ الأموالِ عندِ المتاجرِ
أبينى لنا : أين الذين عهدتهم
يحلّون في روضٍ من العيشِ زاهرٍ ؟
وأين ملوك في مواكب تُقْتَدَى
تُشَبِّهُ حُسناً بالنجومِ الزواهرِ ؟
وأين القُضاةُ الناطقون برأيهم
لو رَدَّ أُمُورٍ مشكلاتِ الأوامرِ

أو القائلون الناطقون بحكمة
ووصف كلام من خطيب وشاعر؟
وأين صراح للملوك عهدتها
مزخرفة فيها صنوف الجواهر؟
تُرش بماء المسك والورد أرضها
يفوح بها من بعد ريح العنابر
وأين اللواتي تستجيب لنغمها
إذا هو لبّأها حين المزامر؟
وأين الملوك الغر من آل هاشم
وأشياءهم فيها اكتفوا بالمفاخر؟
يروحون في سلطانهم ، وكأنهم
يروحون في سلطان بعض العشائر
تخاذل عمّا نالهم كبراؤهم
فناثهم بالكراهة أيدي الأصاغر
فأقسم لو أن الملوك تناصروا
لدلت لها خوفاً رقاب الجبابر



من ذا أصابك يا بغداد بالعين ؟

وقال عمر بن عبد الملك الوراق يبكي « بغداد » ، ويصف نكبتها ، ويعرض
بطاهر الأعور بن الحسين وأصحابه :

من ذا أصابك ، يا بغداد ، بالعين ؟
ألم تكوني زماناً قرّة العين ؟
ألم يكن فيك أقوام لهم شرف
بالصالحات والمعروف يلقوني ؟

أَلَمْ يَكُنْ فِيكَ قَوْمٌ كَانَ مَسْكَنُهُمْ
 وَكَانَ قَرِيبُهُمْ زِينًا مِنَ الزَّيْنِ
 صَاحِ الزَّمَانِ بِهِم بِالْبَيْنِ فَانْقَرَضُوا ،
 مَاذَا الَّذِي فَجَعَتْنِي لَوْعَةِ الْبَيْنِ ؟
 أَسْتَدْعِ اللَّهَ قَوْمًا مَا ذَكَرْتُهُمْ
 إِلَّا تَحَدَّرَ مَاءُ الدَّمْعِ مِنْ عَيْنِي
 كَانُوا فَفَرَّقَهُمْ دَهْرٌ وَصَدَّ عَنْهُمْ
 وَالدَّهْرُ يَصْدَعُ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ
 كَمْ كَانَ لِي مُسْعِدٌ مِنْهُمْ عَلَى زَمَنِي !
 كَمْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الْمَعْرُوفِ مِنْ عَوْنٍ !
 اللَّهُ دُرٌّ زَمَانٍ كَانَ يَجْمَعُنَا
 أَيْنَ الزَّمَانُ الَّذِي وَلِيَ وَمَنْ أَيْنَ ؟
 يَأْمَنُ يُخَرِّبُ بَغْدَادًا لِيَعْمُرَهَا
 أَهْلَكَتْ نَفْسَكَ مَا بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ
 كَانَتْ قُلُوبُ جَمِيعِ النَّاسِ وَاحِدَةً
 عَيْنًا ، وَلَيْسَ يَكُونُ الْعَيْنُ بِالْدِينِ
 لَمَّا اسْتَبَيَّتْهُمْ مُزَقَّتُهُمْ فِرْقًا
 وَالنَّاسُ طُرًّا جَمِيعًا بَيْنَ قَلْبَيْنِ
 ★

فِي جَوَاشِ الصُّوفِ :
 وَقَالَ الْأَعْمَى أَيْضًا يَصِفُ الْعِيَّارِينَ :
 خَرَجَتْ هَذِهِ الْحُرُوبُ رَجَالًا
 لَا لِقَحْطَانٍ لَا وَلَا لِنِيزَارِ
 مَعَشَرٌ فِي جَوَاشِ الصُّوفِ يَغْدُو
 نَ إِلَى الْحَرْبِ كَالْبُيُوتِ الضَّوَارِي

نيس يدرون ما الفِرَارُ اذا ما ال
 أبطال عاذوا من القنا بالفرارِ
 واحدٌ منهمُ يشُدُّ على أَلِ
 فَيَنْ عريانَ ماله من لِزارِ
 ويقول الفنى اذا طَعَنَ الـ
 طَعْنَةً : خَذَهَا من الفنى العِيَارِ



واثارت «الصِّرَاةُ» ذات يوم في نحو مئة ألف بالرماح والقَصَب والطَرَادَاتِ ،
 ونفخوا في بُوقَات القصب وقرون البقر ، ونهضوا مع غيرهم من المحمدية
 « أصحاب محمد الأمين » ، وكثر القتل « وكان النصر حليف « الصِّرَاة » الى
 الظُّهر » ثم زَجَّ طاهر بالكثير من جنده ، وتلاحقت بقية المأمونية ، ودهموا
 « الصِّرَاة » من أصحاب محمد ، ففرق منهم في النهر خلق كثير « وقتل نحو
 من عشرة آلاف ، وفي ذلك يقول الأعمى :

بالأمير الطاهر بن الحسين
 صَبَحْنَا صَبِيحَةَ الْإِثْنَيْنِ
 جَمَعُوا جَمْعَهُمْ فَتَارَ الْبِهِمُ
 كُلُّ صُلْبِ الْقَنَاةِ وَالسَّاعِدَيْنِ
 يَأْتِنِيلَ الصِّرَاةَ مُلْقَى عَلَى الشَّطِّ
 تَطَاهُ الْخِيُولُ فِي الْجَانِبَيْنِ
 أَوْزِيرٌ ، أَمْ قَائِدٌ ؟ بَلْ بَعِيدٌ
 : أَنْتَ مِنْ ذَيْنَ مَوْضِعِ الْفَرَقْدَيْنِ
 كَمْ بَصِيرٍ غَدَا بَعِينِينَ كَي يَنْ
 ظُرَّ حَالَهُمْ ، فَرَّاحَ بَعِينِينَ !
 لَيْسَ يُخْطِطُونَ مَا يَرِيدُونَ مَا إِنْ
 يَقْصِدُوا مِنْهُمْ سِوَى النَّاطِرِينَ

وقد كان العيارون مَهْرَةً بتصويب الهدف ، وتسديد أحجارهم على عيون
 خصومهم فما يخطؤون الهدف . وكم خصم استهان بهم ، فرجع بدون
 عيين . وكانوا أهل نجدة ، دفعتهم الحماسة الى معاونة الجنود المحمدية من
 دون هدف لهم ، سوى النجدة والحفاظ على مدينتهم ، أنراسهم الحُصْرُ
 المُقَيَّرَة . وجواشهم الصوف ، ولأمتهم الخوص ، وسلاحهم المقاليع .



أم محمد الأمين تشكو من طاهر الأعور :
 وكتبت زبيدة أم الأمين زوج الرشيد الى المأمون تشكو إليه طاهر
 ابن الحسين :

كتبتُ وعيني تستهلُّ دموعُها
 اليك . ابن عمي . من جفوني ومحجري
 أصبتُ بأدنى الناس منك قرابةً
 ومن زال عن كبدي ، فقلَّ تصبُّري
 أني طاهرٌ ، لا طهر الله طاهراً .
 وما طاهرٌ في فعله بمطهرٍ
 فأبرزني مكشوفةً الوجه حاسراً
 وأنهب أموالِي . وأحرق أدؤري
 يعِزُّ عليَّ « هارون » ما قد لقيتهُ ،
 وما نالني من ناقص الخلق أعورٍ
 فإن كان ما أسدى لأمر أمرتهُ
 صبرتُ لأمرٍ من قديرٍ مُقدَّرٍ



أبو العلاء المعري في « بغداد »

أبو العلاء المعري * أحمد بن سليمان ، الشاعر الفيلسوف الأشهر ، من أسرة علم وشعر وقضاء . ولد في « مَعْرَةَ النعمان » في « الشام » سنة ٣٦٣ هـ ، ونبع في اللغة والأدب والشعر ، وتشوق إلى « بغداد » إذ كانت لعهد ماثبة لطلاب العلم والمعرفة ، يؤمها العالمون والمتعلمون ، وكانت مترلتها عند رؤاد المعرفة أشبه بمترلة لندن وباريس ونيويورك في نظر الناس اليوم . تشوق المعري إليها منذ صباه * لينهل العلم من منهل الصافي ، ويلقى الرجال الذين سار ذكرهم في الآفاق العربية والاسلامية ، ولكنه لم تتح له فرصة زيارتها الا بعد أن تجاوز عصر الشباب وأشرف على العقد الرابع . فكانت له في « بغداد » مجالس أدب وشعر ورواية . أعجب العلماء بيسعة حفظه وكثرة مروياته ، ولقي حفاوة واکراما ، وسمع من الأخبار والآراء في أصول الدين والجدل في مذاهب أهل الملل والنحل . وكانت بغداد يومَ زارها موطن المعتزلة ، ومثابة الفلسفة الهندية والمتكلمين ، وملتقى الثقافات الفارسية واليونانية واليهودية والنصرانية * فخلد ذكريات هذه الزيارة في قصائد خالدة تنضح بالشكوى من قلة ذات يده ، وما لقي من حسد الحساد * أكثرهم من متسللة الشاش وإبلاق ، وكانوا يملئون خانات بغداد * ومنها ما تنطق بالإكبار والإعجاب لبغداد وأهلها .

قال رحمه الله :

كلّفنا بالعراق ونحن شرخ
فلم نلّم به إلا كهولا
ورَدّنا ماء دجلة خير ماء
وزرّنا أشرف الشجر النخيل
وزلّنا بالغيل وما اشتفينا
وغاية كل شيء أن يزولا



وقال يصف حاله في بغداد :

أإخواننا بين « الفرات » و« جِلَقِ »

يَسَدَ الله لا أخبرتكم بمُحالٍ

أنبئتكم أني على العهد سالمٌ

ووجهي لما يُبْتَذَلُ بسؤالٍ

وأنتي تَبِمَمْتِ (العِراقَ) لغير ما

تيممه « غيلان » عند « بلال » ^(١)

فأصبحتُ محسوداً بفضلِي وحدهُ

على بُعد أنصاري وقلّة مالي



وقال في وداع بغداد :

أودّعكم ، يا أهل بغدادَ والحشا

على زَفَرَاتٍ ما يَنِينُ من اللذعِ

فبئس البديلُ الشّامُ منكم وأهلُهُ ،

على أنّهم قومي ، وبينهم رَبِّي

ألا ، زَوِدُونِي شربةً ، ولو أنني

قد رت إذن أفنيت « دجلة » بالجرعِ

وما الفصحاء الصيد والبَدْوُ دارُها ،

بأفصحَ قولاً من إمامِكُمُ الوُكعِ

أدرنم مقالاً في الجدال بالنُّسْنِ

خُلِقْنَ فجانبِنَ المَضْرّةَ للنفعِ



(١) غيلان : هو ذوالرمة ، وبلال : هو بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري .
والعنى انه لم يقصد بغداد من أجل أن ينال رفق خلفائها وأمرائها كما كان
قصد غيلان بلالاً ابتغاء عطائه .

وقال يخاطب أبا القاسم علي بن أبي الفهم التَّنُوخي ، وكان قد حمل اليه وهو ببغداد ، جزءاً من آثار تَنُوخ في الجاهلية :
هات الحديث عن «الزوراء» أو «هيتا»

وموقد النار لا تكرر بـ «تكريتا»

وفيها يقول :

لنا ببغداد من نهوى تحيته ،

فإن تحملتها عنا ، فحييتنا

أثارني عنكم أمران : والده

لم ألقيها ، وثرأء عاد مسفونا

سقىا للجلة والدنيا مفرقة

حتى يعود اجتماع النجم تشتيتا

ذمَّ «الوايد» ولم أذمم جواركم

فقال : ما أنصفت بغداد ، حوشيتنا

فإن لقيت «وليداً» والنوى قذف

يوم القيامة لم أعدمه تكييتا

وعنى أبو العلاء بالوليد البحري ، وهو الذي قال في بغداد :

ما أنصفت بغداد حين توحشت

لنزيلها وهي المحل الآيس

وقال :

واشترائي العراق خبطة غبن

بعد بيعي الشام بيعة وكس



وقال المعري يخاطب خازن دار العلم ببغداد :

خليلي لا يخفى انحساري عن الصبا

فحسباً لساري قد أضرب بي الربط

ولي حاجة عند « العراق » وأهله

فإن تقضيها فبالجزء هو الشرط

سلا علماء الجانين وفتية

أبنتوهما حتى مفارقهم شُمطُ

أي : أسألا علماء جانبي بغداد ، وأسألا فتية أقاموا بجانبها حتى

شمطت مفارقهم في التحصيل والطلب . يقال : بن بالمكان وأبن : أقام .

وقال :

أعندهم علم السُّلُوسائل

به الركب لم يعرف أماكنه قط

وما أربى إلا مُعرَّسٌ معشر

هم الناس لاسوق العروس ولا الشط

وما سار بي إلا الذي غرَّ آدم

وحواء حتى أدرك الشرف المَبْطُ^(١)

أخازن دار العلم ! كم من تنوِّفة

أنت دوننا فيها العوازف واللاَغْطُ^(٢)

إذا جمحت خيل الكلام ■ فإنما

لديك يعاني من أعنتها الضَّبْطُ

وما أذهلتني عن وِدادك روعة

وكيف وفي أمثاله يجب الضَّبْطُ ؟

(١) ما حملني على مفارقة بغداد إلا إبليس الذي استزل آدم وحواء ، وغرهما

حتى عصيا ، فأهبطا إلى الأرض . يشبه رحلته من بغداد باخراج آدم من الجنة .

(٢) التنوِّفة البرية ، والعزيف : صوت الجن ، واللفظ : صوت القطا .

وهل ينشطني من عقالي إليكم
رضى زمني « أم كل شيمته سُخْطُ ؟
★

يوم عروبة :

وقال يخاطب أحمد بن عبد السلام البصريّ صاحب الدولة ،
وكان يكثر من زيارته أيام إقامته في بغداد « وكان له مجلس حافل
يوم الجمعة يؤمه الزوار من أهل الفضل والعلم والحجا « وما زالت هذه السنة
متبعة في بغداد : يستقبل أصحاب البيوتات وأهل الفضل إخوانهم ومعارفهم
يوم الجمعة من كل أسبوع ، وفي هذه القصيدة يخص يوم عروبة (الجمعة)
بالذكر :

تهيج أشواقي عروبةً لِنَها

إليك زوتني عن حضور بمجمع

ولا تسمع التسليم حين أكرّ

وقد خاب ظني لست مني بسمع

وهل يوجس الكرخي والدارُ غربة

من الشام حسّ الراعد المترجّع

أراد : هل يسمع التسليم حين يردده ، وحكم بالنفي « إذ لا يمكن أن

يسمع الكرخي ، أي مَنْ بالكرخ « صوت الرعد إذا رعد بالشام « فكيف

يسمع تسليمي من الشام وهو في بغداد ؟

سلام هو الإسلام زار بلادكم

ففاض على السنّيّ والمشيتّع

كشمس الضحى أولاهُ في النور عندكم

وأخراهُ نارٌ في فؤادي وأضلعي

يفوح إذا ما الريحُ هبَّ نسيها

شأمية كالعنبر المتضوّع

حسابكمُ عندَ المليكِ ۖ ومالككمُ

سوى الودّ منّي في هبوطٍ ومرفعٍ

ألم يأسكم أنّي تضرّرت بعدكمُ

عن الإنسانِ مَنْ يشربُ من العِدِّ ينقَعِ

أي : هل أخبرتم أني اعتزلت الناس بعدكم ، لأنني قد استغنيت بكم عن غيركم . ثم ضرب ورد الماء مثلاً . والعِدّ : هو الشرب الدائم الذي لا ينقطع موارده ، يروي ويكتفي به ۖ كذلك من يرد مجالسكم ويأخذ العلم عنكم ، فانه يكتفي عن لقاء الآخرين .

وقال منها :

نعمُ حبّذا قِيطُ «العراق» وإن غدا

يَبُثُّ جِماراً في مَقِيلٍ ومَضْجَعِ

لكم حِلٌّ فيه أصمَعُ القلبِ آيسُ

يطول ابن أوسٍ فضله وابن أصمَعِ (١)

أخيفُ لِذِكرِهِ وأحفظُ غِيَّهِ

وأنهَضُ فعلَ النَّاسِكِ المتخَشِّعِ

لقد نصحتني في المقام بأرضكم

رجالٌ ، ولكن رُبُّ نَصَحٍ مضِيعِ

فلا كان سيرى عنكم رأيَ مُلْحِدِ

يقولُ بِيأسٍ من مَعَادٍ ومَرَجِعِ

أراد أن سيرى ليس كراي المالحِد ، لا يؤمن ببعث ولا رجعة ، وأنه

يزمع العودة ، ويتمناها ، ويشوق الى « بغداد » ومجالسها .



(١) اصمَع القلب : ذكيه . وآيس : معوّض . وابن أوس : هو أبو تمام ، وابن أصمَع : هو الأصمعي . أي : كم حل بغداد رجل ذو ذكاء وفطنة يزيد فضله على أبي تمام والأصمعي .



ولأبي صالح محمد بن المذهب « كتبها الى أبي هيثم شقيق أبي العلاء
المعري يوسطه بها أن يشفع له للدخول على أبي العلاء حين حجب نفسه عن
الناس » وقبل أن يأذن لهم ، وفيها ذكر لبغداد » ومنها :

أراها أبت الا النوى بي مغرمًا

ولو رَضِيتُ هجرانها لكفاني

تَضَيَّنَ بِإِهْدَاءِ السلامِ نجاهلاً

ولو عَلِمْتُ أَنَّ الرُّقَادَ جفاني

هبي هجعة كيما أرى الطَّيْفَ مرَّةً

بها تحت أوراق الدجى ويراني

ومنها :

أُطْلَّ عَلَى (بغدادَ) كالغيثِ جاءها

به سعدُ نجمٍ في أَجَلٍ أوانٍ

نضاها ثياب المجد وَهِيَ لِبَاسُهَا

وَبَدَّلَهَا مِنْ شِدَّةِ بِلْيَانٍ

فياطِيبَ (بغداد) وقد أَرَجَّتْ به

على بعدها الأطراف من « أرجان »

غدا بكم المجد المضي * وإنه

ليغمر من أضوائه القمرانِ

نأى ما نأى « والموت دون فراقه ،

فما غدره في النَّأْيِ ، إذْ هو دان ؟

فكن حاملاً منِّي إليه رسالة

تبين إليه في هضاب « أبنانِ »

فإن قال : أخشى من فلان تشبُّهاً ،

فقل : ما فلانٌ عندنا كفلانٍ

هو الخِلّ ما فيه اختلالُ مودّةٍ
 فلا تخش منه زلّةً بضمانٍ
 فإن خيفت عهداً أو أسأت خليفة
 ولم يككُ شأني في المودّة شاني
 فلا أحسنت في الحب إمساك مقبضي
 يميني ، ولا يُسرّاي حفظ عِناني
 لتعَلَّ حياتي أن تعودَ نضيرةً
 لديه كما كانت ، وطيب زماني^(١)



يا قاصداً بغداد :

كان الوزير شرف الدين وزير المستنجد بالله قد ثار على أداة الحكم
 ببغداد ، فعزل أرباب الديوان ، وحبسهم ، وحاسبهم ، وصادرهم ، ونكل
 بقسم كبير منهم ، فحصلت احتجاجات أعقبها إرهاب شديد ، فقال ابن
 التعاويذي المولود سنة ٤٩٦ هـ والمتوفى سنة ٥٥٣ هـ يصف هذه العاصفة ،
 ويعبر عن هذا الجور :

يا قاصداً « بغداد » حيداً عن بلدةٍ
 للجور فيها زخرةٌ وعُبابُ
 إن كنتَ طالبَ حاجةٍ فارْجِعْ ، فقد
 سُدَّتْ على الراجي بها الأبوابُ
 ليستَ وما بَعْدَ الزَّمانِ كعَهدِها
 أيامَ يَعمُرُ رَبْعَها الطُّلابُ
 وَيَحُلُّها السَّرَواتُ من ساداتِها
 والجِلَّةُ الرُّسَاءُ والكَتَّابُ

(١) كتاب « أبي العلاء المعري » من سلسلة اعلام العرب ١٤٥ - ١٤٦ .

والدهرُ في أولىِ حوادثه ، وليك
أيامٍ فيها نضرةٌ وشبابُ
والفضلُ في سوق الكرامِ يباع بالـ
غالي من الأثمان ، والآدابُ
بادت وأهلوها معاً فبيوتهم
يبقاء مولانا الوزير خرابُ
وارتتهمُ الأجداثُ أحياءً ، تُها
لُ جنادلُ من فوقهم وترابُ
فهمُ خلودُ في محاسبهم يُصـ
بُ عليهمُ بعد العذاب عذابُ
لا يرتجى منها إيابهمُ ، وهل
يُرجى لسكانِ القبور إيابُ ؟
والناسُ قد قامت قيامتهم ، فلا
أنسابَ بينهمُ ولا أسبابُ
والمرءُ يُسلمه أبوه وعيرُسهُ
ويخونهُ القرباء والأصحابُ
لا شافعُ تُغني شفاعته ، ولا
جانٍ له مما جناه متابُ
شهِدوا معادهمُ ، فعادهمُ
مَنْ كان قبلُ بِبَعْثِهِ يرتابُ
حشرٌ وميزان وعرض جرائد
وصحائف منشورة وحسابُ

وبها زبانيةٌ تُبَثُّ على الورى
وسلاسلٌ ومَقامعٌ وعذابٌ
ما فاتهم من كلِّ ما وُعدوا به
في الحشر إلا راحمٌ وهتَابٌ



المستنصرية

في جمادى الآخرة من سنة ٦٣١ هـ تكامل بناء المدرسة المستنصرية التي أمر بإنشائها الخليفة « المستنصر بالله » ، رحمه الله . وكان الشروع فيها سنة ٦٢٥ هـ . وأنفق عليها أموالاً كثيرة . وفي يوم الخميس خامس شهر رجب حضر نصير الدين نائب الوزارة وسائر الولاة والحجاب والقضاة والمدرسون والفقهاء ومشايخ الربط والوعاظ والقراء والسفراء والأعيان الى المدرسة . وتخيّر لكل مذهب من المدارس عدداً . ورتب لها المدرسين ونوابهم . ثم خلع على المدرسين والمعيدين وعلى المعنيين بخزانة الكتب . ثم مُدَّ سِمَاط في صحن المدرسة ، عليه من أنواع الأشربة والحلواء والأطعمة ما يجاوز حد الوصف لكشرتها .

وأشد الشعراء فيها وفي منشئها شعراً كثيراً ، فمن ذلك القصيدة التي أنشدها العدل أبو القاسم بن أبي الحديد الفقيه الشافعي :

ما مُثِّلَ الفلك العظيم لمبصر

في الأرض قبل إريالة « المستنصر »

هذا بناء مُعْزِبٌ عن قَدَرٍ

رُفِعَتْ قواعده بفعلٍ مُطَهَّرٍ

حسدت به الأرض السماء ولم يزل

حسد الفضائل في طباع القُصَرِ

أنظر تجد نظم الثريا في ذُرَا

شُرُفاته وضياء نور « المُستصري »

ضحك الزمانُ وذاك بعد عبوسه

ورأى الصواب وذاك بعد تحيُّرٍ

فَالْأَفَقُ بَيْنَ مُفَضَّضٍ وَمُذَهَّبٍ
 وَالْجَوْزُ بَيْنَ مُكْثُوفٍ وَمُعْتَبِرٍ
 وَالْأَرْضُ حَامِئَةُ الْقِنَاعِ كَأَنَّهَا
 خَسُودٌ تَبَرَّجُ فِي رِدَاءٍ أَخْضَرٍ
 تَزْهَوُ بِمَا عَمَرَ الْخَلِيفَةُ فَوْقَهَا
 عَلَمًا لِأَحْكَامِ الْبَشِيرِ الْمُسْنَدِ
 بِالْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ بِالشَّاطِئِ الَّذِي
 هُوَ « طُورِ سِينَا » كُتِلَ صَاحِبُ مَنِيرٍ
 وَمِنْهَا :

وَضَعُ الْإِمَامُ بِهَا أَسَاسَ بَنَائِهِ
 وَالْمَوْجُ بَيْنَ مَجْمُوعٍ وَمَزْجٍ
 قَصْرًا وَمَدْرَسَةً لِمَنْ طَلَبَ الْغِنَى
 أَوْ رَامَ شَأْوَ الْعَالَمِ الْمَتَبَحِّرِ
 هِيَ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ يَجْرِي تَحْتِهَا
 مِنْ مَاءٍ « دَجْلَةٌ » مَاءُ نَهْرِ الْكُوثَرِ
 حَصْبَاؤُهَا دُرُّ النِّظَامِ وَتُرْبُهَا
 مِسْكُ الْجَنُوبِ ، وَطِينُهَا كَالْعَبْرِ
 أَضْحَى سَلِيمَانُ الزَّمَانَ وَأَهْلُهُ
 مُسْتَعْدِمًا فِيهَا بِجِنَّةِ عَبَّاسٍ
 لَبَسَ الْغِنَى بِهَا شَهَامَةً مَاهِرٍ
 وَغَدَا الْمُقِيلُ مَزَاحِمًا لِلْمَكْثَرِ
 لَمْ تَخْلُ مِنْ حَبَرٍ وَشَيْخٍ فَاضِلٍ
 يَرُوي الْحَدِيثَ وَسَاجِدٍ وَمُعَقِّرٍ

قد كانت الفقهاء قبل بنائها
 في كل قُطرٍ واحدٍ لم يذكر
 فرقاً يشقُّ على المريد طيلابها
 في الشرع ، والمطلوب كالمُتَعَدِّرِ
 فاليوم قد جُمِعتُ أمورُ الدِّينِ في
 أرجائها ، وأزيل عذرُ المقصر^(١)



وللحسين بن مجد الدين حسن بن الحسين الطاهر الكوفي ، وقد أنشدها
 في حفل الافتتاح :

سمعاً أمير المؤمنين
 من لدحتي وثنائها
 لك مَكَّةٌ وجميع ما
 يأوي الى « بَطْحائِها »
 بسقت بفرعك « هاشم »
 وسموت في عَليائِها
 أدناك خيرُ رجالِها
 شرفاً وخيرُ نساها
 وعَمَرْتُ مدرسةً أَمير
 تَ بِسْمِكِها وبنائِها
 سُرْتُ عِيونُ الناظرِ
 من بحُسْنِها وبهائِها
 لَيْسَتْ مدارسُ من مَضَى
 في الحسنِ مِن نُظرائِها

(١) الحوادث الجامعة ، ٥٦ . وتاريخ مساجد بغداد وآثارها : تهذيب الأثري ، ص ٩١ .

ووسمت « بالمستنصري »

سنة « منتهى أسمائها

سِمةٌ مُقدَّسةٌ لِمَا

ضَمِنَتْ حُرُوفُ هجائها

فخلدَتْ مثلَ خلودها

وبَقِيَتْ مثلَ بقائها (١)



ولعبد الحميد هبة الدين ، وأنشدت في اليوم العشرين من شهر رجب سنة
٦٣٠ هـ والقصيدة تقع في ثلاثة وستين بيتاً ، أثبتها الألوسي في
تاريخ مساجد بغداد وآثارها :

أمير المؤمنين ! لك التَّهَانِسي

تجدد في رواحٍ وابتكارٍ

ولا بَرَحَ الزَّمانُ لمن يوارى

لك البغضاء مشبوب الأوارِ

فجودك أوسع الأيتام خِصباً

وكانت قبل صائمة القِطارِ

وعدلك أمَّنَ الدنيا ، وكانت

كأيتام النَّسار أو الفُجَّارِ

ومذُنْ أنشأت دار العلم ، قلنا :

عَرَيْنُ اللَّيْثِ جَلَّ عن الوِجَارِ

جرى الوادي فطمَّ على قَرِيٍّ

صغيرٍ بين أنهارٍ كِبَارِ

وأطرق باكراً إننا رأينا

نَعَامُ الدَّوَى في هذي الدِّيارِ

(١) تاريخ مساجد بغداد وآثارها ، ص ٩٠ .

تضاءلتِ المدارس إذ رأتهَا
وبانت بالمذلة والصغار
ولو كانت تُطيق لها سجوداً
لتربّت الترائب بالغبار
أقول لصاحبي ، لما رأها :
أَبِخْ بُذراً « المُشَقَّر » من « ضِمَار »
يردّ الطرف منظرها حسيّاً
كأنّ الشمس في شُرْفِ الجدار
وما كنّا نصدق أو رأينا
بأن الأرض تسكنها الدار
فكم دين قويم شدّت فيها
وكم حبْل عقدت بها مُغار
أعدت بها هلال العلم بدرّاً
وقد لقحت به ظلم السّرار
وأوضحت النار لطالبيه
وقدماً كان مجهول المنار
فدُم واعمر لها ألفي نظير
فكم بعد العشيّة من عرار
وهل هي غير عزم منك ماضٍ
تُناط الى زناد منك وار^(١)



(١) تاريخ مساجد بغداد وآثارها ، ٩١ - ٩٥ . « أنظر : المستنصرية في شعر المعاصرين لنا » في الباب الثاني « بغداد في شعر العصر العثماني » .

إيوان الطب :

وفي إيوان الطب الذي أنشئ مقابل « المستنصرية » قال أبو الفرج بن الجوزي :

يا أيها المنصور يا مالمسكاً
برأيه صعب الليالي يهسون
شيدت لله ورضوانه
أشرف بُنيان يروق السعون
إيوان حسن صنعهُ مدهش
يحار في منظره الناظرون
صُور فيه فلكٌ دائر
والشمس تجري مالها من سكون
دائرة من لازورد حوت
نقطة تَبْر فيه سير مَصُون
فلك في الشَّكل وهُدي معاً
كمثل هاء ركبت وسط نِرن ()



خزانة كتب المستعصم بالله :

أنشأ الخليفة المستعصم بالله « رحمه الله » ، خزانة للكتب ، قال فيها صفي الدين عبد الله ، رئيس شعراء الديوان :
أنشأ الخليفة للمعلوم خزانة
سارت بسيرة فضيله أخبارها
تجلو عروساً من غرائب حُسْنها
دُرُ الفضائل والعلوم نثارها
أهدى مناقبه لها « مستعصم
بالله » ، من لألائه أنوارها

نكبة بغداد وخرابها

على يد هولاءكو

لقد نزلت ببغداد نكبات كثيرة قديماً وحديثاً : نكبات غزو ، ونكبات وفتن داخلية ، ونكبات حروب بين طامعين ، ونكبات غرق . ولكن نكبتها العظمى التي دمرتها وحولتها الى ركام وخرائب ، وأجرت طرقاتها بالدماء ، وسيقت حرائرها سبايا ، هي تلك النكبة الدامية التي حلت بها من الإِعمار المغولي بقيادة خانها السفّاح « هولاءكو » . فقد كان لهذه النكبة شعور عام بالأسى والحزن العميق ، والأسف البالغ « لما حلَّ ببغداد وأهلها من التدمير والتشريد والتقتيل مما لم تشهده مدينة من المدن التي اجتاحتها ذلك الإِعمار الذي لم يبق علائم للحياة ، وما زال جرح هذه النكبة ينزف دماً في نفوسنا » وسيبقى أثره عميقاً مادامت الأرض والسموات ، نذكرها جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، ومازال شعورنا بهذه النكبة يزداد مرارة وألماً . نحس بالأسى والرتاء لأولئك الذين حلت بهم تلك الكارثة التي صيرت بغداد مدينة خربة ، عمها البؤس والظلام ، وبلغ عدد قتلاها ثمان مئة ألف في تقدير أقل الروايات (الحوادث الجامعة) . حاصرها الطاغية خمسين يوماً ، وحين استسلمت أباحها لجنده سبعة أيام : ينهبون ، ويقتلون ، ويخربون ، ويسبّون الحرائر والصبيان ، يسوقون قطيعهم لبيعهم في سوق النخاسة في طريق عودتهم : وغاض منها مَسَحِينُ المعرفة ، وأفقرت المدارس ، وانتهبت المكتبات أو أحرقت ، وألقيت الأسفار الثمينة في تَسْبِج دجلة « حتى قال المؤرخون المعاصرون لتلك النكبة إنَّ النهر قد اسود ماؤه من مِداد الكتب .

وأما الخليفة فان المغول قد أدرجوه في لبدٍ « ثم قتلوه رفساً في لبده . وأحرقت أكثر معالم المدينة : كجامع الخليفة ، ومشهد الإمام موسى الكاظم ، ومقابر الخلفاء ، والكثير من المدارس والمكتبات والدور « ودخل الجند بغداد . وابتدأ القتل والإغارة العامة ، وكانوا يحرقون الأخضر واليابس ، ولم ينج من النهب والتدمير

الابعض الدور ، وبقي النهب يعمل الى سبعة أيام ، ثم رفعوا السيف ، وأبطلوا السبي (١) .

ويقول صاحب الفخري : « وأحاط الجيش ببغداد من جميع جهاتها ، ثم شرعوا في استعمال أسباب الحصار ، وشرع العسكر الخليفة في المدافعة والمقاومة الى التاسع عشر من المحرم ، فلم يشعر الناس الا ورايات « المغول » ظاهرة على سور « بغداد » من برج يسمى « برج العجمي » . ويقول : « ونقمح العسكر السلطاني هجوماً ودخولاً ، فجرى من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة ، فما الظن بتفاصيله ؟ » (٢) .

ويقول صاحب « الحوادث الجامعة » عن دخول جند هولاكو :

« ووضع السيف في أهل بغداد يوم الاثنين خامس صفر ، وما زالوا في قتل ونهب وتعذيب للناس بأنواع العذاب ، فلم يبق بين أهل بغداد ومن التجأ اليهم من أهل السواد الا القليل . كذلك نجت بعض بيوت ، منها بيوت النصارى . وبيوت بعض التجار الذين تعرفوا على أمراء المغول في أثناء غزوهم ، ودار ابن العلقمي ، ودار صاحب الديوان ابن الدامغاني . وما عدا هذا فإنه لم يسلم فيها أحد الا من كان في الآبار والقنوات ، وأحرق معظم البلد . وجامع الخليفة « وما يجاورها ، واستولى الخراب على البلد » (٣) .

ويقول ابن خلدون : « وقبض على « المستعصم » ، فشدّ بالخيل في عدل تجافياً من سفك دمه بزعمهم ، ويقال : ان الذي أحصي فيها من القتلى ألف ألف وثلاث مئة ألف ، واستولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يحصره العدد والضبط . وألقيت كتب العلم التي كانت في خزائنها في « دجلة » . ولا أشك أن عدد القتلى مبالغ به كثيراً عند الكثيرين من المؤرخين . ولم يسلم الا من اختفى في بئر أو قناة ، أو التجأ الى بيت نصراني « ولم يعلم بأمره .



(٢) الفخري ٢٤٧ .

(١) تاريخ ابن العبري ٤٧٥ .

(٣) الحوادث الجامعة ٣٢٩ .

. وكانت نكبة لم يصب الإسلام بمثلها . ألهمت الكثيرين من الشعراء ،
توجعوا في قصائدهم على ما أصاب بغداد ، وواسوا أهلها ، ووصفوا
خربائها ، ونالوا لصرعاها . وندبوا معالمها ومشاهدها . وكان
ممن أثارت النكبة شجوه ، وأسالت أجفانه بالدمع . وهاجت أحزانه شاعر
فارس الأكبر الشيخ سعدى الشيرزاي صاحب « كلستان » و « البستان » ومجموعة
اللطائف . كان من المعمرين ، ولد سنة ٥٨٠ هـ ، وتوفي سنة ٧٠٠ هـ
في أشهر الأقاليم . وشعره أكثره بالفارسية . كما له شعر في العربية . قال
يصف النكبة :

نسيم صبا بغداد بعد خرابها
تمنيت لو كانت تمر على قبرى
لأن هلاك النفس عند أولي النهى
أحب لهم من عيش منقبض الصدر
زجرت طبيباً جساً نَبْضِي مداوياً
إليك ، فما شكواي من مرض يسري ؟
لزمت اصطباراً حيث كنت مفارقاً
وداء فراقى لا يعالج بالصبر
تسائلني عما جرى يوم حصرهم
وذلك مما ليس يدخل في الحصر
أديرت كؤوس الموت ، حتى كأنها
رؤوس الأسارى ترجحين من الأسر
فقد نكبت أم القرى « ولكعبة
مدامع في الميزاب تسكب في الحِجر
على جُدُر « المستنصرية » ندبة
على العلماء الراسخين ذوي الحِجر

نوائب دهرٍ لِيَتَنِي مِتُّ قَبْلَهَا
ولم أَرَّ عُدْوانَ السَّفِيهِ عَلَى الْحَبْرِ
محابرُ تبكي بعدهم بسوادها
وبعضُ قلوب الناس يألف بالغدر (?)
مررت بصخر الرّاسيات أجوبها
« كخنساء » من قطر البكاء على « صخر »
أيا ناصحي بالصَّبْر ! دعني وزفرتي
أوضاعُ صَبْرٍ والكبودُ على الجمرِ ؟
ومنها :

وهبَ أن ذاك المُلْكَ يرجعَ عامراً
ويغسلُ وجهَ العالمين من العَفْرِ
فأَيَّنَ « بنو العباس » مفتخر الوري
ذوو الخُلُقِ المرضي والغررِ الزُّهرِ ؟
غدا سَمَراً بين الأنام حَدِيثُهُم
وذا سَمَرٌ يُدْمِي المدامع كالسُّمْرِ (١)
وفي الخبر المَرْوِي : دِينَ مُحَمَّدٍ
يعود غريباً مِثْلَ مُبْتَدِلِ الأَمِيرِ (٢)
أَغْرَبُ مِمَّنْ هَذَا ؟ يعود كما بدا
وتُسَبَّى ديارُ السَّلَمِ في بلد الكفرِ
فلا انحدرت منها جداولُ رَوْضَةٍ
وحافائُها لا أعشبت ورقُ الخضرِ
كأنَّ دَمَ الإِخوان أصبحَ نابئاً
يَدْبِجُ قَتْلِي في جوانبها الحُمْرِ

(١) السُّمَرُ : المسامرة ، والسُّمَرُ : الرماح .
(٢) الحديث الشريف : يعود الاسلام غريباً كما بدأ غريباً .

بَكَتْ سَمَرَاتُ النَّبْتِ وَالشَّيْحُ وَالْفَغْضَى
لِكَثْرَةِ مَا نَاحَتْهُ غَانِيَةُ الْقَصْرِ
أَتَذَكُرُ فِي أَعْلَى الْمَنَابِرِ حُطْبَبَةً
و« مُسْتَعَصِمٌ بِاللَّهِ » لَمْ يَكْ فِي الذِّكْرِ؟
أَبْلُغُ مِنْ أَمْرِ الْخِلَافَةِ رُتْبَةً
هَلُمَّ انظُرُوا مَا كَانَ عَاقِبَةُ الْأَمْرِ؟
فَلَيْتَ صِيْمَاخِي صُمَّ قَبْلَ اسْتِمَاعِهِ
بِهَتْكَ أَسَاتِيرُ الْمُحَارِمِ فِي الْأَسْرِ
عَدَوْنَ حَفَايَا سَبَسَبَاً بَعْدَ سَبَسَبٍ
رِخَائِمَ لَا يَسْتَطِيعُ مَشْيَاً عَلَى الْجَسْرِ^(١)
لَعَمْرُكَ لَوْ عَايَنْتَ لَيْلَةَ نَقْرِ هَمِّ
كَأَنَّ الْعَدَارَى فِي الدَّجَى شُهْبٌ تَسْرِي
كَأَنَّ صَبَاحَ الْأَسْرِ يَوْمُ قِيَامَةٍ
عَلَى أُمَمٍ شُعْثٌ تُسَاقُ إِلَى الْحَشْرِ
وَمُسْتَصِرِخٍ : يَا أَلْمُرَّةُ ! فَانْظُرُوا
وَمَنْ يَنْصُرُ الْعَصْفُورَ بَيْنَ يَدَيَّ صَقْرٍ؟
تَقُومُ وَتَجْتَوِي فِي الْمُحَاجِرِ وَالْكُورِ
وَهَلْ يَخْتَفِي مَشْيِ النُّوَاعِمِ فِي الْوَعْرِ؟
يَسَاقُونَ سَوَاقِ الْمَعَزِ فِي كَبِيدِ الْفَلَا
غَرَائِرُ قَوْمٍ لَمْ يَرَوْعْنَ بِالزَّجْرِ
جُلْبُنِ سَبَايَا سَافِرَاتٍ وَجُوهُهَا
كُوعِبَ لَمْ يَبْرَزَنَّ مِنْ حَلَكِ الْخِذْرِ

(١) السبب : المغازة ، والتنويف : الصحراء .

وعِترَةُ «قنطوراء» في كل منزل
تصيح بأولاد «البرامك» : من يشري^(١) ؟

محاجر تَكَلَّتْ بالدُموعِ كريمةٍ
وإن بَخِلَتْ عينُ الغنائمِ بالقَطْرِ

نعوذ بعفو الله من نارِ فتنسةٍ
تؤجَّجُ من قُطْرِ البلادِ الى قُطْرِ

كأنَّ شياطينَ القبورِ تَفَلَّتَتْ
فسالت على بغداد عينُ من القِطْرِ^(٢)

بدا وتعالى من «خراسان» قَسْطَلُ
فعادَ رُكَّاماً لا يزول عن البدر

أَحَدَتْ أخباراً يضيق بها صدري
وأحمل أخطاراً ينوء بها ظهري

ولا سيما قلبي رقيق زجاجةٍ
وياطبها لولا الممات على الإثْرِ



لسائل الدمع :

وقال تقي الدين بن أبي اليُسُر ، وهو ممن شاهدوا النكبة ، يتفجع على
بغداد « ويصف ما حلَّ بها من التدمير والنهب والتقتيل :

(١) عترة قنطوراء : أولاد التتر . وأولاد البرامك : عنى أولاد الأسرة البرمكية .
وكان من عادة المغول أنهم يسبون البنات والنساء ويسوقوهن ماشيات
يقطعن السبا سب ، وكلما مروا ببلدة عرضوهن للبيع ، وعلى طول الطريق
يشترى من أراد الشراء .

(٢) عين القطر : القِطْر ذائب النحاس . إشارة الى أنهم من أصحاب يأجوج
ومأجوج . والقصيدة تقع في ٨٩ بيتاً ، فيها كثير من التحريف وقع من
النسخ ، وهي في مجلة اليقين ، ١٦/ج ١٦ ، سنة ١٩٢٢ م .

لسائل الدمع عن بغداد أنخبأرُ
 فما وقوفك والأحبابُ قد ساروا ؟
 يازائر ين الى « الزوراء » لا تَفِدُوا
 فدا بذاك الحِمى والدَّارِ دِيَارُ
 تاجُ الخِلافةِ ، والرَّبع الذي شَرُفَتْ
 بهِ المعالمُ ، قد عَفَادُ إِقْفَارُ
 أضحى لعطف البلى في ربه أُرُ
 وللدموع على الآثار آثارُ
 يانارَ قلبي مِن نارٍ لحربٍ وغى
 شَبَّتْ عليه ، ووافى الرَّبْعَ إِعْصَارُ
 علا الصَّليبُ على أعلى منابرها
 وقامَ بالأمر من يَحْوِيهِ زُنَارُ
 وكم حريمٍ سبته التُّركُ غاصبة
 وكان من دون ذاك السَّترِ أَسْتَارُ
 وكم بدورٍ على « البدرية » انخسفت
 ولم يَعُدْ لبُذورٍ منه إِبْدَارُ
 وكم ذخائرَ أضحت ، وهي شائعة
 من النِّهَابِ ، وقد حازتْ كُفَّارُ
 وكم حدودٍ أقيمت من سيوفهم
 على الرقاب ، وحُطَّتْ فيه أوزارُ
 ناديتُ والسَّبْى مهتوك تجرُّهم
 الى السِّفاح من الأعداء دُعَارُ



ياسائلي :

وقال المجد النشابي في نكبة بغداد على يد هولاء سنة ٦٥٦ هـ :

ياسائلي ولمحض الحق يرثادُ

أصيحُ ، فعندي نِشْدانٌ وإنشادُ

من فتية فتكوا في الدين ، وانتهكوا

حِماهُ جهلاً برأيٍ فيه إفسادُ

إذا ترامتُ أمورُ الناسِ ليسَ لهم

فيها رِواءٌ ولا حَزَمٌ وإنجَادُ

أما الوزير فمشغول بعنبره

والعارضان فنسّاجٌ ومدادُ

وحاجبُ الباب طوراً شاربٌ ثَمِيلُ

وتارةً هو جُنْكِيّ وعَوادُ

وشيخ الإسلام صدرُ الدين هِمَّتُهُ

مقصورةٌ لحطامِ المالِ يصطادُ

إن جئتَ « يثربَ » أو شارفتَ ساحتها ۞

فقل لمن أنزلت في حقّه (صادُ) :

الكفرُ أضرمَ في الإسلامِ جَدَوتَهُ

وليس يُرجى النّارَ الكُفْرِ إخمادُ

واضيعةَ الملكِ والدينِ الخفيفِ وما

تلقاه من حادثاتِ الدهرِ بغدادُ

إن المنيّةَ منّي كي تساورني

فللمنيّةِ إصدارُ وإيرادُ

من قبل واقعة شنعاء مُظلمة
يَسِيْبُ مِنْ هَوْلِهَا طِفْلٌ وَأَكْبَادُ



أروم صبراً :

وقال شمس الدين محمد بن عبد الله الكوفيّ الواعظ ، من قصيدة يصف
فيها هذه النكبة :

أرومُ صَبْرًا وقلبي لا يطاوعُ عُنِي
وكيف ينهَضُ مَنْ قد خانَه الوركُ ؟

إن كنتَ فاقِدَ إلفٍ ، نُحِّ عليه معي
فإننا كلُّنا في ذاك نشركُ
يانكبةً ما نجا من صَرَفِهَا أَحَدٌ

من الوري ، فاستوى المملوك والمليكُ
تمكنت بعدَ عزٍّ في أَحَبَّتَيْنَا
أيدي الأعادي ، فما أَبْقَوْا ولا تَرَكَوا
لو أنَّ ما نالهم يُفْدَى ، فديتُهُمُ

بمهجتي ، وبما أصبحت أملكُ
رَبْعُ الهدى اليوم أضحى بعدَ بُعْدِهِمُ
مُعْطَلًا ، ودَمُ الإِسْلامِ مُنْسَفِكُ

أين الذين على كَلِّ الوري حكموا ؟
أين الذين اقْتَنَوْا ؟ أينَ الأُلَى ملكوا ؟
أجابني الطَّلَلُ البالي وربُّهُمُ الدُّ

خالي : نعم ، هاهنا كانوا ، وقد هلكوا !



وقال الشيخ شمس الدين محمود بن أحمد الهاشمي الحنفي المتوفى سنة ٦٧٥ هـ ، يذكر واقعة بغداد ، ويرثي أهلها ، ويذكر خرابها :
إن لم تُقَرِّحْ أَدْمَعِي أَجْفَانِي

من بعدِ بَعْدِ كُمْ ، فما أَجْفَانِي !
إنسانُ عَيْنِي مُدُّ تَنَاءتِ دَارُكُمْ

ما راقه نظركُ إلى إنسانِ
بِالْيَتْنِي قَدْ مِتُّ قَبْلَ فِرَاقِكُمْ

ولساعةِ التوديعِ لا أحياني
مالي ولأَيامِ شَتَّ صَرْفِهَا

حالي ، وخَلَّانِي بِلَا خِيَلَانِ !
ما لِلْمَنَازِلِ أَصْبَحْتُ ، لِأَهْلِهَا

أَهْلِي ، وَلَا جِيرَانُهَا جِيرَانِي !
وَحَيَاتِكُمْ مَاحَلَّتْهَا مِنْ بَعْدِ كُمْ

غَيْرُ الْبَلَى وَالْمَدَمِ وَالْيَتِيرَانِ
وَلَقَدْ قَصَدْتُ الدَّارَ بَعْدَ رَحِيلِكُمْ

وَوَقَفْتُ فِيهَا وَقْفَةً الْخَيْرَانِ
وَسَأَلْتُهَا لَكِنْ بِغَيْرِ تَكَلُّمِ ،

فَتَكَلَّمْتُ لَكِنْ بِغَيْرِ لِسَانِ
نَادَيْتُهَا : يَا دَارُ مَا صَنَعَ الْأُلَى

كَانُوا هُمْ الْأَوْطَارُ فِي الْأَوْطَانِ ؟
أَيْنَ الَّذِينَ عَهْدَ تَهُم ، وَلِعِزَّتِهِمْ

ذُلًّا تَخِيرُ مَعَاقِدُ التَّيْجَانِ ؟

كانوا نُجُومَ مَنْ اِقتدى ، فـعليهم
 يبكي الهدى وشعائرُ الإيمانِ
 قالت : عَدَّوْا مَا تَبَدَّدَ شَمْلُهُمْ
 وتبدّلوا من عِزِّهم بهوانِ
 كدمِ الفِصَادِ يُراقُ أرذلَ موضعٍ
 أبداً ، ويخرجُ من أعزِّ مكانِ
 أفنتهمُ غَيْرُ الحِوَاثِ مثَلِما
 أفنت قديماً صاحِبَ الإيوانِ
 لما رأيتُ الدارَ بعدَ فراقِهِمْ
 أضحت مَعْطَلَةً من السَّكَّانِ
 مازلت أبكيهم وألثِمُ وحشةً
 لِحِمالِهِم مُسْتَهْدَمَ الأركانِ
 حتى رثي لي كلُّ مَنْ لا وَجْدُهُ
 وجدي ، ولا أشجانه أشجاني
 أنرى تعودُ الدارُ تجمَعُنَا كما
 كُنَّا بكلِّ مَسَرَّةٍ ونَهاني ؟
 إذْ نحنُ نختنمُ الزَّمانَ ونجتني
 بيدِ الأمانِ قُطُوفَ كلِّ أمانِي
 والدَّهْرُ تَخْدِمُنَا جميعُ صُرُوفِهِ
 والوقتُ يُعَدِّبُنَا على العُدُوانِ
 والعيشُ غَضٌّ والدُّنُوُّ مُمَزَّقٌ
 بيدِ الوصالِ ملابسَ الهِجْرانِ

هيهات ، قد عَزَّ اللقاء ، وسدَّتْ
 طُرُقَ المَزارِ طَوَارِقُ الحِداثِ
 مالي أَرَدْتُ ناظِرِي ، ولا أرى الـ
 أصحابَ فيك جماعة الإخوانِ !
 والمُتَفَتِّي ! واوحدتي ! واحيَّرَني !
 واوحَشَني ! واحرَّ قَلْبِي العاني !
 سِرْتُمْ ، فلا سَرَّتِ النسيمُ ، ولا زها
 زهرٌ ، ولا ماست غُصُونُ البانِ
 مالي أنيسٌ بعدَ كُمْ غير البُكا^(١)
 والنوحِ والحَسراتِ والأحزانِ
 ياليت شعري ! أين سارت عيسُكُمْ ؟
 أم أين موطنكم من البلدانِ^(٢)



وقال أيضاً يذكر خراب بغداد وقتل الخليفة (المستعصم بالله) ،
 رحمه الله :

عندي لأجل فراقكم آلامُ
 فإلامَ أعذَلُ فيكم وألامُ ؟
 من كان مثلي للحبيب مفارقاً
 لاتعذِلُوهُ ، فالكلامُ كِلامُ
 نعم المساعدُ دمعِي الجاري على
 خدَيَّ ، إلا أنَّهُ نَمَامُ

(١) الاصل (الا) ، والصواب (غير) ، لان القافية مخفوضة الروي .

(٢) فوات الوفيات ٢/٢٣٤ ، بيروت ، ١٩٧٤ م .

وَيُذِيبُ رَوْحِي نَوْحُ كُلِّ حَمَامَةٍ
 فَكَأَنَّمَا نَوْحُ الْحَمَامِ حِمَامُ
 إِنَّ كُنْتُ مِثْلِي لِلأَحِبَّةِ فَاقْدَأْ ،
 أَوْ فِي فُؤَادِكَ لَوْعَةٌ وَغَرَامُ
 قَفْ فِي دِيَارِ الظَّاعِنِينَ ، وَنَادِهَا :
 « يَا دَارُ ! مَا صَنَعْتَ بِكَ الْيَّامُ ؟ »
 أَعْرَضْتُ عَنْكَ لِأَنَّهُمْ مُذْ أَعْرَضُوا
 « لَمْ يَبْقَ فِيكَ بِشَاشَةٌ تُسْتَامُ »
 يَا دَارُ ! أَيْنَ السَّاكِنُونَ ، وَأَيْنَ ذَيَّتْ
 سَاكِلُ الْبَهَاءِ وَذَلِكَ الْإِعْظَامُ ؟
 يَا دَارُ ! أَيْنَ زَمَانُ رُبْعِكَ مُوْنِقًا
 وَشِعَارِكَ الْإِجْلَالُ وَالْإِكْرَامُ ؟
 يَا دَارُ ! مَذْ أَفْلَتَ نَجْوَمُكَ عَمَّنَا
 وَاللَّهِ مِنْ بَعْدِ الضُّيَاءِ ظِلَامُ
 فَلْيَبْعِدْهُمْ قَرُبَ الرَّدَى ، وَلْيَفْقَدْهُمْ
 فُقْدَ الْهُدَى ، وَتَنْزِلُ الْإِسْلَامُ
 فَمَتَى قَبِلْتِ مِنَ الْأَعَادِي سَاكِنًا
 بَعْدَ الْأَحِبَّةِ ، لَا سَقَاكَ غَمَامُ !
 يَا سَادَتِي ! أَمَّا الْفُؤَادُ فَشَيْقُ
 قَلْبِي « وَأَمَّا أَدْمَعِي فَسِجَامُ »
 وَالْدَارُ مُذْ عَدِمَتْ جَمَالَ وَجْهِكُمْ
 لَمْ يَبْقَ فِي ذَاكَ الْمَقَامِ مَقَامُ

لَاحِظٌ فِيهَا لِلْعَيُونَ ، وَلَيْسَ لِيْ
 أَقْدَامٌ فِي عَرَصَاتِهَا لِأَقْدَامُ
 وَحَيَاتِكُمْ إِنِّي عَلَى عَهْدِ الْهَوَى
 بَاقٍ ، وَلَمْ يُخَفِّرْ لَدَيَّ ذِمَامُ
 فِدْمِي حَلَالٌ إِنْ أَرَدْتُ مِوَاكُمُ
 وَالْعَيْشُ بَعْدَكُمْ عَلَيَّ حَرَامُ
 يَا غَائِبِينَ • فِي الْفَوَادِ لِبَعْدِهِمْ
 نَارٌ لَهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ ضِرَامُ
 لَا كَتَبَكُمْ تَأْنِي ، وَلَا أَخْبَارَكُمْ
 تُرَوِّى ، وَلَا تُدْنِيكُمْ الْأَحْلَامُ
 نَغَصْتُمُ الدُّنْيَا عَلَيَّ • وَكَلِمَا
 جَدَّ النُّوَى لَعَبَّتْ بِي الْأَسْقَامُ
 وَلَقِيتُ مِنْ صَرْفِ الزَّمَانِ وَجُورِهِ
 مَا لَمْ تَخَيَّلْهُ لِيَ الْأَوْهَامُ
 يَا لَيْتَ شَعْرِي ! كَيْفَ حَالِ أَحَبَّتَنِي ؟
 وَبَأَى أَرْضِ خَيْمَتَا وَأَقَامَتَا ؟
 مَا لِي أُنِيسُ غَيْرَ بَيْتِ قَالِهِ
 صَبَّ رَمْتَهُ مِنَ الْفِرَاقِ سِيَاهُ
 « وَاللَّهِ مَا اخْتَرْتُ الْفِرَاقَ ، وَلِأَمْنَتَا
 حَكَمْتُ عَلَيَّ بِذَلِكَ الْأَيْتَامُ » (١)

بغداد في « المقامات »

أنشأ غير واحدٍ مجموعة من « المقامات » ، وهي نوع من النثر الفني يعتمد على الازدواج والسجع . وتتناول المقامة الواحدة موضوعاً خيالياً أو أقصوصة وهدف منشئها إبراز قدرته اللغوية ، ويودع المقامة ما يشاء من فكرة أدبية ، أو فلسفية « أو فكاهية ، أو طُرفة أدبية . ومبتكر هذا الفن هو « ابن دُرَيْد » ، وجاء بعده « بديع الزمان » فعارضه ، ثم كتب على غِرارهِ الحريري ، وإن كان « البديع » يجرى مع طبعه ، والحريري يتعمل ويتكلف في أسلوبه ولغته . والذين كتبوا في فن المقامة استنوا سنتهما ، منهم ابن الصيقل الجَزَرِيّ ، وظهير الدين الكازروني^١ ، وناصيف اليازجي .

وكل واحد من هؤلاء الكتاب أفرد مقامة باسم (المقامة البغدادية) .

١ — بديع الزمان المتوفى سنة ٣٩٨ هـ : كانت المقامة الثانية عشرة من مقاماته هي المقامة (البغدادية) :

٢ — الحريري المتوفى سنة ٥١٦ هـ كانت المقامة الثالثة عشرة من مقاماته هي (المقامة البغدادية) .

٣ — ابن الصيقل الجزيري المتوفى سنة ٧٠١ هـ : كانت مقامته الأولى من مقاماته (المقامة البغدادية) .

٤ — ظهير الدين الكازروني البغدادي ، له (المقامة البغدادية) .

٥ — والشيخ ناصيف البازجي المتوفى سنة ١٢٨٧ هـ « جعل المقامة الثامنة هي المقامة (البغدادية) .



مقامة الكازروني البغدادي :

وقد وجدت للكازروني مقامة باسم (البغدادية)^(١) . وهي في موضوع

(١) [حقق هذه المقامة الاخوان كوركيس عواد وميخائيل عواد ، وراجعها السيد

مكي جاسم] .

بغداد لم يتناول شيئاً غيرها . وصف معالمها ، وأطرى خلفاءها ، ونعت أيامهم التي كانت تتسم بالأفراح والمسرّات ، ووصف مواسمهم ومهرجاناتهم . واني أختتم هذا الباب بالاعتباس من هذه المقامة . وظهير الدين الكازروني البغدادي هو من علماء المئة السابعة . مات في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٧ هـ . وكان من رجال العصر المغولي : خدم الديوان ، وكان مؤرخاً حَيَسُوياً ، فرضيئاً ، لغوياً ، فقيهاً . وكازرون مدينة في غرب إيران . وهذه المقامة حوت وصفاً لا يتلّ عن الشعر صياغة ، أنتطف منها نَتَفاً ، قال :

« الا إن الله سبحانه وتعالى لما أرسل عَذابه ، سلب كلاً منهم عقله وصوابه . فنفذ سهم القضاء ، وانتشر جناح الحماس في الفضاء ، فلم تنفع الجُنّة ولا السلاح ، ولا البوار ولا الرماح ، فوقع الفشل^(١) ، وعمّ الكسل ، وساء العمل ، وكثر الزلل ، وبطل التدبير ، وحار الوزير ، فترل بهم العدو حين اختلّوا ، و « ماغزِي قُوم في عُقر دارهم لِما ذكّوا » .

ومنها :

« ولقد كانت الملوك كالأُسود الضواري ، أو كالعقبان على ظهور المهاري ، والمماليك كالبدور ، والبُزاة والصقور ، والملك على سوقه قائم ، ورواق المملكة رفيع الدعائم ، والأيام أعياد وأذراح ، والليالي أعراس ومراح ، ورياض الزمان متفتحة النُوار ، وساعات الأيام مشرقة الأنوار ، وشيخص العطاء مهزوز الأعطاف » . وسحائب الإِنعام غدقة النّطاف ، وبروق الآمال ممطرة الأنواء ، وأقطار المواهب عبقة الأرجاء ، وأفنان الأفراح خضيرة الأغصان ، وأطيّار المسارّ خاطبة على منابر الأفنان ، ففي كل وقت تضرب طبول الهناء على أبواب الأمراء ، وتخفق بوقات السّراء ، مؤذنة بدوام النّعماء . فلا — والله —

(١) الفشل : الجبن .

وحقك لا والله . ما نظرت عيني الى أحسن منها بلدة أبداً ، وكيف يمثل بها
أو يقاس ، أو يشبه بالقدم الراس ؟ وكانت تمضي لأهلها الأوقات والأيام
والساعات ، كاملة المسار واللذات ؛ ولهم فيها من كل الثمرات ، والمواسم
تجلى في حُلِيِّ النَّصَارَةِ وتلذَّ أيامها للنظارة .

ومنها :

« موسم الحج وهو أعظم مواسم السنة ، التي تكِلُّ عن وصف حسنه الألسنة ،
وتفتح فيه آذر المضيف ، لكل بائسٍ من الحاج والضعيف ، وتضرب على
« دجلة » الحياض والروايا ؛ ويؤذَن بالحج في سائر الرَّعَايا ، ثم يُهرع الناس
الى الفرجة على التبريز . في حُلِّ الإبريز ، ما بين فتى وفناه ، وشاب قد
فتن بحسنه فتاه : يرتعون في رياض الجانب الغربي . ما بين ماشٍ أو مُمْتَطٍ
صَهْوَة حصان عربي . فلا يزالون كذلك أياماً يمرحون وحُداً وفِثاماً ،
والسبل تجلى في الموكب الى الخيام ، وتزفّ الى منازلها بالعبيد والحُدَّام .
فأول ما يقدمها العَلَم وهو مُحَمَّل الخاص . بعده الكوس أي الطبل .
ثم يمضي الكازروني يعدد مواسم بغداد . ومنها شهر الصيام ، المختص
بالعبادة والقيام ، ومنها التهيؤ للعيد المشهود ، والمجمع المحشود ؛ ومنها
الأضحى ، ومنها موسم التُّرَب ^(١) ، واليه المنقلب ، فيركب
الوزير في أرباب الدولة والأمراء ، والصدور والكبراء ، في موكب مشهود
الى « الرُصافة » ، وهي مدفن وُلاة الخلافة . ومنها أعياد ومواسم تقع أيَّام
السبت : « يخرج الناس الى الرياض والأزاهر لسماع أصوات الشحارير
والغلمان كالولدان . والجواري كالجوار الحسان ، ما بين أهيف وأحور ،
وأكل وأغيد وأعطر .

في البدر من وجتته نكتة

وفترة في العين من طرفه

إذا مشى جاذبه رَدْفُهُ

كَأَنَّهُ يَمْشِي إِلَى خَلْفِهِ

وأما زمن الربيع ، وأيام الوشي البديع ، فإنهم كانوا يصطبحون ويتجمعون ويتناولون ، كأنهم إلى نصب يوفضون ■ فينزلون الجوارى في رَهْط من الجوارى ، ويدخلون « نهر عيسى » ، ويباكرون نحو قصده تغليساً ، فيتجمعون بـ « المَحْوَل » ، إذْ عليه بالحسن المَعْوَل ، فيخترقون أشجاره ، ويقطفون ثماره ونُوَّارَه ■ ويفترشون رياضه وأزهاره ■ وينزلون غِيْطَانَهُ وأنهاره . ثم تعزِف القيان ، وتصطخب العידان ، وتصفق الغُدران ■ وترقص الأغصان ، وتميد الأفنان ، وكلما دمع الراوق ■ طاب المشوق ■ وكلما بكى السحاب ، ضَحِكَ الحَبَاب ، وكلما طرب العود ، زيجرت الرعود . وقد انتظموا في سلك الراحة ، واجتمعوا للاستراحة ، كذلك أَيْاماً ، لا يطعمون مناماً .

هذا على غرار ما كان يجري إلى أيامنا القريبة في « المدائن » ■ سلمان الفارسي « (سلمان باك) جنوبي بغداد ، فقد كانت جماعات « الشيخلية » ومن جاورهم من أهل المحال يخرجون في موسم الربيع وكأنهم في عيد ■ ويمضون فيها أَيْاماً من أيام الربيع على مثل هذه الحال .



البَابُ الثَّانِي

بغداد

في شعر شعراء العصر العثماني

حزبن وشباق :

للشيخ أبي الخير عبد الرحمن زين الدين السويديّ (١١٣٤ - ١٢٠٠ هـ) ، من قصيدة طويلة قالها « وهو في « دمشق » ، يشوق الى مسقط رأسه وموطن عزّه ومدّرج شبابه^(١) :

لولاكِ يا بلدة « الزوّراء » لولاكِ

ما أحرق القلبَ منّي شجورُ شجواكِ

سقى أديم الثرى منك الحيا وحبّ

سُحِبُ الكرائم في التكريم مَحْيَاكِ

واخضّرَ ربّعك من دوين الربيع ، ولا

زالت زهورُكِ في صيفٍ ومشتاكِ

أقولُ للواكفِ المنهتِلِ من مُقَلّي :

أَكْفُفْ لِيَتَنَجَّوْا من مجراه جرّعاكِ

شَتَانِ ما بينَ « بغداد » و « جِلَق » مع

إِيقاعِ حظّي ، فحظّي مدمعٌ باكي .

هيهاتَ هيهاتَ أنْ يَنجَابَ لي أَمَلٌ

به أَعِلُّ آمالي لِلْقَيْنَاكِ

آهٍ وآهٍ ! فلا أنهي الأوهَ ما

دام التّفوّهُ في بعدي لمرماكِ



(١) عن المسك الاذفر - للعلامة محمود شكري الالوسي .

الأرض تشقى وتسعد :

روى العلامة السيد محمود شكري الألوسي رحمه الله قصيدة خريدة لأحمد بك الشاوي ، وقد نشرت في جريدة « الزوراء » يؤرخ عَرَصَة الميدان . وكانت بين الجامع الأحمدى والقلعة « يجتمع فيها الباعة ، وتجتمع فيها الدواب والكلاب السائبة ، وتكثر فيها القاذورات وتتراكم الأوساخ ، حتى تولى الولاية « سِرِّي باشا » أحد مشاهير الولاية العثمانيين ، فأمر برفع ما كان عليها ، وغرسها أشجاراً متنوعة « وجعلها روضة للرياحين والأزهار ، فقال الشاوي هذه القصيدة ، نورد منها قوله :

ألم تَرَ أَنَّ الْأَرْضَ تَشْقَى وَتَسْعَدُ ؟

وتصلح طوراً بالولاية وتفسد ؟

وتحيا كما تحيا الرجال ذليلة

مِرَاراً ، وأحياناً تُعَزُّ وتُنْجَدُ

وكم قد رأينا من بلادٍ مريضة

شفاها بترياق التدابير أُصِيدُ

ومن قُطِرَ صُقْعٌ صَحَّ من بعد عِلَّةٍ

فأمرضه وال من الجور أنكدُ

وحسبك في « ميدان بغداد » عبرة

وشاهدُ عدلٍ بالذي قلتُ يشهدُ

مضى ما مضى والريحُ تَسْتَنُّ فوقه

وتُنْهَمُ فيه الرامسات وتُنْجَدُ

وتعلوه من وقع الحوافر غبرة

تكادُ بها الشمس المنيرة ترمدُ

وكم قد تشكّيت واستغاث فلم يُغث ،
ونادى فلم يُنجدْهُ إذْ ذاك مُنجدُ
فبيناهُ في حالٍ تسوؤك حاله
غدا وهُوَ من بين الميادين يُخسدُ
فمن سَطَرٍ صَفْصافٍ يروك منظرًا
وسَطَرٍ فسيلٍ حسنهُ يتجددُ
ومن بين هاتيك السطور جداولُ
من الماء تجري والحمامُ يغردُ

وعرصة الميدان من مطلع الحكم الوطني ١٩٢١ قد أبدل حالها مرات عديدة ، فصيرت مرة حديقة غناء ، وجعلت فيها فوارة يلطّف رذاذها الجو ، وتارة مقهى وفيها تعزف فرقة بلدية ، ومرة أبدلت بالحديقة مبادل عامّة ، ثم أعيدت حديقة ، وأخيراً أصبحت عرصة صغيرة لموقف السيارات . ثم عادت حديقة مزهرة بالورود والرياحين ، ونصب في وسطها مدفع قديم استعمله الخليفة مراد الرابع في حربه الفرس ، عرف ، عند العامة بـ « طوب أبي خزيمة » .



شكوى وسياسة :

ومن الشعراء الأعيان الذين قاوموا مظالم بعض الولاة ، وتغنوا بالمجد العربي ، السيد الجليل عبدالغني الجميل « مفتي بغداد على عهد الوالي علي رضا ذلك الوالي الذي تعسف في حكمه ، وضيق على البغداديين في جمع الأموال » وحكّم أنبائه وجنده في استخراج الذهب ، وأساء جلاوزته معاملة النساء ، فثار عبد الغني في وجهه وغاضبه . وقد عبّر عن ثورته بقصائد شديدة اللهجة ، وشكا فيها من قعود الذين من أجلهم غاضب السلطة ، وخذلانهم له أيام محنته وحرق داره ومكتبته - فقال من قصيدة طويلة عدد أبياتها ٧٦ بيتاً

بحسب رواية الشاعر عبد الغفار الأخرس في مجموعته :

أَجُولُ بِطَرْفِي فِي «العراق» فلا أرى

من الناس إلا مظهر البُغض والشَّحنا

فخيرُهمُ للأجنبيِّ ، وقبحهم

على بعضهم بعضاً يعدُّونه حسناً

وشبَّانهم شابُّوا المودَّةَ بالحفَّا

وشبَّنا وما للصفِّو في كدَرِ شُبنا

سمَرنا مع السَّمَرِ العوالي ليالياً

وهم سمَروا في ذكر سُعدي وفي لبني

وعصبة لؤمٍ قد تناجوا لحرِّنا

فيا ويحهم ! ماذا يلاقونه مِنّا ؟

ألا نخوةٌ منهم فيصحو الى التي

أيادي سبّا قد غادرت ذلك المغنى ؟

ألا حازم للرشد شدَّ حزامه

لموزمة ينسى بها الطائر الوكنا ؟

ألا مرشدٌ منهم عن الغيِّ قومَه

فيوقفهم منه على السَّتنِ الأسنى ؟

ألا صرخةٌ تدعو الصَّريح إذا دعا

ليوم عبّوسٍ شرّه يوقظ الوسنى ؟

ألا رافعٌ عن قومِه بغيّ ظالمٍ

إذا فقدوا في الحرب من ينطَحُ القرنا ؟

ألا مبلغٌ عني سراة بني الوغى

وأقوال عُرْبٍ كيف صبرُهمُ عنّا ؟

طوبينا عن « الزوراء » ، لا دَرَّ دَرُّها ،
 بساطاً متى يُنْشَرَّ يَعْدُونَهُ طعنا
 ولاني وإن كنت ابْنَهَا ورَضِيعَهَا
 فقد أنْكَرْتَنَا ، لاسقاها الحيا مُزْنًا ؟



وقال في سنة ١٢٦٦ هـ قصيدة تترجم عن ثورته النفسية ، وتصور ما كان
 يجش في صدره من الآلام من الوضع ببغداد :
 علام الإقامة في بلدة
 تُعَدُّ بِهَا مِثْلُ حُمْرِ النَّعَمِ ؟
 فهنا رَحَلْنَا الى غيرها
 لنحظى بعزٍّ وعيشٍ أَتَمِّمَ
 فلا بارك الله في بلدة
 تُعَدُّ الْأَسْوَدُ بِهَا كَالْغَنَمِ
 وفي كلِّ يومٍ تُرِينَا الْخَطُوبَ
 وتسطو علينا بِعِلْجٍ أَغَمَّ
 اذا بلدة أنْكَرَتْ أَهْلَهَا ،
 فدعها ۝ فمرجِعْهَا لِلْعَدَمِ
 أهُمُّ وَمَالِيَّ مِنْ مُسْعِفٍ
 وقومي كسالى ودائي المَرَمِ
 أنادي وماليَّ مِنْ سَامِعٍ ،
 وهل يَسْمَعُ الْقَوْلَ مَنْ فِي صَمِّ ؟
 الى كم نراعي الخسيس الدنيَّ
 ونرعى له حُرْمَةً كَالْحُرَمِ
 فما لي في « الكرخ » مِنْ مَسْكَنٍ
 ولا في « الرصافة » مأوى الْعَجَمِ

وكلّ رفيع بها ضائعٌ
 وكلُّ وضيعٍ بها محترمٌ
 أميّمٌ ! دعيني أجوبُ الفلاةَ
 فلمِنيّ وعينك عالي الهممِ
 أما تعلمين بأني امرؤُ
 أبيّ عن الضيم مَهْمَا أَلَمَ



الشكوى والسياسة :

وقال قصيدة ثالثة كان قد بعث بها الى المفتي العلامة أبي الثناء محمود شهاب الدين الألوسي يوم كان في اسلامبول ، وقد وردت في مجموعة الأخرس « وفي « غرائب الاغتراب » مع تخميس الأخرس ، منها قوله :

وكيف أرى بغداد للحُرّ منزلاً
 اذا كان مَفْرِيّ الأديمِ نِزِيلُها
 ويسطو على آسادهما لِبْنُ عِرْسِها
 ويرقّي على هام السّمَاك ضَيْلُها
 فما منزل فيه الهوان بمنزلٍ
 وفي الأرض للحر الكريم بديلُها
 وأصعبُ ما ألقى رئاسة ناقصٍ
 مساويه إنْ عُدّت كثيرٌ قليلُها
 وما ساد في أرض « العراقيين » ماجد
 من الناس إلّا قَدُمُها ورذيلُها
 فسرّ عن بلاد طوّحت لا ترى بها
 مَقِيلَ كريمٍ للعثار مُقِيلُها

ومنها :

عفا الله عني كم أجوب منها ميا
من الأرض يستاف التراب دليلها
لعلّي ألقى عصبة عشميّة
فروع مناجيب كرام أصولها
ينم بهم مجد رفيع ومنطق
ويُنْبِي عن الخيل العتاق صهيلها
متى يلثم اللّبات رُمحي وترتوي
سيوف بأعناق اللّثام صليلها
وحولي رجال من معدّ ويعرب
مصاليك للحرب العوان قبيلها



وزنم أيضاً قصيدة رائية طويلة بعث بها الى صديقه العلامة أبي
الثناء السيد محمود شهاب الدين الألوسي ۞ يؤرخ فيها واقع بغداد . منها قوله :
لهفي على بغداد من بلدة
قد عَشَّشَ العِزُّ بها ثم طار
كانت عروساً مثل شمس الضحى
لمستعير حليها لا يُعار
كانت لآساد الوغى منزلاً
والخائف الحاني بها يستجار
واليوم لا مأوى لذي فاقة
فيها ، ولا في أهلها مستجار

حلَّ بها قومٌ وهُمُ في عَمِيٍّ
 ما مَيَّزُوا شِرَارَهَا وَالْخِيَسَارَ
 والليث قد غاب ■ وفي غابيه
 قطباً غدا الثورُ عليه المدارُ
 بارت بها أَسْنَى تجاراتها
 وهكذا عادة دار البوار !
 قد نعتق اليومُ على جُدْرها
 يَصيح بالناس : البَوار البَوار !
 و « الكرخ » ■ قد أقفر من أهله
 من بعدِ ما كانوا كورَدَ البَهارِ
 ما سَمَّيْتِ ■ زوراءَ » إلا لما
 فيها عن الرشد من الإِزورارِ
 قد خلع الناس عِذارَ الحيَا
 فجار فيها الوغدُ والخُرُّ حارَ
 والكل فيها قاذح زَنَدَه
 وأوَّلَ الإِحراق يبدو الشَّرارُ
 لا يشتفي غيظ أخِي نَخوً
 إلا اذا جَرَّدَ بِيضَ الشِّفارِ
 أيا شهاب الدين ! ياسيدي !
 قد هجم النَّدْلُ علينا وجارُ
 وأصبح القردُ بها مقتدَى
 يلعب بالألباب لعب القمارِ
 بغدادكم أخنى عليها الذي
 من أسره لا يستطيع الفرارُ

قد بليت بالغمرات التسي
 قد علّمت مثلك خوض الغمار
 يانازحاً عنا وما قد درى
 من بعده ما قد جرى في الديار
 لو أن لي ماسكةً من قوَى
 أيتكم حبّواً الى « أسكدار » (١)



شوق وحنين :

وقال العلامة شهاب الدين أبو الثناء السيد محمود الألوسي المفسر الشهير ،
 وهو في « إسلامبول » يتشوق الى صبيته ، ويحزن الى وطنه ، ومنها
 لجدّه لأمه الشاعر الفقيه الشيخ حسين العُشاري ، قال رحمه الله :
 حدّاني إلى « الزوراء » شوقٌ مُبرِّحٌ
 فليس الذي حدثت عن حالها سهلٌ
 اذا ما نَبَتْ دارُ السلام بأهلها
 فلا جَبَلٌ يُؤوي الكرامَ ولا سَهْلٌ
 وإن قلّص الظلّ الذي في جنبها
 فأين من الرّمضاء في غيرها ظلٌّ ؟
 وإن نَضِبُ الماء التّمير بأرضها
 فأَيُّ شرابٍ في سِواها لنا يحلر ؟
 ديارٌ بها نِيطت عليّ تَمائمي
 قديماً ، ولي فيها نما الفرع والأصلُ
 بها سَكَنِي « في ربعا الخِصْبِ ناقتي »
 بها جَمَلِي يرغو « بها قيمتي تغاو

(١) اسكدار : القسم الاسيوي ، من اسلامبول .

أَلَا لَسَيْتَ شُعْرِي ! هل أراني بربعها
 مقيماً؟ وبالأحباب يجتمع الشمل؟
 وهل روضها يَخْضَرُ بعدَ ذُبُولِهِ
 ويَهْمِي على أوراقه الوَبْلُ وَالطَّلُّ؟
 وهل أنا في يومِ العَرُوبَةِ قاصدٌ
 لحضرة بازٍ شأنه الفَصْلُ والوصلُ^(١)؟
 وهل كلَّ يومٍ ماسِكٌ كَفٌّ والدي
 أبي المصطفى ذي همة أبداً تَعْلُو؟
 وهل أدباءُ الجَانِسِينَ يَضُمُّهُمْ
 وإيَّاي طاقٌ نَقْلُهُ الأَدَبُ الجَزَلُ؟
 سلامٌ على تلك الديار وأهلِهَا
 فهم في فؤادي دائماً أينما حَلُّوا
 فواللهِ لا أَسْلُو هواها وماءَهَا
 إذا كان قلبي عندَهَا ، فمتى أَسْلُو؟
 أَحِبَّتْنَا ! هل من وصول اليكُمُ؟
 فقد تعبت بيّني وبينكم الرُّسُلُ
 أَلَا هِمَّةٌ تُزْجِي رُكَّابَ عِزِّمَتِي
 اليكُم إذا شِئْتُمْ بِهَا اتَّصِلُ الجَبَلُ
 ولاني بناديكم على سوءِ فَعْلِكُمْ
 أرى أبداً عندي مرارتهُ تَحْلُو



شوق وحنين :

وقال أحمد بك الشاوي الأديب الضليع الذي تطفح قصائده بالحس العربي :

(١) يوم العروبة : يوم الجمعة . والباز : لقب الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، ويقال أيضاً ، الباز الأشهب .

تذكرتُ ما بيني «الرُصافة» والجسْرَ
عهدَ الصبَا ، فاشتاق قلبي للذِكْرِ
وعاودني الشوق الذي كنت ناسياً
لُسُعدَي ، فزاد القلب جمرأً على جمرِ
خليليّ ! هل عصرُ الشبيبة راجعُ
إلينا بـ «بكرُخايا» ؟ وناهيك من عصرِ
تركنا خيولَ الجهل فيه مُغيرةً
على اللهو واللذات من غيرِ ما سترِ
لكلِ فتى يُعطي الخلاعةَ أهلها
بيومٍ به للكأس ما شئتَ من كَرِ
وكم قد شددنا شدةً جاهليةً
على ساقِي الخمار في طلب الخمرِ
فرُحناً نَجُرُ الأُزَرَ تيهاً ، كأننا
ملوكُ يجرُّون الذيّولَ من الكبيرِ
فيلا نثمي ! إن كنت في ذاك لاثمي
رؤيَداً ، فإنّ اللومَ أعهدُهُ يُزري
حنانيك ! لا تُكثِرْ من اللومِ لِنثني
كفتني من اللوم الملامةُ لو تدري
إذا المرءُ لم تآبَ الدنياتِ نفسهُ
فقل لي : لماذا سَمِيَ الحُرُّ بالحرِّ ؟
وإن لم يكن بالشيب للمرء زاجر
عن اللهو واللذات ، لا خير في المرء (١)

ومنها يخاطب الخليفة :

ولو لم تغث أهل « العراق » بعزله
رَغَتْ بَيْنَهُم بِالشَّرِّ رَاغِيَةُ الْبَكْرِ
وَأَجْلَاهُمْ عَنْ أَرْضِهِمْ فَتَفَرَّقُوا
أَيَادِي سَبَا فِي مَوْحِشِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وما ذاك الا من مقادير قادر
ليُثْلَوْ من قد ساد بالخير والشَّرِّ
وكم من يَدٍ أَتْبَعَتْ فِي إِثْرِهَا يَدًا
هَـا أَثَرٌ بَاقٍ حَمِيدٌ مَدَى الدَّهْرِ
بِهَا اللَّهُ قَدْ أَحْيَا الْوَرَى ، فَكَأَنَّهَا
يَدُ الْغَيْثِ بَعْدَ الْمَحَلِّ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ
فَلَسْنَا نُوَدِّي شُكْرَهَا ، وَلَوْ أَنَّا
مَلَأْنَا جَمِيعَ الْأَرْضِ بِالنَّشْرِ وَالشَّعْرِ
لَقَدْ شَمِلْتُنَا مِنْ أَيَادِيكَ نِعْمَةً
عَظِيمَةً قَدْرٌ ، فَهِيَ وَاجِبَةُ الشُّكْرِ
فَأُضْحِكُ مَنْ قَدْ كَانَ بِالْأَمْسِ بَاكِيًا
بِبَغْدَادَ ، لَا يَنْفَكُ مَدْمَعُهُ يُجْرِي



وفي الحنين والشوق :

كتب الشيخ عبد الحسين محيي الدين النجفي من شعراء المئسة الثالثة عشرة
(١٩ م) قصيدة ، أثبتتها العلامة السيد محمود شكري الألوسي في « كتاب
أخبار بغداد » قال :

هي الدارُ بالزوراء هَلَّا نَزَوْرُهَا
فَقَدْ رَاقَ مِنْهَا وَقَرُّهَا وَنَزَوْرُهَا

مُعَرَّسُ أَيَّامِ الصَّيْبِ وَغَيْرِ أَصْهَافِهَا
 وَأَوْطَارُ أَيَّامِ التَّصَابِي وَدُورُهَا
 مَعَاهِدَ لَا أُنْسَى لَهَا عَهْدَ أَنْسِيهَا
 وَإِنْ سَلَفَتْ أَعْوَامُهَا وَشَهُورُهَا
 يَرُوقُكَ مِنْهَا نَافِرَاتُ ظَبَائِهَا
 وَأَحْسَنَ مَازَانَ الطَّبِيبَاءِ نُفُورُهَا
 رِبَاعَ الطَّبِيبِ « بِالْكَرْخِ » ! بَوْرُكَتِ أَرْبُوعًا !
 سَقَاكَنَ مِنْ صَوْبِ الْغَوَادِي مَطِيرُهَا
 وَزَارَكَ مُعْتَلُّ النِّسِيمِ « وَحَبَّذَا
 مَرَابِعُ مُعْتَلُّ النِّسِيمِ يَزُورُهَا
 مَغَانٍ ، عَلَيْهَا الْيُمْنُ الْقَيُّ رِوَاقَهُ
 وَدَامَ عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي حُبُورُهَا
 تَضَى . فَلَيْمًا بَازِغَاتُ شُمُوسُهَا
 لَيْدِيهَا ، وَإِيْمًا سَاطِعَاتُ بَدُورُهَا
 فَيَا صَاحِبِي ! عَجُّ بِي إِلَيْهَا ، فَانْتَهَا
 إِلَى الْخُلْدِ وَالْغَيْدِ الْكَوَاعِبُ حُورُهَا



وَقَالَ الْحَاجَّ عَبْدُ الرَّزَّاقِ الشَّوْافُ وَالسَّيِّدُ عَبْدُ الْغَفَّارِ الْأَخْرَسُ الْبَيْتَيْنِ الْآتَيْنِ ،
 رَوَاهُمَا الْأَلُوسِيّ فِي « أَخْبَارِ بَغْدَادِ » :
 مَنْ قَاسَ « بَغْدَادَ » فِي مِصْرٍ وَسَاكِنَهَا
 بِسَاكِنِيهَا ، فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَا قَاسَا
 أَوْحَلَ فِي غَيْرِ « بَغْدَادِ » وَسَاحَتِهَا
 قَاسَى بِهَا لَافْتَقَارَ الْأَنْسِ مَا قَاسَى



أحبتنا بزوراء العراق :

وقال السيد راضي القزويني ، وهو في تبريز ، يتشوق الى بغداد :
أَحِبَّتْنَا بَزَوْرَاءَ الْعِرَاقِ

لقد طال النوى ، فمتى التلاقي؟

وما « تبريز » للفصحاء مأوى ،

وأين التَّركُ من عرب العراق ؟



وله خمساً بيتين لعبد الغني الجميل :

أفي « الزوراء » ذو الهمم العوالي

ينال من العلى أقصى المنال ؟

فيا متكلفاً طلب المحال

(دَعِ الزوراء إن رُمْتَ العال)

(وسِرْ عنها تَجِدْ عنها بديلاً)

وقُمْ متبدلاً رَفْعاً بخَفْضٍ

بحكم المجد من نَدْبٍ وفَرْضٍ

ولا تَرْضَ ببعضٍ دون بعضٍ

(فإن الحرَّ لا يَرْضَى بأَرْضٍ)

(يَرى فيها مُهاناً أو ذليلاً)



ومن تخميسات الأخرس لقصيدة عبد الغني الجميل ، قوله « وقد أثبت

منه أبو النّاء إلألوسي في « غرائب الاغتراب » (٤٣ تخميسه) :

فكم قرصتني من عيدى بقوارصٍ

هوابط في وادي المساوي شواخصٍ

ولا قيتُ صعبَ الملتقى غير ناكِصٍ
 (وأصعبُ ما ألقاهُ صعبةُ ناقصٍ)
 (مساويهٍ إنْ عُدَّتْ كثيرٌ قليلُها)
 إذا الحُسرَ في بغدادٍ أصبح مبتلى
 وعاش عزيز القوم فيها مُدكِّلاً
 فلا عجبٌ إن رمتُ عنها تحوُّلاً
 (وكيف أرى بغداداً للحُسرَ منزلاً)
 (إذا كان مَفْريّ الأديم نزيلُها)
 ألم تنظر الأرزاء كيف تعددت ؟
 وساعدت النحس الشقيّ وأسعدت ؟
 قَعَعَدْنَا وقامت أرذلونا فسوِّدت
 (وكم باسقاتٍ في « الرصافة » أقعدت)
 (على عجزها حيث استطال فسيلُها)



سلام على بغداد :

ولعبد الغفار الأخرس الموصلي شاعر المئة الثالثة عشرة (١٩ م) بالعراق
 من قصيدة :
 سلامٌ على « بغداد » من بعد هُدأة
 سلامٌ مَلُولٍ لا يَمَلُّ من الهَجَرِ
 سأرحلُ عنها غيرَ ملتفت لها
 وأغدو مع النَّائِنِ في أوَّل السَّفرِ
 وكم لائِمٌ « ياسعدُ » ، قلت له : اتَّئِدُ
 أعيذك من هَمِّ يوسوسُ في صدري

لئن جهلت قد ري أناس ، فلرّني
 من الجهل منّي أن أعيرَ فها قدري
 وكيف مُقامي بين شرّ عِصابة
 تساوتَ لَدَيْها رُتبةُ الصُّفّر والتَّبَر



الشكوى والسياسة :

لأتسم شعر كثير من الشعراء العرقيين ، الذين عاشوا في المئة الثالثة عشرة (١٩ م) ، والرؤساء منهم « بطابع الوعي العربي ، وتميز بالحس القومي ، وفي طليعتهم في هذا الشأن عبد الحميد بك الشاوي المتوفى سنة ١٣١٣ هـ . وقد نظم هذه القصيدة ، وهو في نجد بمهمة رسمية ، يفتخر بأبيه وبسلفه الذين شاركوا الدولة في دفع الايرانيين عن احتلال بغداد ، ويذم الناس الذين لم يقدرُوا أهل بيته قدرهم :

تذكرتُ « بغدادَ » بعد الهدو

، ونحن بنجدٍ وقيعانِها

وما ذكرُ « بغدادَ » من حبّها ،

ولا من مودةٍ سُكّانِها

ولكن تذكرُها إذْ زهت

بمِطْعامِ حِميرٍ مِطْعانِها

بسيّدها وابن ساداتِها

ملوكِ الورى حَلِيّ تِيجانِها

أبي وأبي كُلِّ أكرومةٍ

توارثَها صيدُ قحطانِها

فقيم الإقامة في بلدة

تَنّاكرُنا بعد عرفانِها

كَانَ لَمْ نَذُدْ عَنْ حَمَاهَا الْجِيُو
 شَ نَاكِصَةً نَحْوَ إِيرَانِهَا
 بَبِيضٍ يَعَجَّلُ تَضْرَابُهَا
 فِرَاقَ الرُّؤُوسِ لِأَبْدَانِهَا
 وَخَيْلٍ إِذَا أَقْبَلَتْ فِي الْوُغَى
 حَسِبَتْ تَتَابُعَ عِقْبَانِهَا
 حَقَنَّا دِمَا أَهْلِهَا بِالْدِمَا
 ، وَصُنَّا عَقَائِلَ نِسْوَانِهَا
 وَلَوْ لَمْ نَدَافِعْ لَظَلَّتْ تَبَاعُ
 سَبَايَا بِأَبْخَسِ أَثْمَانِهَا
 « وَبَغْدَادَ » نَلْقَى بِهَا جَفْوَةً
 وَضِمًّا لِقَلَّةِ إِنْسَانِهَا
 يُضَامُ أَفَاضِلُ أَشْرَافِهَا
 وَتَسْمُو أَرَاذِلُ عُبْدَانِهَا
 تُدْتَسُّ فِيهَا صُدُورُ النَّدَى
 بِعُورِ الْقُرُودِ وَعُمَيَانِهَا
 وَلَا خَيْرَ يَرْجَى لَدَى شَيْبِهَا
 وَقُبْحاً وَتَعْساً لَشَبَابِهَا
 تَسَاوَوْا بِجَمْعِ خِيصَالِ الْأَمَامِ
 تَسَاوَى الْخَمِيرُ بِأَسْنَانِهَا



ويقول في بغداد من قصيدة ثانية :

سَقَى اللَّهُ بِغَدَادَ صَوْبَ الْحَيَا
 وَطَالَجَهَا الطَّالِعُ الْأَسْعَدُ

وإن لم يكن لي في شطّيهما ،
 وإن لجّ بي ظمماً ، موزدُ
 ولكن تركت بها معشراً
 لهم طارفُ المجد والأثلدُ
 همُ الناسُ إن عُدَّ أهلُ العلى
 وإن ذُكِرَ الأصلُ والمحتدُ
 وفي الكرخ ۥ لي كبدٌ غودرتُ
 وقلبٌ أضيعُ فما يُنشدُ
 لقيت من الدهر ما بعضُهُ
 يذوبُ له الحجرُ الجَلَمَدُ
 ولست لأحدائه ضارعاً
 ولا أنا مكتئبٌ مُكَمَدُ
 ولكنني أنا جارٍ على
 مدى همةٍ شأؤها أبعدُ
 ولست أبالي إذا الحادثات
 عَظُمْنَ إلى أيتها أعمدُ
 وقومي الألى الصيّدُ سادوا الورى
 وشادوا من المجد ما يخلدُ
 فتعساً لدهرٍ أخوه اللئيمُ
 وأكبر أعدائه الأمجدُ



جسر بغداد :

نصب الجسر الوسط في عهد الوالي « نامق باشا » عام ١٩٠٢ م ، فقال

عبد القادر العبادي الملقب بـ (شُنُون) يؤرخه :

هي الحضارة ما تعلو به الرتب

وما سوى العدل في الدنيا هي السببُ

ومنها :

هذا « العراق » أجِلُّ طَرْفًا بخِطَّتِه

يبدو لعينيك فيه ما هو العجب

وانظُرْ الى ساحة « الزوراء » تَلْقَ بها

لـ « نامق » همماً زالت بها الكُربُ

ذاك الوزير الذي « دار السلام » به

ماسّت من الفخر عِطْفًا هَزَّه الطَّربُ

كانت مريضةً جسمٍ قبله ، فأنى

وهو الطيبُ « وفيها الداء مُنتَشِبُ

حتى تَتَبَّعَ أَقْصَى دائِهَا ، فبدا

فيها الشفاء ، وزال السُّقْمُ والوَصَبُ

فكم له من أيادٍ في مرابِها

وكم له من مساعٍ شُكْرُها يَجِيبُ

سعى بتجديد جسرٍ من تَكَرَّرِهـ

كانت سفائنه كالماء تضطربُ

فعاد جسراً على « الشِّعْرى العبُّورِ » لمن

رام العبُّورَ عليه النِّيةُ والعَجَبُ

كلُّ البدائع جاءت في صنائعه

مستبدع الصُّنْعِ مأموناً به العطَبُ

كأنه ووضوحٌ من طرائقه

مُهَنَّدٌ مُنْتَضَى في مَتْنِه شُطَبُ

كأنه كلّ فُلّك من محاسنه
 فريدةٌ وشيت أثوابها القُشْبُ
 تستوقف العابر العجّالانَ صنعتهُ
 فيقتبِرُ الحَطّو فيه وهو مرتقبُ
 إن قال واصفه : فاق الحديد ، فلا
 تعجب ، فربّ حديدٍ فاقه الخشبُ
 فقلت ، اذْ مُدَّ منصوباً أُوْرَخُهُ :
 جِسْرًا لدِجَلَةٍ في « الزَّوراء » قد نَصَبُوا
 ١٣٢٠ هـ = ١٩٠٢ م



وفي هذا الجسر قال الرُّصافي قصيدة أيضاً ، منها قوله :
 كأنما « الزوراء » خَوْدٌ ، فهو في
 نحيف خَصْرها نِطاقٌ عَقْدَا
 كأنه عِقدُ جُمانٍ ۖ إذْ به
 أصبحَ جِيدُ نهرها مقلّدا
 كأنما « الرُّصافة » اشتاقت الى الـ
 « كَرخ » فمدّتْ لاعتناقهِ يَدَا
 فلو رأى « ابن الجهم » منه ما نرى
 لكان يَعنِيه بما قد أنشَدَا (١)
 قال فم الفخر لَدَى امتدادِهِ :
 نأريخه « جِسْرٌ غدا مجدّدا »
 ١٣٢٠ هـ

(١) يشير الى مطلع قصيدة علي بن الجهم :
 عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري

هولاكو والمستعصم :

من القصائد التاريخية التي وردت في الديوان الأول للشاعر الكبير معروف الرُّصافي « هولاكو والمستعصم » يقص فيها أحداث نكبة بغداد ، ويتفجع لما أصاب أهلها من السَّبي والقتل والنهب وهتك المحرمات ، وحرَق معالمها « ونهب مكباتها وإلقائها في دجلة ، قال رحمه الله :

هو الدهرُ ، لم يَرْحَمْ إذا شَدَّ في حربٍ
ولم يَتَثَدَّ لِمَا تَمَخَّضَ بِالْخَطْبِ
يزمجر أحياناً ويضحك تارةً

فيظهر في بُرْدَيْنِ للجدِّ واللعبِ
فلا هو في سِلْمٍ فَنَامَ بِطَشْهِ

ولا هو في حربٍ فنقعدَ للحربِ
يسالم حتَّى تأخذ القومَ عِزَّةً

فيهجم زحفاً في زعازعه التُّكْبِ
أدال من العرب الأعاجمَ بعدَ ما

أدال « بني عباسها » من « بني حَرْبِ »
ولم أرَ للأيام أشنعَ سُبَّةً

لَعَمْرُكَ من مُلْكِ العُلُوجِ على العُربِ
صفت لـ « بني العباس » أحواضَ عِزِّهِمْ

زماناً ، وعادت بعدُ مُخْلِبةَ الشُّربِ
عنت لهم الدنيا ، فاساوا بلادها

بعدل « أضاء الملكَ في سالف الحُقبِ
فكانوا طِفاحَ الأَرْضِ عزّاً وَمَنَعَةً

خلائفَ ساسوا بالسِّيوفِ وبالكُتبِ

لقد ملكوا ملكاً بكت أخرياتُه
 بدمع على « المستعصم » الشهم منصَّب
 تشاغل بالذات عن حَوَظِ ملكه
 فدارت « على ابن العلقمي » رحي الشَّغْبِ
 أطال هُجوداً في مضاجع لهـوه
 على تَرْفٍ « والدهر يقظانُ ذو أَلْبِ
 لقد غَرَّهُ أَنَّ الخطوبَ روابضُ
 ولم يدْرِ أَنَّ اللَّيْثَ يَرْبُضُ لِلوَيْثِ
 فكان كـ « مروان الحمار » إِذْ انقضت
 به دولة مدَّت يد الفتح للغرب



جرث فتنة من شيعة الكرخ جَلَّتْ
 على شيعه في الكرخ بالقتل والنهب
 فقامت لدى « ابن العلقمي » ضغائنُ
 تَحَجَّرْنَ من تحت النِّسِيطِ على القلبِ
 فأضمر « للمستعصم » الغدرَ ، وانطوى
 على الحِقْدِ مدفوعاً الى الغشِّ والكِذْبِ
 وخادعه في الأمر ، وهو وزيرُه ،
 مواربةً ، إِذْ كان مستضعف الإِربِ (١)
 فأبعد عنه في البلاد جُنُودَه
 وَشَتَّتْهُمْ من أَوْبِ أرضِ الى أَوْبِ (٢)
 ودسَّ الى الطاعِي « هُلاكو » رسالةً
 مغلفةً يدعوه فيها الى الحرب

(١) الارب : الدهاء . (٢) الأوب : الجهة والصوب .

وقال له : إن جنت بغداد غازياً »

تملكتها من غير طعنٍ ولا ضربٍ
فثار « هلاكو » بالمغول ، تؤمُّهُ

كتائب خُضرٍ تضربُ السهلَ بالصَّعْبِ^(١)
وقاد جيوشاً لم تهرَ بمخضبٍ

من الأرض إلا عاد ملتهباً الجَدْبِ
جيوش تردُّ الهُضْبَ في السير صَفْصَفاً

وتعرك في تسيارها الجَنْبَ بالجَنْبِ
فما عتَمَت حتى بنَّت بغبارها

سماً على أرض العراق من التُّرْبِ
ولما أبادت جيشَ « بغداد » هالكاً

على رُغم فتح الدين قائده النَّدْبِ
أقامت على أسوار « بغداد » بُرْهَةً

تعصُّ بها عَصَّ الشِّقَافِ على الكَعْبِ
فضاق عليها بالحصار خِناقُها

وغصَّت بكربٍ ، يا لهُ الله من كربٍ !
وقد حُمَّ فيها الأمنُ بالرتب فانبرت

له رُحْضاءٌ من عيونٍ أولي الرُّعبِ^(٢)

ومنها :

فلما رأى « المستعصم » الحَرَقَ واسعاً ،

وأنَّ ليس للداء الذي حلَّ من طِبِّ

(١) خضر : تضرب الى السواد لكثافة الجيش .

(٢) الرحضاء : تصبب العرق بعد الحمى .

مشى كارهاً والموت يُعْجِلُ خَطْوَهُ
 يَوْمَ لَفِيفاً من بينين ومن صَحْبِ
 وراح بعقد الصلح يجمعُ شمله
 كمن راح بين الثون يجمعُ والضَبَّ (١)
 فأمسكه رَهْناً وقتلَ صَحْبِيَه
 «هَلَاكُو» ، ولم يسمع لهم قَطُّ من عَتَبِ
 وأغرى ببغدادَ الجُنُودَ كما غدا
 بأدماء يضرى كلبهُ صاحبُ الكلبِ (٢)
 فَظَلَّتْ بهم بغدادُ تُكَلِّمُ مُرْنَةً
 تَفْجَعُ بين القتل والسَّبي والنَّهْبِ (٣)
 وجاسوا خِلَالَ الدَّورِ ينتهبونها
 وَصَبُّوا عليهم بطشهم أَيْمًا صَبَّ
 وأمسى بهم قصرُ الخِلافةِ خاشعاً
 مُهْتَكَاً أَسْتَارُهُ خَائِفَ السِّتْرِ
 وبات به من واكفِ الدمعِ بالبكا
 عيون المها شَتْرَاءَ مَزْرُوعَةِ المُدَبِ
 وراحت سَبَايَا للمغولِ عَقَائِلُ
 من اللاءِ لم تُمَدِّدْ لَهُنَّ يَدُ التَّلَبِ
 لقد شَرِبُوا بِالْهُيُونَ أَوْشَالَ عَزَّهَا
 وما أَسَارُوا شَيْئاً لَعَمْرُكَ فِي الْقَعَبِ (٤)

- (١) أفهم الخليفة أن هلاكه يرضى بعقد الصلح ويوافق على تزويج ابنته لابن الخليفة ، وضرب المثل لامتناع هذا الجمع بين الحوت والضب .
- (٢) الأدماء : الظبية . (٣) مرنة : معولة .
- (٤) ما أساروا : لم يبقوا في الكأس بقية ، أي شربوا المصائب أجمعها .

فَقُلْتُصَ ظِلُّكَ كَانَ فِي الْمَلِكِ وَارْفَاً
وَأَمْحِلَ مَلِكٌ كَانَ مُغْلَوْلِبَ الْعُشْبِ
لَقَدْ بَاتَ إِذْ ذَاكَ الْخَلِيفَةُ جَائِعاً
عَلَى الْحَسَفِ مَرْقُوباً بِأَرْبَعَةِ غُلْبِ
وَخَارَتْ قُوَاهُ بِالسَّعَارِ لِمَنْعِهِ
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ عَنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ^(١)
هَنَالِكُ « وَالطُّوسِيَّ » أَفْتَى بِقَتْلِهِ
قَرَوَهُ بِقَتْلِ آدِبٍ أَفْجَعَ الْأَدَبِ^(٢)
أَشَارَ « هُلَاكُو » نَحْوَ عِلْجٍ ، فَتَلَّهُ
فَخَرَّ صَرِيحاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجَنْبِ
فَأُدْرِجَ فِي لِبْدٍ ، وَدِيسَ بِأَرْجَلِ
إِلَى أَنْ قَضَى بِالرَّفْسِ ثَمَّةً وَالضَّرْبِ
وَقَدْ أَتَخَنَّتْ « بَغْدَادُ » مِنْ بَعْدِ قَتْلِهِ
جُرُوحُ بَوَارٍ جَاءَ بِالْحُجَجِ الشُّهْبِ^(٣)
وَمَا انْدَمَلَتْ تِلْكَ الْجُرُوحُ ، وَانْمَا
بِبَغْدَادٍ مِنْهَا الْيَوْمَ نَدْبٌ عَلَى نَدْبِ

-
- (١) السعار : قوة الجوع وصوت البطن .
(٢) الطوسي : هو نصير الدين أفتى بقتل الخليفة . وهلاكو وجنده لا يحتاجون إلى فتوى في ازهاق الأرواح ، وإنما هي طبيعتهم التي ينزعون إليها .
قروه : من القرى ، وهي الضيافة .
(٣) السنون الشهب : كناية عن سني الجذب والحرب .

كتاب أخبار بغداد :

للشاعر الكبير معروف الرُّصافي بقرّظ كتاب أستاذه العلامة محمود شكري الألوسي والقصيدة لم تنشر في الديوان . قال رحمة الله عليه :

آثارُ «محمود شكري» دام يشكرُها

بينَ الورى حاضرُ الأقبامِ والبادي

قد أصبحتَ وهني بعضٌ من مناقبه

عَدَّ الكواكب لا تُحصى بتعدادِ

أسفارُ علمٍ بدتْ كالصُّبحِ مُسفرةً

عمّا له من مدى علمٍ وإرشادِ

قد أظهر اليوم سيفراً في صحائفه

للناس أسفر عن أحوال (بغداد)

وشته أقلامه وشي البرود لنا

فراق في حسن إيجاز وإيجادِ

جَمَّ المباحث في ذكر الحوادث عن

لحن المثلث يحكي نغمة الشادي

أبحاثه تُحفّ في طيتها طُرفاً

أبرادها شرفٌ للناس في النادي

أبدى من الفضل علماً في مؤلفه

ما عنه يعجزُ إنشائي وإنشادي

أطروفةً يرتضيها كلُّ ذي أدب

ونُجعةً يبتغيها كلُّ مُرتادِ



وقرظه السيد عبد القادر العبادي المعروف بـ (شئون) أيضاً ، فقال :

آثارُ «محمود شكري» قد حوت طُرْفاً .
 كم مجلسٍ قد زَها فيها ، وكم نادي !
 علامة الفرق هاديننا الى طُرُق النـ
 خيرات ، أكرمُ به من سيّد هادٍ !
 أدنى معاليه ليس العبد يَحْصُرُها
 لو ساعد الدهرُ في ضَبْطِي وتعدادي
 اللهُ أكبر ! إنّي قد رأيتُ لـه
 أسنى كتابٍ حوى «أخبار بغداد»
 أمُّ البلاد التي كان «العراق» بها
 يزهر ، وأيامُها فيه كأعيادٍ
 مؤلّفٌ ، ما رأينا مثله أبداً
 وافي إلينا بإسعافٍ واسعادٍ
 شكراً لشُكْري على تأليفه ، فبِه
 سرُّ الأَنامُ ، وأحيا قلبي الصّادي



معاهد العلم الكبرى في « بغداد »

١ - النظامية

اطلال العلم :

نظمها الشاعر الكبير معروف الرُّصافي على لسان « النظامية » وهي الجامعة التي أسسها نظام الملك وزير الدولة السلجوقية في المئة السادسة الهجرية « وطار صيتها في الآفاق ، ونهل من علومها طلاب العلم « ودرس فيها جهابذة العلماء .

قَوَّضَ الدهرُ بالحِرابِ عِمادِي
ورمتني يداهُ بالأتكادِ
كم ، أنادي وليس لي من مُجيبِ
واضياعاه ! جهرةً كم أنادي
ضعضع الدهر من بنائي أركا
نأ شِدَاداً طالت على الأطوادِ
طالما رفرفت من العلم رايا
تُفَخَّارِ مِنِّي على « بغدادِ »
كنتُ للعلم روضةً باكرت أُر
هارها الغُرَّ بالعِهادِ الغَوادي
وجميعُ الأنامِ تضربُ أكبا
دَ المطايا كي تجتني أورادي
فالغزاليُّ سَلَّهُ بي ، وأبا إس
سحاقَ عَمَّا حَوَيْتُ من إرشادِ^(١)

(١) الامام أبو حامد الغزالي ، والامام أبو اسحاق الشيرازي .

سَلَّمَهُ إِذْ فِي طِلَابِي الْإِبِلُ النُّجُ
بُ تُحَفَّتِي مَضْرُوبَةَ الْأَكْبَادِ
فَرَمْتَنِي صَوَاقِعَ الدَّهْرِ فَاثْنَدَ
بَنَائِي ، وَصَرْتُ بَعْضَ الْوَرَاهِدِ
فَبَكْتَنِي مِنَ السَّمَاءِ دَرَارِيْ—
هِيَ وَكَانَتْ تُعَدُّ مِنْ حُسَادِي
أَهْلَ بَغْدَادَ ! مَا لِأَعْيُنِكُمْ تَغْدِ
مَضُ عُنِّي ۝ كَأَنْكُمْ فِي رُقَادٍ ؟
أَهْلَ بَغْدَادَ ! هَلْ تَرِقُّ قُلُوبُ
مَنْكُمْ رَاعِيهَا انْقِضَاضُ عِمَادِي ؟
رَقَّ حَتَّى قَلْبُ الْجَمَادِ لِفَقْدِي ۝
فَلْتَكُونَنَّ قُلُوبُكُمْ مِنْ جَمَادِ
أَفَلَا تَنْجِدُونَ مَدْرَسَةَ الْعِلْمِ—
سَم ، وَعَهْدِي بِكُمْ أُولَى إِنْجَادِ ؟
أَيْنَ مَا شِيدَ مِنْ نِظَامِي رَبَّنَى
فَلَقَدْ كَانَ نُجُجَةَ الْمُتَرَادِ
أَيْنَ تِلْكَ الْعُلُومُ ، وَهِيَ الَّتِي كَا
نَتْ رُبُوعِي تُذِيعُهَا فِي الْبِلَادِ ؟
كَيْفَ قَضَّتْ خِيَامَهَا زَعْرُ الدَّهْرِ
ر ۝ وَكَانَتْ رَصِينَةُ الْأَوْتَادِ ؟
أَقْفَرْتُ سَوْحَهَا وَقَدْ نُعِيَ الْعِلْدِ
سَم ، فَلَا حَتَّ تَجْرُ ثُوبَ الْحِدَادِ

وتوارث بالجهل ظلماً ، وكانت
خافقاً فوقها لواء الرشاد
أيها الدهر ! كل ما شئت فافعل
اذ حدا في ركابي غير حاد
ورعاني من راح من ظلمه العبد
ل فقيداً ميعاده في المعاد
فرّقوا جمع أمة مثلهم كل
نت لعمري وجيدة الاتحاد

★ ٢ - المستنصرية

قال الأستاذ جميل صدقي الزهاوي :
« وقفت على » المستنصرية « اليوم باكياً
ربوعاً بها للعلم أمت خواليا
وقفت بها أبكي قديم حياتها
وأبكي بها الحسنى ، وأبكي المعاليا
وقفت بها أبكي بشعري بناتها
وأشعري سجايهم وأنعي المساعيا
أكفكف بالأيدي بسواد أدمعي
ويأبئن إلا أن يفيضن جواريا
بكيت بها عهداً مضى في عيراصها
كربماً ، فليت العهد لم يك ماضيا
بكيت بها المدفون في ججراتها
من العلم حتى بل دمع رداثيا

وطأطأتُ منّي الرأسُ فيها تواضعاً
 وحيّيتُ بالتسليم منها المغانبا
 وسرحت أنظاري بها ، فوجدتها
 بناءً لتشييد المعارف غاليا
 بناءً جُساماً عزّزاً للعلم مثله ،
 فقلت : كذا فكلّيبن من كان بانبا
 وألّقيت قسماً قد تداعي جداره ،
 وقسماً على ما كان من قبلُ باقيا
 تهبُّ رياحُ الصيف في حُجراتها
 فتلبيسها ثوباً من النّقع هايا
 وتسعى على الجدران منها عناكبُ
 تُجيدُ لها فيما تداعي مبانبا
 فألمت فيها بالرسوم دوارساً
 وساءلت منهنّ الطلّول بوالبا
 وقلت لدار البحث : عظيمنت محفلاً ،
 وقلت لنادي الدرس : حيّيت نادبا
 أجامعة العلم التي كان روضها
 نضيراً كما شاء التّقدم نامبا
 بأية ربح فيك هبت زعازع ؟
 تصوّح ذاك الروض فاجتث ذوايا
 لقد كنت فيما قد مضى دار حكمة
 بها يعلم الناس الحقائق ما هيّا

فكنتِ بأفق الشمسِ شمساً مضيئة
تُشيعين نوراً للمعارف زاهيا
وكانت بلاد الغرب اذْ ذاكَ في عَمَى
تقاسي من الجهل الكثيف الدَّباغيا
فأين رجال فيك كانوا مشايخاً
اليهم يحثُّ الطالبون التَّواجيا ؟
وكانوا ببحاراً للعلوم عميقة
وكانوا جبالاتٍ للحُلُومِ رواسيا
وكانوا مصابيح الهدى ونجومها
بهم يتهدي من كان في الليل ساريا
يُميتون في نشر العلوم نهارهم
ويُحيون في حلِّ العَويص اللياليا
نواحيك من طلائعها اليوم أَقفرت
وكانوا ألوفاً يملؤون التَّواحيما
فقلت : وراك الله ! لا تسألنَّني
فمالك نفعٌ في السؤال ولا ليا
فقلت : أجيبيني كما كنت سابقاً
تُجيبين من قد جاء للعلم راجيا
فقلت : أَلَمْتُ حادثات عظيمة ،
وجرَّرت على هذي البلاد دواھيا
هناك استبدَّ الدَّهر بالناس مبدلاً
فرقع غفوضاً وسَقَلَ عالِيا
هناك اضمحلت دولةٌ عربيَّةٌ
بها كانت الأيام ترفع شانِيا

وعوّض عنها دولة ثم دولة
تُسَرُّ بِكَوْنِ الْجَهْلِ فِي النَّاسِ فَاشِيَا
وذاك لأن العلم في الناس مرشد
يُعَلِّمُهُ عَنْ حَقِّهِ أَنْ يُحَامِيَا
عرت نكبات الدهر «بغداد» بعدما
بها ردحاً ألقى السلام المراسيا
فأذهب ما للعلم من رونق الصّبا
تتابع أحداث يُشِيبُنَ التّواصيا
وأدنى الذي قد نابها من نواب
خرابي ، ولولاها لما كان دانيا
فكابدتُ مِنْهُنَّ الصّروف نوازلا
وقاسيتُ مِنْهُنَّ الخطوب عواديا
وأدنى الذي قد نابها من نواب
خرابي ، ولولاها لما كان دانيا
وأبدي على عزّي القديم إهانتني
رجالٌ لشخص العلم كانوا أعاديا
وأهملتُ حتّى انهَدَّ مِنِّي كما ترى
مبانٍ لنشر العلم عزّت مبانيها
وصرت على حكم الذين تخوفوا
من العلم ياهذا الى ما ترانيها
وقد ذوي الغصن الذي كان ناضراً
وقد عطّل الجسيد الذي كان حاليا
وكنْتُ أُرْجِي أَنْ تَعُودَ عِمَارَتِي
إذا بعث (الرحمن) للعلم راعيا

لقد نَقَضَ الأيامَ بالعَجَنِمِ مَرَوْتِي
 وَمَرَّ اللَّيَالِي يَتَّبَعْنَ اللَّيَالِيَا
 وَرَتَّقَ عُدُونُ الزَّمَانِ مَعِيشَتِي ،
 فَهَذَنَ لِي أَنِ أَلْقَى الزَّمَانَ مُصَافِيَا ؟
 فَقَدْ صَيَّرُوا لِلْفَحْمِ بَعْضِي مَخَازِنَا ،
 وَبَعْضِي حَوَانِيَتَا ، وَبَعْضِي مَلَاهِيَا (١)
 وَلَا قِيَتُ مِنْهُمْ كُلَّ خَسْفٍ وَجَفْوَةٍ ،
 فَمَاذَا عَسَى مِنْ بَعْدِ ذَا أَنْ أَلْقِيَا ؟
 أَبَيْتُ بَلَا ضَرْبٍ يَنْبِرُ دُجُنَّتِي
 وَيُدْفَعُ عَنِّي وَحْشَتِي وَظَلَامِيَا
 وَأَصْدَى فَلَا أَسْقَى مِنَ الْمَاءِ شَرْبَةً
 وَ« دَجَلَةٌ » تَجْرِي بِالنَّمِيرِ أَمَامِيَا
 فَيَا لَيْتَنِي كُنْتُ أَنْدَرَسْتُ بِأَجْمَعِي
 وَلَا كَانَ ذُلِّي هَكَذَا الْيَوْمَ بِأَدْيَا
 كَمَا قَدِ عَرَا أُخْتِي « النَّظَامِيَّةَ » الرَّدَى
 وَلَمْ يُبْقَ مِنْ آثَارِهَا الدَّهْرُ بَاقِيَا
 وَكُلَّ جَدِيدٍ سَوْفَ يَرْجِعُ لِلْبَلَى
 إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ لَهُ اللَّهُ وَاقِيَا

(١) قبل أن تتسلمها مديرية الآثار العامة كانت مرفأ لمديرية الكمارك والمكوس،
 تكدس في جنباتها البضائع ، وتستودع في حجراتها الواسعة أكياس
 الفحم وصناديق البضاعة . ومن حجراتها ما صُنِّعَ حَوَانِيَتٌ لِلْبَاعَةِ
 وكانت منها مقاهٍ وملاهي . فأعادت مديرية الآثار العامة جميع ما أخذ
 منها وأصلحت رونقها وزخارفها كما كانت ، ثم جرى افتتاحها رسمياً
 باحتفالات ١٤ تموز ١٩٦٠ م وأصبحت أثراً تاريخياً يؤمها رواد الآثار
 والسائحون طوال أيام السنة .

وقال الأستاذ معروف الرصافي : ولم تنشر في الديوان :
 أمّا لزّماني الماضي ارتجاع ؟
 أمّا لُشَّت الشمل اجتماع ؟
 زمان ضربت فيه من المعالي
 رواقاً للعلوم به اتّسع
 وكنت مشيدة الأركان حتى
 ينسائي لا يخاف له انصداع
 وكان لواء مجدي في البرايا
 على هام السمك له ارتفاع
 وكم قدماً هزمت جيوش جهل
 وعُدّت ومن مواضيّ البراع
 وكم قد كان للأقوام طراً
 لغيث الفضل في ربّعي انتجاع
 فألوت بي يد الحداث حتى
 خلت مني المربع والبقاع
 ومررت بالهوان عليّ تعدو
 لبال مالا نجمها شعاع
 رُميت بها بثالثة الأثافي
 وصيرت بكلّ حادثة أراع
 وضيّعتني الألى عرفوا بمجدي
 وبني كتم قد غدا لهم انتفاع
 وبعد أولئك العلماء صارت
 بعين الجهل ترمقني الرعاع

وَبِعْتُ بِأَبْخَسِ الْأَمَانِ بَيْعاً
 عَلَى زُهْدٍ كَمَا يَبِيعُ الْمَنَاعُ
 فِيَا «بَغْدَاد» ! كَيْفَ نَبَذْتَ عَهْدِي
 كَمَا نَبَذْتَ بُرَايَتَهَا الصَّنَاعُ ؟
 وَكَيْفَ لَدَيْكَ سَاغَ حَرَامٌ بَيْعِي ؟
 لِحَاكِ اللَّهِ ! هَلْ مِثْلِي يُبْسَاعُ ؟
 أَعِنْدَكَ لَمْ أَكُنْ قَدَرًا أَدَانِي
 « سَكَابِ » فَلَا أَعَارُ وَلَا أَبَاعُ ^(١)
 فَهِيَ أَنَا فِيكَ أَنْشُدُ عِنْدَ بَيْعِي :
 « أَضَاعُونِي وَأَيَّ عُلَى أَضَاعُوا » ^(٢)



وللشاعر السيد عبد القادر العبادي البغدادي الملقب بـ (شَنُون) المتوفى
 سنة ١٩١٠ م ييكبي « المستنصرية » :
 يَادَارُ ! مَا بِأَلْ رُبْعِ الْعِلْمِ يَنْعَاكَ
 فَمَا دَهَى فِي السُّورَى أَعْلَى مَزَايَاكَ
 يَادَارَ عِلْمٍ عَفَّتْ مِنْهَا مَعَالِمُهَا
 يَدُ الْخُمُولِ ، فَمَنْ أَفْتَى فَأَغْوَاكَ ؟
 يَادَارَ « مُسْتَنْصِرٍ بِاللَّهِ » مَا دَهَمْتُ
 تِلْكَ الدُّرُوسَ الَّتِي أَغْنَتْ بِمَغْنَاكَ ؟
 أَيْنَ الْخَزَائِنُ فِيهَا الْكُتُبُ قِيَمَةٌ ؟
 كَانَتْ لَهَا مَنْظَرٌ آيْزُهُو بِمِرَاكَ ؟

-
- (١) سَكَابِ : اسم جواد أصيل لبعض العرب القدماء ، قال فيه صاحبه :
 لِعَمْرِكَ أَنْ « سَكَابِ » عِلْقٌ نَفِيسٌ لَا يُبَاعُ وَلَا يُعَارُ
 (٢) مِنْ قَوْلِ الْعَرَجِيِّ :
 أَضَاعُونِي ، وَأَيَّ فِتَى أَضَاعُوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسَيِّدٍ ثَقُفَرٍ

أين المشايخ ؟ أين الطالبون ؟ فقد
 سرى لهم خبرٌ عالٍ بمراكٍ ؟
 أين الطبيب وأين الطب ؟ ما نفعت
 آلائه حين صرّف الدهر فاجاك ؟
 وأين دائرة دارت على الفلك الـ
 أعلى الذي كان طول الدهر يركاك ؟
 أين الشمسُ التي قد كان مطلعها
 في برجه ؟ هل زوّت هذا زواياك ؟
 لهفي على ربعك المأنوس ! إذ خليت
 منه أفاضل حلّوا في ثنابك
 لهفي على حلقات العلم ما صنعت
 أبحاث علمهم في ظلّ جدّواك



وقال الشيخ صالح التميمي من شعراء داوود باشا متشوقاً :
 هي لوعةٌ كشَفَ الفِراقُ غِطاها
 فالقلبُ بينَ حريقِها ولَظاها
 فإلى متى لا ينتهي حكم النّسوى
 وأرى اصطباري ، يا أمّيسَ تناهي
 وهل يجمع الشمل المشتّت أو أرى
 بلداً به تعطي النفوس منها ؟
 وألِمَ في فتيانها وكهولها
 ويروق عيني خيدُرها وخباها ؟
 زيدَ المدامُ ملاحه مُذْ شَبَّهَتْ
 أهلُ الفصاحة بالمدام لماها ؟

وأشاهد القصر المنيفَ ودولةً
بالعزَّ أَرْجَها عَبيْرُ ثَنَاهَا ؟



وللشيخ عبد اللطيف بن علي فتح الله البيروني ■ بعث بها الى أبي الثناء
الألوسي :

أحسِنْ ببغداد التي
تحوي المكارم والكرامُ
فاقت على كل البلا
دِ بحُسْنِها عند الأنامُ
فكم انتشى من عالمٍ
وكم نتشى فيها إمامُ
من حسنِها أن قد غدت
دار المحاسن والسلامُ



نكبة بغداد بالغرق

اصداؤها في شعر الشعراء العراقيين

استهدفت « بغداد » لطغيان دجلة غير مرة ، وتوالت عليها نكبات هذا النهر ، فكلم طغى على ديار واستولى على عمائر ومزارع وبساتين ، وكم أتلّف مباني ضخمة ! وقد ذكر العلامة محمود شكرى الألوسي في كتابه « أخبار بغداد » فيضان سنة ١٢٥٥ هـ نقلاً عن شاهده قال : « فان دجلة ، على ما حكاه الجدلّ عليه الرحمة ، قد طغى يومئذ ماؤها حتى تساوى من بغداد أرضها وسماؤها ، وغدت جذران بيوتها بين ساجد وراكع » وخاضع وخاشع ، ومبطون أضرت به علّة الاستسقاء ، ومحموم استلقى على ظهره يتفكر في ملكوت السماء ، وبالك قد استغرق بالبكاء ليله ونهاره ، وتفجرت منه العيون « فتلا (وإن من الحجارة) ، والملائكة تتسائم في سمائها بغبار البيوت ، وتنادي يا أهل الأرض عزاء ، فيبت العنكبوت كثير على من يموت ، والألباب أمست لفراط البلبل حيارى ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى . وكم من مُخَدَّرَة أراقت ماء المُحَبِّبَا وسخت بما يعزّ عليها لنجاة نفسها . وبالحملة لقد فار التّثور ، وأمست الأرجاء كالبحر المسجور ، وعادت ولا أطيل حادثة الطوفان .

وقد أشار الشاعر الفاروقى [الى ذلك] ببيتين « وشطرهما الفاضل أمين أفندي العمري ، عليهما الرحمة :

لانعجبوا من « نهر دجلة » إذ جرى

هو « الفُرات » كمعظم الطوفان

وطغى على « الزّوراء » كلُّ منهما

حتى انتهى لحضيرة « الكيلاني »

هو للحقيقة والطريقة بحرها
وبها ترى البحرين يلتقيان
أوى إليه الماء معتصماً به
والبحر مأوى جملة الخلدجان



وقد توالى الفيضانات الى عصرنا ، ثم انتهى أمرها بإقامة سدّ
« الثرثار » ذلك المشروع النافع الذي أقام ناظمه وجسوره وعمده الفن الهندسي ،
والمال المتوفر من خيرات النفط . وقد أحصى العلامة الألوسي في كتابه
« أخبار بغداد » جملة من هذه الفيضانات :

في سنة ١٢٦١ هـ ، وظلت المياه تحاصر بغداد ٤٠ يوماً .

وفي سنة ١٢٦٥ هـ ، « » « » « » ٥٠ يوماً .

وفي سنة ١٢٧٠ هـ فاض نهر دجلة ، وألف ما مرّ به من الزروع ، وأحاط
الماء نحو شهر .

وفاض في سنة ١٢٧٩ هـ .

وفاض في ١٢٩٠ هـ فيضاً عظيماً ، ومكث الماء حول بغداد نحواً من شهرين .

وفي سنة ١٣٠٠ هـ فاض وأحاط الماء ببغداد أربعين يوماً .

وفي سنة ١٣٠٣ هـ فاض فيضاً خطراً « » وأحاط الماء ببغداد

أربعة أشهر « » وحصل من جراء ذلك ضرر على المباني والزروع والبساتين .

وفي سنة ١٣١٥ هـ فاض وأحاط الماء ببغداد نحو شهرين .

وفي سنة ١٣٢٥ هـ فاض دجلة والفرات وديالى ، وغرق « الكرخ » من

« الفرات » ، وفي هذا الغرق قال « الرضائي » قصيدته « سوء المنقأب » .

وما مرت سنة وأخرى بعد هذا الأريخ ألا حصل طغيان في دجلة .

وأعظم ما رأيناه طوفان ١٩٥٤م الذي دمر المزارع والبساتين والغروس والمباني ،

وقدرت الخسائر في الأموال والحاصلات بعشرات الملايين . وبسبب « الثرثار »

قضي على الفيضانات قضاءً تاماً ، وإن الستة عشر مليوناً من الدنانير التي

أنفقت عليه لا تُعَدَّ شيئاً مذكوراً بالقياس الى دفع أضرار هذا العاني الجبار
كل عمام عن مدينة السلام .



سوء المنقلب :

وفي سنة ١٣٢٥ هـ المصادفة سنة ١٩٠٧ م ، فاضت أنهر « العراق » الثلاثة ،
فندفقت المياه من الفرات ، وكسرت السداد ، وكانت واهية مهملة ، فسالت
السيول بقوة حتى أغرقت الكرخ ، وتلاطمت أثباج دجلة والنقت بسيول
ديالى ، فحاصرت الرصافة ، فهاجت الكارثة كوامن في نفس الأستاذ معروف
الرُّصافي الشاعر الثائر ، فقال هذه القصيدة الخالدة ، وفيها يذكر الكثير من
معالم بغداد التاريخية وأنها رها وقصورها ، ولم تقل يومئذ قصيدة أخرى
في صميم الموضوع كمثلها ، ولذلك أثبت أكثرها :

« بغدادُ » ! حَسْبُكَ رَقْدَةٌ وَسُبَاتُ

أَوْ مَا تَمْضُكَ هَذِهِ النِّكَبَاتُ ؟

وَلَيْعَتُ بكَ الْأَحْدَاثُ حَتَّى أَصْبَحَتْ

أَدْوَاءَ خَطْبِكَ مَا لَهْنَ أَسَاةُ

قَلْبَ الزَّمَانُ إِلَيْكَ ظَهَرَ مَجْنَنَهُ

أَفَكَانَ عِنْدَكَ لِلزَّمَانِ تِرَاتُ ؟

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يَمَسَّكَ ضُرُّهُ

مِنْ حَيْثُ يَنْفَعُ لَوِ رَعَتِكَ رُعَاةُ

إِذْ مِنْ « دِيَالِي » وَ « الْفِرَاتِ » وَ « دَجَلَةِ »

أَمْسَتْ تَحِيلُ بِأَهْلِكَ الْكُتْرِبَاتُ

إِنَّ الْحَيَاةَ لَفِي ثَلَاثَةِ أَنْهَرٍ

تَجْرِي ، وَأَرْضُكَ حَوْلَهُنَّ مَوَاتُ

قَدْ ضَلَّ أَهْلُكَ رَشْدَهُمْ ، وَهَلْ اهْتَدَى

قَوْمَ أَجَاهِلُهُمْ هُمْ « السَّرَوَاتُ ؟

قومٌ أضاعوا مَجْدَهُم وتَفَرَّقُوا
 فتراهمُ جمعاً وهمُ أَشْنَاتُ |
 لقد استهانوا العيشَ حتَّى أهملوا
 سَعِيّاً مَغِيْبَةً تركه الإِِعْنَاتُ
 يا صابرين على الأمور تسومهم
 خَسُفًا على حينِ الرِّجَالِ أِبَاءُ
 ومنها :

تلك « الرُّصَافَةُ » والمياهُ تَحْفُفُهَا
 و« الكرخ » قد ماجت به الأَزْمَاتُ
 سالت مياه الوادِيَيْنِ جوارفًا
 فظَفَحْنَ والأسَدَادُ مُؤْتِكِلَاتُ
 فتهاجم الماءانِ من ضَفَّتَيْهِمَا
 فتناطحا وتوالى الهجماتُ
 حتَّى إذا اتَّصَلَ « الفُرات » بـ « دجلة »
 وتساوت الوَهْدَاتُ والرَّبَوَاتُ |
 زحفت جيوش السَّيْلِ حتَّى أصبحت
 « بالكرخ » نازلةً لها ضَوْضَاةٌ ،
 فسقت بيوت « الكرخ » شَرَّ مُقَيٍّ
 منها ، فقادت أهلها الأبياتُ
 واستنقعت فيها المياه فطحلبت
 بالْمَكْنُثِ ترغو تحتها الحَمَمَاتُ
 حتَّى استحال « الكرخ » مشهدَ أبْنُسٍ
 تبكي به الفيتان والفتياتُ
 طُرُقَاتُهُ مسدودةٌ ، وديباره
 مهدومةٌ ، وعِراضُهُ قَذِرَاتُ

بالكرخ عَزَّ على المروعة أَنَّهُ
 لُجَجُ المِيَاهِ عَلَيْكَ مَزْدَحِمَاتُ
 فَلَيْتَنِ أَمَانَتَكَ السَّيُولُ ۥ فَاغْتَمَسَا
 أَمْوَا جَهَنَّ عَلَيْكَ مَلْتَظِمَاتُ
 مَن مِّبْلَغُ «المنصور» عَنْ «بغداد»
 خَبِرَ تَقْفِيزُ لِمَثَلِهِ الْعَبَرَاتُ ؟
 أَمْسَتْ تُنَادِيهِ وَتَنْدُبُ أَرْبُعاً
 طَمَسَتْ رَسُومَ جَمَالِهَا الْهَبَّاتُ
 وَتَقُولُ : يَا لَأَبِي الْخَلَائِفِ ! لَوْ تَرَى
 أَرْكَانَ مَجْدِي وَهِيَ مِنْهَدِمَاتُ ۥ
 لَغَدَوْتَ تُنْكِرُنِي ، وَتَبْرَحُ قَائِلًا
 بَتَعْجَبُ : مَا هَذِهِ الْخَرَابَاتُ ؟
 أَيْنَ الْبُرُوجُ بَنِيَّتُهُنَّ مَشِيدَةٌ ؟
 أَيْنَ الْقُصُورُ عَلَّتْ بِهَا الشَّرَفَاتُ ؟
 أَيْنَ الْجِنَانُ بَحِثْ تَجْرِي تَحْتَهَا أَلْـ
 أَنْهَارُ يَانَعَةُ بِهَا الثَّمَرَاتُ ؟
 أَتَرَى : أَبُو الْأَمْنَاءِ يَعْلَمُ بَعْدَهُ
 بَغْدَادَ كَيْفَ تَرَوْعُهَا النَّكَبَاتُ ؟
 لَا « دِجْلَةٌ » ۥ بِاللَّرْزِيَّةِ ! دِجْلَةٌ
 بَعْدَ « الرَّشِيدِ » وَلَا « الْفَرَاتُ » فَرَاتُ
 كَانَ « الْفُرَاتُ » يَمُدُّ دِجْلَةً ۥ مَاؤُهُ
 بِيَجْدَاوِلِ تُسْقَى بِهَا الْجَنَّاتُ
 وَلَهُ فُرُوعٌ أَصْلُهُنَّ لِشَارِعِ أَلـ
 كَبُشِ الْمَجَارِي مِنْهُ مَتَهِيَّاتُ

تنمو الزُّروع بِسَقْيِهِ فغِلاؤه
 كُلُّ « العراق » ببعضها يفتاتُ
 لهفي على « نهر المَعْلَى » إِذْ غدت
 لا تستبين جِناؤه النَّضِيرَاتُ ^(١)
 نهرٌ هو « الفِرْدَوْسُ » تدخل منه في
 قصر الخلافة شُعبةٌ وقنْصاةٌ
 كالسيف منصلتاً تضاحك وجهه الـ
 أنوار وهيَ عليّة ملتَمعاتُ
 إِذْ « نهرُ بَيْنِ » عند « كلْوَاذَى » ، به
 مُلْدُ الغُصُونِ تَهْزُها النَّسَمَاتُ ^(٢)
 وبقربه من « نهرِ بُوْق » دارةٌ
 تَنْفِي الهُمومَ مَرُوجُها الخَضِرَاتُ ^(٣)
 يا قصرَ « باب التَّيْنِ » مُقَرَّناً
 والنَّفْيُ يَصْدُرُ منك والإِثباتُ
 إِذْ بَيْنَ « دِجْلَةِ » « الفُرَاتِ » مصانعُ
 تَفْتَر عن شَنْبٍ بها السَّنَوَاتُ
 يا « نهرَ عيسى » أَيْنَ منك مَوارِدُ
 عَذُبْتُ؟ وأَيْنَ رِياضُك الخَضِيلاتُ؟ ^(٤)
 ماذا دهي « نهرَ الرُّقَيْلِ » من البلى
 حيثُ المجاري منه مُنْدَرِساتُ ؟ ^(٥)

- (١) نهر المَعْلَى : نسبة الى المعلى بن طريف ، وكان من كبار قواد المهدي والرشيد ، ويسمى بنهر الفردوس .
- (٢) نهر بَيْن : نهر عند كلْوَاذَى وهي من قرى بغداد ومنتزهاتها .
- (٣) نهر بوق : في سواد العراق . وقصر باب التبر من قصور الخلافة .
- (٤) نهر عيسى : منسوب الى عيسى بن علي العباسي . والخضلات : البانعة والكثيرة الخضرة والماء .
- (٥) الرُّقَيْل : نهر يصب في دجلة قرب بغداد .
- (٥) بركة زلزل : حضرها زلزل الضَّارِب ، واليه نسبت .

يا « نهر طابق » ! لاعدٍ مُتُّكَ مَنَهلاً !
أين « الصَّراةُ » تَحْفُها الرّوضاتُ (١) ؟
أم أين « كَرخايا » تَمُدُّ مياهُهُ
« نهر الدَّجاج » فتكثر الغلاتُ (٢) ؟
أم أين « نهر الملك » حين تَسَلْسَلَتْ
فيه المياهُ وهُنَّ مُطَرِّداتُ (٣) ؟
قد كان تُزْدَرَعُ الجبوبُ بأرضه
فَتَسَحُّ منه بفيضها البركاتُ
أَيَّامَ تَطْلِعُكَ العدالة شمسها
وترِفُ فوقَكَ للهدى راياتُ
أَيَّامَ تَبْصُرُكَ الحضارة في العلى
بدرأ ، عليك من الثنا هالاتُ
أَيَّامَ تُنْشِدُكَ العلوم نشيدَها
فتعودُ منك على العلوم صِلاتُ
أَيَّامَ تَقْصِدُكَ الأفاضل بالرجا
فتفيض منك لهم جدأ وهِباتُ
أَيَّامَ يأتِيكَ الشَّكِيُّ بأمره ،
فيروح عنك وما لَدَيْهِ شَكَاةُ
تمضي الشُّهُورُ عليك وَهِيَ أُنَيْسَةٌ
وتمُرُّ باسمَةٌ بك السَّاعاتُ
ماذا دهاك من الهوان ، فأصبحتُ
آثارُ عسزِكَ وَهِيَ منطِمساتُ ؟
كم قد سقاها السَّيْلُ من أنهارها
ضُرّاً « وهنَّ منافعُ وحياةُ

واليسومَ قُلْتُ بِجَانِبِهَا : أَرْتَحُوا
دَفَقَ السَّيُولُ ، فَمَاجَتِ الْأَزْمَاتُ

١٨٤ ١٣٧ ٥٢٤ ٤٨٠

هـ ١٣٢٥

★

غرق بغداد سنة ١٣٣٣ هـ - ١٩١٤ م :

وفي تشرين الثاني من سنة ١٩١٤ م طغت مياه « دجلة » ، وفاضت روافد
النهرين : الزابان ، والعُظَيِّم ، وانحدرت كالآتِيّ فغسّطت محالّ
باب الشيخ والفضّل والباب الشرقيّ ، وبلغت « العُويْنَةُ » وكثيراً من محلات
الرّصافة ، فهرع الناس فزعين ينقلون ما خفّ حملة وغلّت قيمته من أموالهم ،
يؤمّسون الكرخ والحارات المرتفعة ، وأووا إلى المساجد والجوامع القريبة ،
وكانت كارثة لم يتوقع البغداديون وقوعها ؛ لأن موسم الفيضانات عادة
في الربيع ، ولا يتوقعون حصولها في الخريف ، فقال عبد الرحمن البّناء
مؤرخاً :

عوذتُ داري ومن قد حلّ ساحتها

بـ « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » و« الْفَلَقِ »

عامٌ به الماءُ في تشرين حين طغى

على « الرّصافة » قد أُرخت : بالغرقِ

ب ا ل غ ر ق

هـ ١٣٣٣

★

وقال الرّصافي حين زار « بيمك أوغلي » في إسلامبول ،

فذكر « الطرق » :

شقاء تمطّى في « العراق » تمطياً

وألقى جيراناً لا يُزحزحُ واستلقى

فإنَّ « العِراق » اليومَ قد نَشِيتُ به
نُيُوبَ الدَّواهي فَهَيَّي تَعْرِقُهُ عَرَقًا
تَمَشَّتْ به حَتَّى أَعَادَتْ سَوَادَهُ
بِياضاً ، وَمَدَّتْ لِلْبَوَارِ به رِبْقًا
فَلَهْفِي عَلَى « بَغْدَاد ! » إِذْ قَدْ أَضَاعَهَا
بَنُوهَا ، فَسُحِقًا لِلْبَيْنِ بِهَا سُحِقًا
جَزَوْهَا عُقُوقًا ، وَهَنِي أُمُّ كَرِيمَةٍ
وَالْأُمُّ أَبْنَاءَ الْكَرِيمَةِ مَنِّ عَقًّا
أَدَامَتْ لَهَا الْأَحْدَاثُ مَخْضًا ، كَأَنَّهَا
قَدْ اتَّخَذَتْهَا الْحَادِثَاتُ لَهَا زِقًا
وَأَنْدُبُهَا عِنْدَ الْأَغَارِيدِ شَارِبًا
مِنَ الدَّمْعِ كَأَسَا لَا أُرِيدُ لَهَا مَدَقًا



وَقَالَ مِنْ قَصِيدَةِ « بَعْدَ الْبَيْنِ » :
لَقَدْ طَوَّحْتَنِي فِي الْبِلَادِ مُضَاعًا
طَوَائِحُ جَاءَتْ بِالْخَطُوبِ تَبَاعًا
فَبَارَحْتُ أَرْضًا مَا مَلَأَتْ حَقَائِبِي
سَوَى حُبِّهَا عِنْدَ الْبَرَّاحِ مَتَاعًا
عَتَبْتُ عَلَى « بَغْدَاد » عَتَبَ مَوَدِّعِ
أَمْضَتْنَهُ فِيهَا الْحَادِثَاتُ قِرَاعًا
أَضَاعَتْنِي الْأَيَّامُ فِيهَا ، وَلَوْ دَرْتُ
لَعَزَّ عَلَيْهَا أَنْ أَكُونَ مُضَاعًا
لَقَدْ أَرْضَعَتْنِي كُلَّ خَسْفٍ ، وَإِنِّي
لَأَشْكُرُهَا أَنْ لَمْ تُتِمَّ رَضَاعًا

وما أنا بالجانبي عليها ، وإنما
 نَهَضْتُ خِصَاماً دُونَهَا وَدِفاعاً
 وأعملت أقلامي بها عَرَبِيَّةً ،
 فلم تُبْدِ إِصْغَاءَ لَهَا وَسَمَاعاً
 ومنها :

وَقَفْتُ غَدَاةَ الْبَيْتِ فِي « الْكَرْخِ » وَقَفَّةً
 لَهَا كَرَبْتُ نَفْسِي تَطْيِيرُ شَعَاعاً
 أودع أصحابي وهم محذقون بي ،
 وقد ضيقت بالْبَيْتِ الْمُشْتِ ذِرَاعاً
 أودعهم في « الْكَرْخِ » وَالطَّرْفُ مُسْبِلٌ
 إلى الجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ شَعَاعاً
 رعى الله قوماً بـ « الرُّصَافَةِ » كُلَّمَا
 تَذَكَّرْتُهُمْ زَادَ الْفَوَادُ نِزَاعاً
 سلامٌ على « وادي السلام » ، وإنني
 لأَجْعَلُ تَسْلِيمِي عَلَيْهِ وَدَاعاً



شكوى وسياسة :

للأُسْنَادِ جَمِيلِ صَدَقِي الزَّهَاوِي :
 أُنَعُودُ بَعْدَ تَصَرُّمٍ وَنَفَادِ
 أَيَّامُ « بَغْدَادِ » إِلَى « بَغْدَادِ » ؟
 أَيَّامُ بَغْدَادِ الَّتِي فِي مَرِّهَا
 كَانَتْ عَوَادِي الدَّهْرِ غَيْرَ غَوَادِي
 إِذْ لَيْسَ بِبَغْدَادٍ كَمَا تَلْفِي « وَلَا
 حُكَّامُ بَغْدَادِ ذَوِي اسْتِبْدَادِ

كانت محطاً للعلوم وأهلها
 وقرارة للمجد والإيجاد
 اليوم هاتيك العلوم بأسرها
 مدفونة بمقابر الأجساد
 قد عاش دهرآ في نعيم أهلها
 فاذا النّعيم وأهلها لينفاد
 أيامَ مدّة الأمن وارفَ ظله
 فيها فكانت جنّة المُرُتاد
 أيامَ «بغداد» تُضيّ جميلة
 فتلوحُ مثل الكوكب الوَقّاد
 أيّ عادُ ما قد مرّ من عمرانها ؟
 أم ذلك العمران غير مُعادٍ ؟
 لا ترّجعُ الرّغباتُ نحوَ عِراصها
 أو ترّجعُ الأرواحُ للأجساد
 فتقوم فيها بالسّدّادِ حكومة
 وتزول عنها دولة الأوغاد



وفي قصيدة ثانية يقول :
 ماكنت في «بغداد» أخا دَعّة
 ولا بعيشي في بغداد مغتبطا
 كالعندليب شدا للنّاس في قَفَص
 بحيثُ يحيا بحبّات لها النقطا
 مازلت في كلّ يومٍ ذرّاً شارقه
 مكرراً عملاً لي طالما حَبَطَا

إِنَّ الْقُنُوطَ مِنَ الْأَعْمَالِ مَهْلِكَةٌ
 وَيْلٌ لِمَنْ هُوَ مِنْ أَعْمَالِهِ قَنَطًا
 تَغْيِيرَتْ فَوْقَ وَجْهِهِ الْأَرْضُ أَنْظَمَةً
 حَتَّى التَوَى الْأَمْرَ بَيْنَ النَّاسِ وَاخْتَلَطَا
 بَيْنَ الشُّعُوبِ كَفَاحٌ ثَارَ ثَائِرُهُ
 وَلَيْسَ خَوْفٌ عَلَى الشَّعْبِ الَّذِي نَشِطَا
 وَلَيْسَ بَيْنَ الْفَتَى يَوْمًا وَحَاجَتِهِ
 إِنَّ كَانَ ذَاهِمَةً قَعَسَاءَ غَيْرُ خُطَا
 رَأَى الْقَوِي ضِعَافًا فَهُوَ يَغْمِطُهُمْ
 وَلَوْ رَأَى الْأَقْوِيَاءَ الْغُلَبَ مَا غَمَطَا
 مَا شَمَّرَ اللَّيْلَ عَنْ سَاقِيهِ مِنْهَزِمًا
 حَتَّى رَأَى الصُّبْحَ مِثْلَ السَّيْفِ مُخْتَرَطَا
 لَقَدْ رَأَيْتُ حَيَاةَ الْذُلِّ فَاشِيَةً
 وَالنَّاسَ مَتَقْبِضًا مِنْهَا وَمُنْبَسِطَا
 وَلِلْمَعِيشَةِ أَمْطَاتٌ قَدْ اخْتَلَفَتْ
 وَكُلُّ قَطْرٍ يَرَاعِي أَهْلَهُ نَمَطَا



وَقَالَ وَقَدْ أَزْمَعَ الرَّحْلَةَ عَنْ بَغْدَادَ :
 مَقَامُكَ فِي « الزُّورَاءِ » غَيْرُ حَمِيدٍ
 وَلَيْسَ لَكَ لِلْأَعْدَاءِ غَيْرُ مُفِيدٍ
 وَظَنُّكَ حَسَنًا بِالْإِيَالِي سَفَاهَةٌ
 وَرَأْيُكَ فِي الْإِيَامِ غَيْرُ سَدِيدٍ
 سَأَرْحَلُ عَنْ « بَغْدَادَ » رَحْلَةً عَائِفٍ
 فَقَدْ طَالَ فِي دَارِ الْهَوَانِ قَعُودِي

وأخرج من آلي ومالي وموطني
وما كان لي من طارفٍ وتليدٍ
ولم أرَ في عمري كبغداد منزلاً
به العلم لا يُجزَى بغير جُحودٍ
رأيت بها بُؤساً وشاهدت نعمة
فلم أَسرح من شامتٍ وحسودٍ
وكافحت أيتاماً بها وليالياً
تكران من بيضٍ هناك وسودٍ
إيقاظ الرقود :



من قصيدة موشحة للرّصافي بعنوان « إيقاظ الرقود » نظمها في
استبداد السلطان عبد الحميد الثاني « وعنوانها يدل على موضوعها »
شكاً واستهض ، وذكر واستشهد ، وتساءل وأجاب ، وأخبر عن جور الحكام ،
وبشر كل حكومة مستبدة بالزوال وبتمزيق الحدود ، منها :

إليكِ اليكِ يا (بغداد) عني
فإرثي لستُ منكِ ولستُ مني
ولكنني وإن كَبُرَ التَّجَنُّبي
يَمِيزُ عليَّ يا (بغداد) أُنْبي
أراكِ عـلى شَفاهـةٍ وُلِّ شديـدٍ
تَدَابَعَتِ الخُطوبُ عليكِ تَتَرَى
وَبُدِّلَ منكِ حُلُو العيشِ مُرّاً
فهللاً تُنْجِبِينَ فتيَّ أغـرّاً
أراكِ عَقِصَتِ لا تَلِيدِينَ حُرّاً
وكنْتَ لثله أذكى وكُودٍ

أقام الجهل فيك له شهودا
 وسامك بالهوان له السجودا
 متى تُبْئِدِين منكَ له جُحودا
 فهلّا عدت ذاكرةً عهدا ؟
 بهنّ رشدت أيامَ « الرّشيدِ » ؟
 زمانَ نفوذُ حكمِكَ مُستَمِرُّ
 زمانَ سحابُ فيضِكَ مُستَدِرُّ
 زمانَ العلمُ أنتَ له مَقَرُّ
 زمانَ بناءُ عِزِّكَ مُشْمَخِرُّ
 فصيرتَ بأوجهٍ للدُّلّ سُدُودِ
 حكومةُ شعبنا جارت وصارتُ
 علينا تستبدّ بما أشارتُ
 فلا أحداً دَعَتْهُ ولا استشارتُ
 وكلُّ حكومةٍ ظلمت وجارتُ
 فَبَشِّرْهَا بتمزيقِ الحدودِ



السَّدُّ في بغداد :

وقال يخاطب حزام بك والي بغداد ، بعد خروجه إلى سد
 الحويوة « من شاطئ الفرات ، الذي انكسر فأغرق (بغداد) :
 نَجَّيْتِ بالسَّدِّ (بِبَغْدَادِ) من الغرقِ
 فَعَمَّهَا الأَمْنُ بَعْدَ الخوفِ والفرقِ ^(١)
 قد قُمْتَ بالحزم فيها والياً ، فجرتُ
 أمورُها في نظامٍ منك مُتَسَرِّقِ

(١) الفرق : الخوف الشديد .

لقد نجحت نجاحاً لا يفوزُ به
من خالقِ الحزمِ إلا حازمُ الخُلُقِ
وَنَحَّ الفراتِ ! فلو كانت زواجرُهُ
تَدْرِى بِعِزِّكَ لَمْ تَطْفَحْ عَلَى الطُّرُقِ
ولا غدت تجرُّفُ الأسَداءَ قاذِفَةً
منها بسيلٍ على الأنحاءِ مُنْدَفِقِ
حيثُ « الحَوَيَّوَّةُ » أُمست منك طالبةٌ
رَتَقاً لَسَدٌ بِطامي السيلِ مُنْفَتِقِ
باتت تجيش بتيَّارٍ ، وبات لها
أهلُ (العراقيين) في هَمٍّ وفي قَلَقِ
حتى إذا أيقنت أرضُ (العراق) بأنَّ
تفنى من الظُّمءِ أو تفنى من الغَرَقِ
شَمَرَتْ عن هممٍ تعلو النُجُومَ ، وقد
أَمسى الزَّمانُ إليها مُتَلدِّعَ العُنُقِ
فكدت تملأُ فَرْعَ الواديينِ بما
حَشَرَتْ مِنْ طَبَقٍ بِأُنْيِكَ عَنْ طَبَقِ
لَمَّا خَرَجْتَ وَكَانَ الحَرَقُ مُتَسَعاً
والناسُ ما بَيْنَ ذِي شَكٍّ وَمُتَثَقِ
قالوا : نَحَا شُقَّةً قُصُوى ، وما عَلِمُوا
بأنَّ عِزْمَكَ يُدْنِي أَبْعَدَ الشُّقِ
فصدَّقَ اللهُ ظَنّاً فيكَ أَحْسَنَهُ
قومٌ ، وكذَّبَ ظَنُّ الجاهلِ الخَرَقِ
إذ جئتُ والسَّدُّ تحتَ النَّمْرِ مَكْتَسَحٌ
والنَّهْرُ يَرغُو بوجٍ فيه مُصْطَفَقِ

وثلُثُ السَّيْلِ كَالْمِهْوَاةِ وَاسِعَةٍ
يَهْنُو بِهَا السَّيْلُ مِنْ فَوْقِ إِلَى الْعُمُقِ
سَكَلَتْ صَارِمَ رَأْيٍ قَدْ أَزَلَتْ بِهِ
مَا كَانَ فِي السَّيْلِ مِنْ طَيْشٍ وَمِنْ نَزْرِ قَـ
فَمَا تَمَوَّجَ مَاءُ النَّهْرِ مِنْ غَضَبٍ
وَلِنَمَّا أَخَذَتْهُ رِعْدَةُ الْفَرْقِ
ثَبَّتَ عِزْمَكَ فِي أَمْرِ يَذِلُّ بِهِ
عِزْمُ الْحَصِيفِ لِمَا يَحْوِي مِنَ الزَّلَاقِ
تَقْضِي النَّهَارَ بِرَأْيِ النَّاسِ بِجَهْدٍ
وَتَقْطَعُ اللَّيْلَ بِالسَّيْلِ وَالْأَرْقِ
حَتَّى بَنِيَتْ وَكَانَ النَّهْرُ مُنْفَلِقًا
سَدًّا عَلَيْهِ رَصِينًا غَيْرَ مُنْفَادِقِ
أَرْسِيَّتُهُ جَبَلًا قَامَتْ ذُرَاهُ عَلَى
أَصْلٍ مَعَ الْمَوْجِ تَحْتَ الْمَاءِ مُعْتَدِقِ
فَرَاخَتْ النَّاسَ تَمْشِي فَوْقَهُ طَرَبًا
وَالنَّهْرُ يَنْسَابُ بَيْنَ الْغَيْظِ وَالْحَسَنَقِ
وَصَارَ مَعَكِيسَ فَخْرٍ أَنْتَ مَرَّجُهُ
كَالنُّورِ يُرْجِعُ مُعْكَوسًا إِلَى الْحَسَدَقِ
وَقَدْ رَكَنْتَ بِهِ الرَّايَاتِ خَافِقَةً
مَا بَيْنَ طَاقِينَ مَرْفُوعَيْنِ فِي نَسَقِ
مِنْ كُلِّ أَحْمَرَ قَانٍ وَسَطَهُ قَمَرٌ
يَتَلَوُّهُ نَجْمٌ بِلَوْنٍ أَبْيَضٍ يَتَقَقِ
فَظِلَّ حَاسِدُكَ الْمَغْبُونِ مَنْطُوبًا
عَلَى فُؤَادِ بِنَارِ الْجَهْلِ مُحْتَرَقِ
وَدَّ الْفِرَاتُ حَيَاءً مِنْكَ يَوْمَئِذٍ
لَوْ غَارَ يَسْأَلُكَ تَحْتَ الْأَرْضِ فِي نَقَقِ

لَمَّا اقْتَدَحْتَ زَنَادَ الرَّأْيِ مَفْتَكِرًا
فِي الْخَطْبِ أَهْبَتَ مِنْهُ فَحْمَةٌ الْفَسَقِ
فَأَدْبَرَ الْهَمُّ وَانْشَقَّتْ غِيَاهِبُهُ
كَمَا قَدْ انْشَقَّ سَجْفُ اللَّيْلِ بِالْفَلَقِ
إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا اسْتَعْصَتْ نَوَافِرُهَا
أَخَذَتْهُنَّ مِنَ التَّدْيِيرِ فِي وَهَقِ
وَأِنْ تَصَامَمَتِ الْأَيَّامُ عَنْ طَلَبِ
أَسْمَعَتْهُنَّ بِصَوْتِ مَنْكَ صَهْصَلِقِ
تَنْحَلُّ بِالرَّأْيِ مِنْكَ الْمَشْكَلاتُ لَنَا
كَالنُّورِ يَنْحَلُّ أَلْوَانًا مِنَ الشَّرْقِ
وَكَلَّمَا زِدْتَ تَفْكِيرًا بِمَعْضِلَةٍ
زَادَتْ وَضُوحًا لَنَا حَتَّى عَلَى الشَّفَقِ
فَالْفَكْرُ مِنْكَ كَأَبْعَادِ الْفُضَاءِ بِلَا
حَدٍّ يَسَاقُ خَطْفُ الْبَرْقِ فِي الطَّلَقِ
يَحْكِي الْأَثِيرَ إِذَا أَجْرَى تَلَاطُمُهُ
أَبْدَى سَوَاطِعَ نُورٍ مِنْهُ مُنْبَثِقِ
لَكَ الثَّنَاءُ عَلَيْنَا أَنْ نَخْلُدَهُ
نَقْشًا عَلَى الصَّخْرِ ۝ لَا رَقْمًا عَلَى الْوَرَقِ
تَاللَّهِ لَوْ بَلَغَتْ زُهْرَ النُّجُومِ يَدِي
مِنْ كَلِّ جِرْمٍ بِصَدْرِ اللَّيْلِ مُؤْتَلِقِ
رَتَبْنَاهَا حَيْثُ كُلُّ النَّاسِ تَقْرُؤُهَا
سَطَّرْنَا بِمَدْحِكَ مَكْتُوبًا عَلَى الْأَفْقِ



الباب الثالث

بغداد

في

الشعر المعاصر^(١)

(١) بعد عصر الدولة العثمانية .

أحداث بغداد التاريخية في الشعر العراقي

نواح دجلة :

للأستاذ معروف الرصافي، قالها بعد سقوط بغداد في أثناء الحرب العامة ،
جواباً عن قصيدة الشاعر التركي الشهير سليمان نظيف بك :

هِيَ عَيْنِي وَدَمْعُهَا تَمْضَحُ
كُلُّ حُزْنٍ لِمَائِهَا يَمْتَحُ
كَيْفَ لَا أَذْرِفُ الدَّمْعَ وَعِزِّي
يَدِ الدَّلِّ هَالِكٌ مُجْتَحُ
قَدْ رَمَتْنِي يَدُ الزَّمَانِ بِخُطْبِ

جَلَلٍ مَا لِلَّيْلِ إِصْبَاحُ
حَيْثُ غَمَّتْ عَلَيَّ وَجْهُ سَمَائِي
ظُلُمَاتٌ تَخْفَى بِهَا الْأَشْبَاحُ
وَتَوَارَى عَنِ أَعْيُنِي مَضْمَحِلًا
شَرَفٌ فِي مِوَاتِنِي وَضَاحُ
يَوْمَ أَمْسَيْتُ لَا حُمَاةَ تَذُودُ

ضَمِيمَ عَنِّي ، وَلَا ظُبَى وَرِمَاحُ
فَأَنَا الْيَوْمَ كَالسَّفِينَةِ تَجْرِي
لَا شِرَاعَ لَهَا وَلَا مَتَلَحُ
ضَقْتُ ذِرْعًا بِمَحَنَتِي فَتَرَاءْتُ

قَيْدَ شَبْرِ لِي الْفِجَاجُ الْفِصَاحُ
أَخْرَسَ الْحُزْنَ مَنَاطِقِي بِنَحِيبِ
أَلْسَنُ الدَّمْعِ فِيهِ ذُلُّقٌ فِصَاحُ
نَحْتُ حَتَّى رَأَى الْعَدُوَّ لِحَالِي

وَاعْتَرَانِي مِنَ الْعَوِيلِ بُحَاحُ

فمياهي هي انسكابُ دموعي
 وخَريري هو البُكا والنواح
 أو ما تبصرُ اضطرابي إذا ما
 خَفَقَتْ في جوانبي الأرواحُ
 ليس ذا الموجُ في مَوْجاً ، ولكن
 هو مِنِّي تَنَهُدٌ وصياحُ
 إن وجدني هو الجحيمُ ، ولولا
 أدمعي أحرقنتي الأتراحُ
 لو درى منبعي بما أنا فيه
 من أَسَى جَفَّ ماؤه الضَّحَضاحُ
 علَّه قد درى بذلكَ ، فهذا
 هو باكٍ ، ودمعُهُ سَفَّاحُ
 أينَ أهلُ الحِيفاظِ ؟ هل تركوني
 نُهْبَةً في يد العدوِّ وراحوا ؟
 بَرَّحُوا (وادي السَّلام) عَجَلاً
 أَفَجِدُ بَرَّاحَهُمْ ، أم مُزاحُ ؟
 ما لهم يَتَعَدُّون عَنِّي انتزاحاً
 وعزيرُ منهم عليّ انتزاحُ ؟
 أو ما يعلمونَ أن حريمي
 للمعادين بعدهم مستباحُ
 فلئن يبعُدوا ■ فإنَّ فؤادي
 لِإِلَيْهِمْ بِوُدِّهِ طَمَّاحُ
 لورأوني سَبَّيْاً بأيدي الأعمادي
 لباكوا مثاماً بكَيْتُ وناحوا

لا مسائي بعد العبادِ مساءً
 يومَ بانوا ، ولا الصَّبَّاحُ صباحُ
 أتمنَّى بأنْ أَطيرَ إليهم
 يجتاحُ ، وأين منِّي الجَناحُ ؟
 أنا أدري بأنهم بعدَ هجري
 لم يذوقوا غمضاً ، ولم يرتاحوا
 بل هم اليوم عازمون على الزحف
 صف بجيشٍ به تَخَصُّ البِيطاحُ
 إن تَأَنَّنُوا فربضةُ الليثِ تأتي
 بعدَها وثبةٌ له وكيفَاحُ
 كيف يُغَضُّونَ عن إغاثةِ وادٍ
 زانه من وِدادهم أوضاحُ
 فعليه من فخرٍ (عثمان) تاجُ
 وله رايةُ الهلالِ وشاحُ
 أنا باقٍ على الوفاء ، وإن كا
 نت بقلبي ممَّن أحِبَّ جِراحُ
 فإليهم " ومنهم اليومَ أشكو
 بَلِّغِيهم شِكايتي يارِياحُ



الشارع الكبير في بغداد :

شق والي بغداد والقائد العام للجيش السادس هذا الشارع « وسمي باسمه
 (خليل باشا جادّه سي) ، أي شارع خليل باشا ، وكانت قطعة من القاشاني
 في جدار مئذنة جامع السيد سلطان علي ، كتب فيها اسم هذا الشارع ومنشئه ،
 وكان كثير الأحوال يتراكم فيه التراب ، وإذا هطلت الأمطار استحال الى
 برك وأطيان تعاني منها المارة ما تعاني .

وفي سنة ١٩٢٢ م قال فيه الشاعر الكبير معروف الرصافي هذه القصيدة
يصف حاله . وفي سنة ١٩٢٨ م عُبِدَ وَقُبِرَ ، وسمي (بشارع الرشيد) ،
وكانت الأمانة التاريخية تقضي ببقاء البلاطة التي تحمل اسم فاتحه :
نَكْتَبِ الشَّارِعَ الكبير ببغدا

دَ ، ولا تَمَشُ فيه إِلَّا اضطرارا
شارعٌ " إِنْ نَكَبْتَ مَتْنِيَّـهـ يَوْمًا
تَلْقَ فِيهِ السُّهُولَ والأَوْعَارَ
تَرَامِي سَنَابِكُ الحَبْلِ فِيهِ
إِنْ تَقَحَّمْنَ وَعَثَ والخَبَارَ
فَهَنِي تَحْشُو التُّرَابَ فِيهِ عَلَى الأَوْ
جُهُ حَشَوًاو تَقْذِفُ الأحجارَ
لَوْ رَكِبْتَ « البُرَاق » فِيهِ أَوْ البَرَّ
قَ نَهَارًا ، لَمَا أَمِنْتَ العِثَارَ !
تَحْسَبُ العَابِرِينَ فِيهِ سُكَارَى
مَنْ هَوَاءُ تَنْسَمُوهُ غُبَارًا
سَاطِعًا يَمْلَأُ الفُضَا مُسْتَطِيرًا
حَامِلًا فِي ذَرَاتِهِ الأَقْذَارَ
مُسْتَجِيشًا مِنَ الجِرَائِمِ جِيشًا
مُسَبْطِرًا عَرْمَرَمًا جَرَارًا
هُوَ إِنْ رُشَّ جَاشٌ وَحَلَا ، وَإِلَّا
جَاشَ نَقَعًا عَلَى الوجوه مَثَارًا
تَصْهَرُ الشَّمْسُ فِيهِ أَدْمَغَةُ القَوِ
مِ إِذَا هُمْ تَخَبَّطُوهُ نَهَارًا
وَإِذَا مَا شِيتَ فِي جَانِبِيهِ
فَتَجَنَّبُ رَصِيفَهُ المُنْهَارًا

وإذا ما أرسلت فيه إلى الأطلـ
 راف لَحْظاً أنكرته إنكاراً
 لا ترى فيه ما يسرك بالصنـ
 مة حسناً ، ويهيج الأبصار
 بل ترى العين فيه كل جدار
 تكره العين أن تراه جداراً
 فجدار عالٍ وفي الجنب منه
 مُتَدَانٍ تَقْيُسُهُ أَشْبَاراً
 ودكاكين كالأفاحيص تمتد
 يميناً بطوليه أو يساراً
 أين هذا من الشوارع في الأمـ
 صارزانت بحسنها الأمصار؟
 عبّدوها ومهدّوها ، فجاءت
 لا اعوجاجاً بها ولا ازويراراً
 وأعدّوا بهنّ كلّ رصيف
 يَحْمَدُ السَّيْرَ فوقه مَنْ ساراً
 وأقاموا لهم بها كلّ صرح
 مشختر بناؤه اشمخراراً
 فعلى الجانبين كلّ بنساء
 خيّل في الحُسن كوكباً قد أناراً
 ثمّ لم يكتفوا بذلك حتّى
 غرّسوا في ضفافها الأشجاراً
 فوقتْهُنَّ ظِلَالُهَا وَهَجَ الشـ
 مسرّ ، وسرّ اخضرارها الأنظاراً

هكذا فلتكن شوارعنا اليو
م « وإلا فما عَمَرْنَا الدِّيارا



الفيضان:

وطغى نهر « دجلة » سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م « فقال الشيخ محمد
رضا الشيبى يصف طغيان مياهه :

كفّى بامسقط الوادي اندفاقا
ألا ترعى الجزيرة والعراقا ؟

طغى الوادي كشعبٍ أخرجوه
فما احتمل الهوان ولا أطاقا

ولما قيّدوه ليستقيّدوا
أبى من قيده إلا انطلاقا

بربك أيّها الوادي ، أفدنا
وعلمّ كيف نفثك الوثاقا

ألسنا أمةٌ ضجّرت ومالت
من الباغين رِقاً ، لا اعتاقا

توخّيت العماثر باذخات
وجانبت الصّغائر والدّقاقا

كأنك إذ تخيّرت المباني
هممت بهنّ قصدا لا اتفاقا

كما الفيضانُ أربُعنا ثياباً
مُصنّدة « وأرديةً رِشاقاً

فأونةٌ مضاعفةٌ غيلاظاً
وأونةٌ مُهلِهَلّةٌ رِقاقا



وقال فيه الجواهري أيضاً :
 بَدَتْ خَوْدًا لها الأغصانُ شَعْرُ
 و« دجلة » رِيْقُهَا ۥ والسَّفْحُ نَعْرُ
 على « بغداد » ما بقيت سلامٌ
 يَضُوعُ كما ذكا للورد نَشْرُ
 سَمَتْ تزهو على السَّفْحَيْنِ منها
 قصورٌ ملؤها زَهْوٌ وكِبَرُ
 يُظْلَلُ « دجلة » منها جَنَاحُ
 كما باهى بقادِمَتَيْهِ نَسْرُ
 نزلتُ فما رأيتُ أبَرَ منّا
 وضيف كريمة بِرٍ يُبَرُّ
 قَرَّتَنِي الرِّيحُ لم يَفْسُدْ مَهَبُ
 له ^(١) ، والماء لم يسدُ مَمَرُ
 سكرت وما سَقِيَتْ بغير ماءٍ
 و« دجلة » ماؤُها عَسَلٌ وخمرُ
 كريمة سادة عَرَقْنِ فِيهِـــا
 عروقٌ من بني « عدنان » نُضْرُ
 كفى « العباس » ما أبقت بنوه
 فما تربو على « بغداد » مِصرُ
 مضوا غُرَّ الوجوه وخالدهم
 نِقْدَابَاتُ من الآثار غُرُّ
 فمن يكُ ذِكْرُهُ حَسَنًا جميلًا
 فَحَسَبُ الْقَوْمِ في « بغداد » ذِكْرُ
 فيا « بغداد » ! لا يَنفَكُ سِرُّ
 لِحْسَنِكَ يَنْجِلِي فَيَدِيقُ سِحْرُ

أَكُنْتُ وَ « بَابِلًا » بَلَدًا سِوَاءَ
 فَلِلْمَلِكِينَ بَاقٍ فِيكَ سِحْرُ
 سَقَى الْجِسْرَ الْمَطِيرُ مِنَ الْغَوَادِي
 فَمَلَقَى اللَّهْوَ وَاللذَاتِ جِسْرُ
 هُوَ الْبُرْجُ الَّذِي كَادَتْ عَلَيْهِ
 نَجُومُ الْأَفْقِ سَاجِدَةً تَخِيرُ
 رَأَيْتَ بِأَفْقِيهِ شَمْسًا وَبَدْرًا
 كَأَحْسَنِ مَا تُرَى شَمْسٌ وَبَدْرُ
 نَهَارًا كُلُّهُ أُصْلٌ لِيَذَاذُ
 وَلَيْلًا كُلُّهُ سَحَرٌ وَفَجَرُ
 وَقَفَنْتُ عَلَيْهِ وَقِفَّةَ مُسْطِيرِ
 مِنَ الْأَحْزَانِ مِثْلُ حِصَاةٍ ذُعُرُ
 وَلِلْأَمْوَاجِ مِنْ حَنْقِ نَشِيشُ
 كَمَا يَغْلِي عَلَى النَّيِّرَانِ قِيدَرُ (١)
 وَ « دَجَلَةٌ » كَالسَّجِينِ بَغَى فِرَارًا
 وَأَزْبَدَ حَيْثُ أَعُوذُهُ الْمَفَرُ
 وَذَلِكَ الثَّابِتُ الْأَرْكَانُ أَمْسَى
 عَلَيْهَا رِيْشَةٌ لَا تَسْتَقِيرُ
 فَمَا أُدْرِي غَدَاةَ نَزَا عَلَيْهِ
 مِنَ الْأَمْوَاجِ مُغْتَلَمٌ يُؤَرُّ
 أَنْحَتَ الْمَاءَ غَاصُوا حِينَ جَازُوا
 عَلَيْهِ ، أَمْ فَوَيْقَ الْمَاءِ مَرُّوا ؟
 أَحَقَّ أَنْ « أُمَّ الْخَيْرِ » مِنْهَا
 بِعَاصِمَةِ « الرَّشِيدِ » أَحَاطَ شَرُّ ؟

(١) الْقِيدَرُ : مِنَ الْمَوْثَنَاتِ السَّمَاعِيَةِ .

وبات الماء منها قيدَ شِبْرٍ
 لقد أسدى لها الإحسانَ شِبْرُ
 و « دجلة » حرةٌ ضَجَّتْ فجاشت
 وبأبى الضئيمَ والإِذلالَ حُرُّ
 أضاعوا ماءها هَدْرًا ، وأخسني
 على مُسْتَوْدَعِ البُرْكانِ قِصْرُ
 وإن تكُ « دجلة » هَدأت وقرَّتْ
 فالغضبان « شِقْشِقَةٌ » تَقْرُ
 وإن تُبْتُم فذاكُكُم ، وإِلَّا
 تُصِرُّ على البليَّةِ إن تُصِرُوا
 رأوا حُسنَ « العراق » فأعجبتهم
 أباطحُ من ربيعٍ فيه خُضْرُ
 وقد حنَّوا إليه ، كما تَلْظِي
 فطيمٌ حولَ مِرْضَعَةٍ تَدِرُ
 فباوطنًا جفوه وهَوَ راضٍ
 وعقَّتْهُ بنوه وهَوَ بَـرُّ
 برغدي أن تروق لهم فتخالو
 مواردُهم ، وعيشي فيك مُرُّ
 نصيبي منك دمعٌ ليس يَرُقَا
 على البلوى ، وجَنَّبُ لا يَقرُّ
 رِضَى يالهاالتَيْنِ : ضَنَى وبؤسُ
 فضرُّ من بلادي لا يضرُّ
 ولست ببائعٍ أرضي بأرضٍ
 وإن لم أَلْقَ فيها مايسرُّ

ومن لم يرضَ موطنه مَقَرّاً
 من الدّنيا ، فليس له مَقَرُّ
 تتابعَت الخطوب على بلادي
 فواحدةٌ لواحدةٍ تُجَرُّ
 وقد مرّت نحوس واستمرت
 وذُلُّ القومِ نحسٌ مستمرُّ
 فلو قالوا : تَمَنَّ ، لقلتُ يوماً
 يَكْبِرُ وما بها خطبٌ يَكْبِرُ
 اليكِ الشّعْر ، يا بَغْدادَ ، عِقداً
 تناسق لؤلؤٌ فيه ودُرُّ
 بيانٌ جاش فيك فجساء عَفْواً
 وحسن رَقٍّ منك فَرَقَ شِعْرُ
 جرى بالأفق من قلبي لساني
 وأظهرت القوافي ما أُسِرُّ



طوفان سنة ١٩٥٤

لم تشهد بغداد طوفاناً كالذي شهده في ٢٢ آذار سنة ١٩٥٤ م ،
 فقد كان فيضان « دجلة » المفاجي طوفاناً بحقيقته ومعناه ، بالنظر لما خلف
 من تخريب وأضرار . فقد جاشت غوارب النهر ، واندفعت كأنباج المحيط
 الهائج ، واندفعت المياه بقوة ١٦ ألف قدم مكعب في الثانية ، وفي أيلة وضحاها
 ارتفع منسوب « دجلة » الى أعلى مستوى عرفته « بغداد » ، ثم تجاوزته
 بمتري ونصف المتر ، وأصبحت « بغداد » بكفّ القدر ، يتوقع الخبراء غرقها
 في كل لحظة ، وزاد الخطر حين انحدرت « ديارى » هادرة كالرصاص في
 سرعتها . فصدت مياه « دجلة » وعاقبتها عن الجري ، فاضطرت الحكومة

الى كسر كثير من السدود الشماليّة ليخففوا من ضغط الماء عن بغداد ،
فتدفقت المياه وطفّت على مساحات شاسعة ، فأغرقت المزارع والبساتين ،
وعزلت خلقاً كثيراً ، وأصبحوا يتهددهم الغرق ، وأووا الى مرتفعات لتحصنهم
من الماء ، وكونت مياه الكسرات بحراً لا ساحل له ، ولا يبصر المرء له مدى ،
وأخذت تضغط على السدود الشرقيّة خلف بغداد ، وانهمرت السماء أياماً
متوالية بأمطار غزيرة ، مما زادت حراجه الوضع . ومما زاد في رعب الناس
اشتداد الرياح الجنوبية الشرقية ، فكانت تثير أثباج هذا البحر المتلاطم ، فيزيد
تآكل السدود . ولولا عناية الله ثمّ نجدة أولئك الجنود البسلاء من أفواج الجيش
وأهل الحمية من شبابتنا وشاباتنا ، طلاب المدارس وطلباتها ، لما بقي في
« بغداد » حجر على حجر ، ولأصبحت خراباً وأثراً بعد عين . وإذا
نسي البغداديون ، فلن ينسوا ليلةً من تلك الليالي السود ، ليلة الثلاثاء ليلة
الهلل والرعب ، فقد كثرت أمطارها ، واشتدت عواصفها ، واحلولت
سماؤها ، وكثر البرق والرعد ، وراجت الإشاعات ، وكثرت الأراجيف ،
وأشاع المتربصون بالبلد الدوائر أن الحكومة قررت إخلاء العاصمة والاستسلام ،
وتوقع الناس شراً مستطيراً ، وعشنا ساعات على أعصابنا ، مرةً نهرع الى
الشارع ، وأخرى ننصت الى المذياع ، الى أن طلع علينا وزير الداخلية ببيان
بعد منتصف الليل ينفي الإشاعات ، ويطمئن الناس ، ويهيب بالمواطنين أن يخلدوا
الى السكينة ، وأن يهب ذوو الغيرة الى المعاونة على تعلية السداد .

في هذا الجو الرعب ، وهذا الخطر المحدق بالبغداديين ، نظم أدينا محمد
بهجة الأثري الشاعر المبدع قصيدته الخالدة هذه :

يا « نوح » .. « قم » دارت بنا الأزمانُ

عُبدَ الهوى ، وتجدّد الطوفانُ

قد غيّبت عنه ، فأين منك سفينّة

يانوح — ينزع نحوها الإنسان ؟

كانتْ مَلَاذَ اللَّاجِئِينَ ، وَمَا لَنَا
 يَانُوحُ مَا يَنْجُو بِهِ الْحَيَّرَانُ
 قَدْ كُنْتَ أَحْزَمَ مَنِ « شَخُوصٍ » عِنْدَنَا
 زَعَمُوا التُّرْقِيَّ ، وَمَا دَرَوْهُ « وَمَا نُو
 عَشِقُوا تَهَاوِيلَ النُّعُوتِ ، وَمَا لَمْ
 فِي الصَّالِحَاتِ ، إِذَا ذُكِرْنَ ، مَكَانُ
 هُمْ مِثْلُ قَوْمِكَ فِي الضَّلَالِ ، وَإِنَّمَا
 جَهَلُوا ، عَلَى عِلْمِ الزَّمَانِ ، وَهَانُوا
 مَنْ عَاصِمٌ لِلخَلْقِ مِنْ مَتَوَعَّدٍ
 جَاشَتْ غَوَارِبُهُ وَهُنَّ رِعَانُ ؟
 الْبَرُّ عَادَ بِهِ عُيَاباً ثَائِراً
 كَالشَّعْبِ حَرَّقَ غَيْظَهُ الطُّغْيَانُ
 غَطَّى الْأَدِيمَ « فَلَيْسَ إِلَّا مَاؤُهُ
 أَرَأَيْتَ بَحِراً مَالَهُ شُطَّانُ ؟
 فَإِذَا سَجَا خَرَّقَ الْقُلُوبَ تَفَزُّعاً
 وَإِذَا تَحَرَّكَ زَاغَتْ الْأَذْهَانُ
 غَرِثَانُ وَهُوَ يَكَادُ يَبْتَلُعُ الدُّنَا
 وَكَأَنَّمَا أَمْوَاجُهُ الْحَيِّتَانُ
 هُوَ وَالسَّمَاءُ كِلَاهُمَا مُتَغَضِّبٌ
 مُتَفَجِّرٌ ، وَكِلَاهُمَا هَتَّانُ
 بَاتَا عَلَى وَعْدٍ ، فَلَيْسَ بِمُنْقَضٍ
 يَوْمٌ إِذَا مَالَمْ يَكُونُ حَدَثَانُ
 وَالنَّوْءُ يَأْتِي بِالصَّوَاعِقِ مُنْذِراً
 وَمِنَ الْعَوَاصِفِ مَارِجٌ وَدُخَانُ

وكأنتما (بغداد) في أثباجه
 فُلُكْ ، ولكن ماله رُبَّانُ !
 قامت على فَمٍ « ماردٍ » مُتَكَمِّظ
 أَرَأَيْتَ كَيْفَ تَلَمَّظَ الثُّعْبَانُ ؟
 إِنَّمَقَّ « قُمُومُهُ » ، فهام على الثرى
 وبه على « سَجَّانِه » غَلِيَّانُ
 لولا العنايةُ لاحظت رُحَمَاءُهَا
 لم يبقَ لَنَاسٍ ولا بُنْيَانُ
 ولَقِيلَ : كان هُنَا - زَمَاناً قَبْلُنَا -
 مُلْكٌ ، ونَاسٌ مِثْلُنَا قَدِ كَانُوا



قَدَسْتُ بِرَّ الْمُحْسِنِينَ وَجَهْدَهُمْ ،
 وَقَوَامُ هَذَا الْعَالَمِ الْإِحْسَانُ !
 وَذَكَرْتُ مَأْسَدَةً كَانَ لِيُوثِقَهَا
 فِي « السِّدْرِ » مِمَّا رَبَّهُ « خَفَّانُ »
 لِيْلِهِ دَرُّ الْجَيْشِ مِنْ مَتَحَمِّسٍ
 قَامَتْ عَلَى إِخْلَاصِهِ الْأَوْطَانُ
 نَضَدَ الثُّلُولَ عَلَى الثُّلُولِ مَجَالِدًا
 اللَّهُ . . . ماذا تفعل الشُّجْعَانُ !
 صَانَتُهُ عَيْنُ اللَّهِ ! لَمْ يَتَهْدَأْ لَهُ
 بَالٌ ، وَلَمْ تَغْمُضْ لَهُ أَجْفَانُ
 يَا كَالِيَّ الْأَوْطَانِ فِي أَرْمَاتِهَا
 هَلْ يَنْقُضِي مِنْهَا لَكَ الشُّكْرَانُ ؟
 وَقَفَّتْ وَرَاءَكَ ، وَالْحَيَاةُ تَعَاوُنُ
 وَالنَّاسُ فِي تَبِعَاتِهَا إِخْوَانُ

كُلُّ يُقَدِّمُ قِسْطَهُ مِنْ جِهَدِهِ
ضَلَّ الْمُقَصِّرُ وَاهْتَدَى الْمِعْوَانُ
★
حَيَّ الشَّبَابَ الْمُرْخِصِينَ نَفْسَهُمْ
وَنَفْسَهُمْ تُغْلَى بِهَا الْأَثْمَانُ
الْمَانِعِينَ إِذِ الْبَلِيَّةُ أَحْدَقَتْ
وَالْحَافِظِينَ وَلَيْسَ أَمَانُ
قَامُوا وَرَاءَ عَرِيْنِهِمْ يَحْمُونَ
فِعْلَ الضِّيَاغِمِ هَاجَهَا الْعُدْوَانُ
تَحْدُوهُمْ النَّخَوَاتُ لَمْ يَعْصِفْ بِهَا
جُبْنٌ ۝ وَلَا أَلْوَى بِهَا سُلْوَانُ
وَإِخْصُصْ كَوَاعِبَ كَالْأَزَاهِرِ نَضْرَةً
نُوراً حَرَائِرَ حَلِيْهَا الْعِرْفَانُ^(١)
غَالِبِينَ كَاللَّبَوَاتِ مَا اجْتَنَحَ الْقُرَى
وَالْمُدُنَ وَاسْتَعْمَلَى لَهُ السُّلْطَانُ
وَقَدِينَ بِالْمُهْجِ الْغَوَالِي مَوْطِنًا
كَرُمْتَ لَحْنَ بَظِلِّهِ الْأَزْمَانُ
بِاللَّهِ لَا تَصِمُوا الشُّبُولَ بَوَصْمَةِ
هَمْ عُدَّةٌ وَذَخِيرَةٌ وَحَنَانُ
أَكْبَادُنَا صَانَ إِلَهُ حَيَاتِهِمْ
لِقُلُوبِنَا بَوْدَادِهِمْ خَفَقَانُ
قَامَتْ سَوَاعِدُهُمْ عَلَى إِخْلَاصِهِمْ
كَالصَّبْحِ قَامَ بِنُورِهِ الْإِعْلَانُ
★

(١) نور : جمع نوار ، وهي المصون العفيفة .

المعجزة الجديدة :

وقال في هذا الغرق أيضاً الأديب الشاعر الأستاذ خالد الشوّاف :

يأأيُّها السَّيْلُ ! لاضعفُ ولا وهَنُ
جَلَّتْ معادنَ هذي الأَنفُسِ المِحَنُ
والنَّفْسُ كَالدَّهَبِ المخبوءِ منكشِفُ
إن تحرق النَّارُ أو إن تُغْرِقِ المَزَنُ
مَشَّتْ إلى المارد الطّاغي جبابرةُ
يحدو بها البَدَلُ لا أَجرٌ ولا ثَمَنُ
دَعَا بها الوطن المرزوءُ فانبعث
إِنَّ المواطن بالأرزاء تسمتَحَنُ
ظننوا التنابد يُوهي من عزائمها
هيَّهات ! لم يكِ إلا السَّيْلُ والوَطنُ
أحاط « بغداد » سَدُّ من مناكبها
تبدَّدَتْ عنده الأضغانُ والأِحَنُ
مناكب الشَّعب لا « الأسدادُ » مانعةُ
وأعينُ الشَّعب لا « المقياسُ » مايزَنُ
لله سَيْلانٍ من ماءٍ ومن بشرٍ ،
يَعُوبُ هذا ، ولكن ذاك لا يَهِنُ
إن الطَّبيعة والإنسان ما احتربا
كالיום قَطُّ ، كلا الخَصَمَيْنِ مُضْطَغِنُ
ياسيلُ ! معجزةٌ أطلعت مُنْذُ رَسَتْ
بـ « نوحٍ » الفُلُكُ لم يطلُعْ بها زَمَنُ
لولا الجبابرةُ المرَّاد ما قهرت
عُبابَ مائك أسدادُ ولا سُفُنُ

أرسي بـ « نوح » على « الجودي » مركبه
 يقودها الطير لما ضلت السفن
 وفلك « بغداد » أرست عند صخرتها
 يقودها طائر للشعب مؤتمن
 لإرادة الشعب جودي يهيب بسنا :
 أنا الملاذ إذا ما غاصت القنن



وقال أيضاً في هذا الغرق وجمع التبرعات :
 ليس عذر عن الندى أو عذير
 بعض أهل الحمى بكم مستجير
 إخوة في الحمى وأهل حداثهم
 للأكف الرطاب خطب كبير
 جرف السيل مالداهم ، وأنتم
 أيها الماكثون نعم المجير
 الضحايا لسبب أيديكم با
 توا ظمأ ، والماء طام غزير
 فابذلوا للمشردين ، وجودوا
 إن أمر المشردين عسير
 لا تصدّثكم عن البذل نزر
 فقليل إلى قليل كثير
 كيف يغفو ، وأثف طرف وألف
 يجتويها الرقاد ، طرف قرير

الشوق والحنين :

قال الشيخ عبد المحسن الكاظمي من قصيدته (ذكرى الفتوح) يناجي « بغداد » ، وهو اذ ذلك مقيم في القاهرة :

عسى « بغدادُ » يُوقظُها بيماني
فتقرأ فيه أبكار المعاني

مضى أمسٍ ۝ فلا يُرجى لأمنٍ
مأبٍّ أو يؤوبَ القارِِطانِ

فلا العهد التَّديميُّ له بياق
ولا التَّذكُّرُ الحميدُ لنا بفانٍ

إذا مارا عنا الحَدَثانُ شِدْنَا
على أنقاضه صرَحَ الأمانِ

عسى « بغداد » تُدرك كيف أضحت
مجالاً للمراثي والتَّهاني

وربَّ ما تَمَّ قامت ، فكانت
قيامتها مواسِمَ مِهْرَجانِ

هل « الزَّوراء » تعلَّمُ ماعراها
غداةَ دنا النَّفِيرُ وما عراني ؟

أبوح بما أكنَّ وكنتُ دهرأ
أحاذر أن أبوح بما أعاني

أصون لها المصوَّنة من ودادي
ولم أطلع على سرِّ جناني

أباعد من يباعد ۝ غير أنِّي
أداني في هواها من يُداني

إذا ما قيل : « بغداد » كَوَّاهَا
بلا عِجْهِ الحنينُ ، فبقد كواني

أشاطرها الحنينَ ولا أبالي
أأسعدني المُداجي أمْ لَحاني

ومن شاء الوقوف على اعتقادي
فديني أولٌ و « الكرخ » ثاني
أحبُّ « الكرخ » أسمع أو أراه
وليت « الكرخ » يسمع أو يراني
وأهوى في « الرصافة » ما جنته
وما أهوى سوى غُرَرِ المجاني
إلى « العرب » الكرام بكّل أرضٍ
أمدُّ يدي ، وأطلق من لساني
وما أرض « العراق » لمن جناها
وأرض الشام إلا جنتانِ
هما الأختان والعليا مجال
إذا ما قيل فيها ضرّتانِ
ولتّهما ، متى لقيحت بطون
وأنتجت المعالي ، توأمانِ
إن اختلفا فقبلهما رأينا
تألف في السماء الفرقدانِ
أو اختلفا فلتّهما يبدانِ
على نظر الحقيقة تعملانِ
جميعُ العرب إخوان ، فهذا
لهذا في العلى أقوى ضمّانِ
فلا هناك نجدي ، ولا ذا
حجازي ، ولا هذا يماني
لعلّ الله يُدنينا جميعاً
ويجمّعنا السُرور على خِوانِ

وَيَرْجِعُ مِثْلَمَا كُنَّا وَكَانَتْ
 حَوَاسِدُنَا الْأَقَاصَى وَالْأَدَانِي
 مَنَى كُنَّا جَمِيعاً فِي بِنَاءٍ
 بَلَّغْنَا الشَّائِخَاتِ مِنَ الْمَبَانِي
 أ « بَغْدَادُ » ! ابْشِرِي وَثِيقِي بِأَنِّي
 بِحُبِّكَ سَالِكٌ سُبُلَ التَّفَانِي
 وَلَوْ أُعْطِيتَ مُلْكُ الْأَرْضِ طُرّاً
 بغير هَوَاكِ ، عِشِي مَا هَنَانِي !



الحنين الى بغداد :

من قصيدة في « صيداء » للأستاذ للشيخ محمد رضا الشيباني :
 وفي أرض « بغداد » هواءٌ هو المُنَى ،
 وعيشٌ هو السَّلْوَى ، وماءٌ هو الخَمْرُ
 أنسى زمان « الكرخ » والكرخُ مُعْرِسٌ
 وتذهب عن ذكرى « الرُّصَافَةُ » والجَسْرُ
 وأزعجني من بلدتي مزعج القَطَا
 فهل أنتِ يا صيداء لا بلدي وكرُ
 نعم لم يزل يعتاد قلبي اضطرابه
 كما اضطربت ضِمَنَ الشَّبَاكِ القَطَا الكُدْرُ
 لقد أطلقت « صيداء » طائرَ أبِكَمَة
 ب « بغداد » أعياء وأرهقه الأَسْرُ
 غريباً من الأطييار فيها توافرت
 خَوَافِيهِ واشتدَّتْ قَوَادِمُهُ العَشْرُ
 هوى البحثِ أَقْصَانِي وما لي جانب
 أبى الله عن زَوْرَاءِ دَجَلَة ■ مُزَوَّرُ

متى خنتُ « بغداداً » وبغداد بلدةُ
إذا رمت عنها الصبرَ خانني الصَّبْرُ



الهيام بين العراق والشام :

وله أيضاً :

« ببغداد » أشتاقُ الشَّامَ ، وها أنا
إلى الكرخ من « بغداد » جَمُّ التَّشَوُّقِ
فما أنا في أرضٍ « الشَّامِ » بِمُشْتَمٍ
ولا أنا في أرض « العراق » بِمُعْرِقِ
هُمَا وَطِنٍ « فَرْدٍ » ، وقد فرَّقوهما
« رمى الله بالتشتيت شملَ المفرِّقِ »
إذا قُمْتَ نُصِبَ القلبُ ياعهدَ « تَدْمُرٍ »
ذكرت ادِّكارَ الطَّيفِ عهدَ « الحَوَرَنَقِ »
أرى اليوم ماءً في « الفُراتين » آسناً
متى عَبَّ منه عاطشُ النَّفْسِ يَشْرِقِ
سيحدو غواصي الدمع بالدمع حُفلاً
سنا بارقٍ من « بابلٍ » متأثِّقِ
رهنتك ، يا « بغداد » ، قلبي . ومن تكن
رهينتهُ قلباً بِـ « بغداد » يَقلِّقِ
علا الشَّيْبُ آمالي ولم يَعْلُ عارِضِي
وبَيَضَ قلبي قبل تبييضِ مَفْرِقِي



شكوى وسياسة :

وقال الأستاذ الرصافي في قصيدته « بعد التروح » ، وكان قد برح بغداد سنة
١٩٢٢ على أن لا يعود إليها رأى من مضايقة البلاط والملتفين حوله :

هِيَ الْوَاطِنُ أَذْنِيهَا وَتُقْصِيَنِي
 مِثْلُ الْحَوَاثِ أَبْلُوهَا وَتَبْلُونِي
 قَدْ طَالَ شَكْوَايَ مِنْ دَهْرٍ أَكَابَهُ
 أَمَّا أَصَادِفُ حُرًّا فِيهِ يُشْكِينِي
 كَأَنِّي فِي بِلَادِي لِمَنْ نَزَلْتُ بِهَا
 نَزَلْتُ مِنْهَا بَيْتٍ غَيْرِ مَسْكُونٍ
 حَتَّى مَتَى أَنَا فِي الْبُلْدَانِ مَغْتَرِبٌ
 نَوَائِبُ الدَّهْرِ بِالْأَنْيَابِ تُدْمِينِي ؟
 فِتَارَةٌ فِي الْمَوَامِي فَسُوقَ مُوقَرَةٍ
 وَتَارَةٌ فِي الطَّوَامِي فَوْقَ مَشْحُونٍ (١)
 كَمْ أَغْرَقْتَنِي اللَّيَالِي فِي مَصَائِبِهَا
 فَعُمْتُ فِيهِنَّ مِنْ صَبْرِي بِدُلْفِينٍ (٢)
 أَنَا ابْنُ « دَجَلَةَ » مَعْرُوفٌ بِهَا أَدَبِي
 وَإِنْ يَكُ الْمَاءُ مِنْهَا لَيْسَ يُرْوِيَنِي
 قَدْ كُنْتُ بُلْبُلَهَا الْغَرِيدَ أَنْشِدُهَا
 أَشْجَى الْأَنَاشِيدِ فِي أَشْجَى التَّلَاحِينِ
 وَمِنْهَا :

وَيْلٌ لِبَغْدَادٍ مِمَّا سَوْفَ تَذْكُرُهُ
 عَنِّي وَعَنْهَا اللَّيَالِي فِي الدَّوَاوِينِ
 لَقَدْ سَقَيْتَ بِفَيْضِ الدَّمْعِ أَرْبُعَهَا
 عَلَى جَوَانِبِ وَادٍ لَيْسَ يَسْقِينِي

(١) الموامي : الصحاري المقفرة ، مفردها مَوَامَاة . الطوامي : جمع طامر ، وهو البحر .

(٢) الدلفين : حيوان بحري ، أراد به السفينة التي على شكل ذلك الحيوان .
 وأول سفينة صنعت على صورة الدلفين كانت على عهد محمد الأمين العباسي .

ومنها :

ما كنت أحسبُ بغداداً تُحِلِّدُنِي
عن ماء دجلتها يوماً وتظميني ^(١)
حتى تَقْلَدَ فيها الأُمَرَ زِعْنِفَةً
من الأناس بأخلاق السَّراحِينِ
ما ضَرَّتْني غيرَ أنِّي اليومَ من عَرَبٍ
لا يغضبون لأمرٍ ليس يُرضيني
تالله ! ما ضاع حقِّي هكذا أبداً
لو كنت من عَجَمِ صُهْبِ العَثَانِينِ
علامَ أمْكُثُ في « بغداد » مضطرباً
على الضَّرَاعةِ في بُحْبُوحَةِ الهوْنِ ؟

ابن لبغداد :

للأستاذ جميل صدقي الزهاوي . وقد أقام له المجمع العلمي العربي
بدمشق حفل استقبال سنة ١٩٢٤ م حين هاجر الى مصر وقد مرَّ بدمشق «
فألقي فيه قصيدته السنوية ، ومنها :
ظننتُ بأنَّ الشعرَ يُغْنِي ، فما أغنى
وكم شاعري في موقفٍ أخطأ الظنَّ
ولست أبالي بعد ستينَ حِجَّةً
أأبكي الزَّمانَ العينَ أم أضحك السِّتَا ؟
ولكنني أُلْفيتُ أنَّ احتمالَه
يشقُّ على من يشتكي مِثْلِي الوَهْنا
يريدون مِنِّي أن أغنيَ باسمهم
وأَيُّ هَضِيمٍ باسم أعدائه غَنَى ؟

(١) تحلطني : تمنعني الماء والشرب .

على أن في « بغداد » لي من شبابها
 اذا ضقت، أنصاراً، ومن حولهم حصناً
 وهل أنا إلا ابن لبغداد نازح
 اذا ذكروا « بغداد » يوماً له حنا
 نهبت فيجاج الأرض في ليلة دجت
 بسيارة تطوي البعيد ولا تضي
 الى أن بدا صبح يشق بضوئه
 قد يراً لإهاب الليل من بعد ما جئنا
 سأنتني على قوم رعوني بفضلهم
 ومن نال ما قد نلت من حظوة أثني



وفي مصر قال قصيدته الرائية ، ومنها :
 وصبري على ضيمي ببغداد حقيبة
 فما سرت إلا بعد أن نفد الصبر
 وفي الأرض للرواد مرعى ومورد
 وفي الأرض منأى عن مكان به الضر^(١)



بغداد في العصر الذهبي :
 للأديب سعد صالح^(١) نشرتها « مجلة اللسان » في الجزء الخامس
 قالها (سنة ١٣٣٨ هـ ١٩٢٠ م) :

(١) نظر الى قول الشنفرى :
 وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل

(١) سعد صالح ، وكان يوقع « سعد جريو » ، ينتمي الى أسرة آل جريو
 اللوية النجفية . درس في النجف والتحق بدار المعلمين سنة ١٩١٩ م
 وتخرج فيها معنا . ثم دخل كلية الحقوق ، وتقلب في الوظائف ، ثم
 أصبح نائبا ، واستوزر في وزارة توفيق السويدي ، ثم رأس حزب
 الأحرار ، وابتلي بمرض احتراق العضلات ، وتوفي في شباط سنة ١٩٣٧ .

رفعت منار العلم في الشرق كتله
 وأعليت من شأن الحضارة ما انحط
 وما اختطك « المنصور » للناس بلدة
 ولكنّه للعلم داراً قد اختطاً
 أعاصمة العلم التي نهجت له
 مناهج رُشدٍ كم هدى للعلی رهطاً
 مدارسك اللائي غدوّن دوارساً
 أنرن دياجي الجهل في العصر الوسطي
 وأبرزك « العصر الرشدي » عادة
 يزيد حيلها من مدارس سيمطاً
 فصير أرض « الشام » طوقاً لجيدها
 وأضحت لها « زهراء قرطبة » قرطاً
 وأعطاك « يا بغداد » ، « مِصر » قِلادة
 و« مِصر » اذا جاز العطا خير ما يُعطى
 وأنت « التي » طاولت كيوان في العلى
 وقد فُتته شأواً وشاطرته شوطاً
 ولا بدع أن صيرته لك موطاً
 فمزلتك الأعلى ومنزله الأوطأ
 وكنيت تلاقين الزمان ورينبه
 مغالبة أبدي رِضاً لك أم سخطاً؟
 وكنيت محطّ العلم أصبح خالياً
 ومنزلتك السامي غدا اليوم منحطاً
 صحائف مجدٍ فيك خُطّت ببيضنا
 فكيف غدوت اليوم تمحين ما خُطّت

تَوَادِ بَنُورَ الْعِلْمِ فِيكَ مَنِيرَةً
فَكَمْ قَدْ هَدَّتْ شَعْباً ! وَكَمْ هَذَّبَتْ رَهْطاً !
وَكَمْ لَكَ فِي « الْمُسْتَنْصِرِيَّةِ » مِنْ يَدٍ
عَلَى الْعِلْمِ زَادَتْ فِي مَبَاحِثِهِ بَسْطاً
أَمْدَرَسَةَ الْعِلْمِ إِسْتَهَانَ بِكَ الْبَلَى
فَسَامَ الْبَيْتَ الْخَسِيفَ ، وَأَوْسَعَهُ ضَعْفًا
وَقَدْ شَابَ فَوْدُ الشَّرْقِ بَعْدَ شَبَابِهِ
فَأَخْرَجَكَ الدَّهْرُ الْخَوْنُ بِهِ وَخَطَا
حَنَانِيكَ ! إِنَّ الشَّرْقَ مِنْ بَعْدِ عِزَّةٍ
تَحَكَّمَ فِي أَبْنَائِهِ الدُّلُّ وَاشْتَطَا
فَأَصْبَحَ إِنْ رَامَ النُّهُوضَ إِلَى الْعُلَى
تَعَثَّرَ ، أَوَّلَ الْمَكْرَمَاتِ مُخْطَاً أَخْطَا
نَشَدْتُكَ : هَلْ لِلْعِلْمِ فِي الشَّرْقِ رَجْعَةٌ
فَتُحْيِي لَنَا آثَارَ أَعْصَرْنَا الْوُسْطَى ؟
وَبِاللَّهِ قُلْ ، يَا شَطَطَ « دِجْلَةَ » ، هَلْ لَنَا
مِنْ الْمَجْدِ مَا أَقْوَى يَعُودُ وَمَا شَطَطاً ^(١) ؟
وَأَنْتَ أَجِيبْ يَا مَنبِعَ النَّيْلِ : هَلْ تَرَى
تَعِيدُ بظَامِي قُطْرِنَا ذَلِكَ الشَّطَطَا ؟
وَلِمَنْ أَنْسَ لَا أَنْسَى شَوَاطِئَكَ الَّتِي
عَلَيْهَا أَكْفُ الزَّهْرِ قَدْ نَسَجْتَ مِرْطَا
وَتَرْسُمُ شَهَبَ النَّجْمِ فَوْقَ سَطُوحِهَا
سَطُوراً فَتُهْدِي مَنْ لَا إِلَهَ سِمْطَا
نَشَدْتُكَ مَا أَبْلَى الرِّيَاضَ وَزَهْرَهَا ؟
وَكَيْفَ غِبَارَ الْحَزَنِ بِهَجَّتْهَا غُطَّتِي ؟

(١) الشط : جانب النهر ، وليس النهر . - شَطَطٌ : بَصْدٌ .

فهل غَضُّ ذاك الزَّهَرِ حالَ الى غَضاً
تَضَرَّمْ ، والماء استحال له نِفْطاً ؟
وصوتك قد أبكى « الجزيرة » لوعةً ،
وأعدمها خِصْباً ، وأورثها قَحْطاً
وسهم الرَّدَى لم يَفْرِ قلبك وحدهُ ،
ولكن فرى قلب « العراق » وما أخطأ



احلام الحضر :

للشيخ علي الشرقي ، نظمها عام ١٩٣٣ م :
تجاذبت دجلة ■ من حِضْنِ الشجرِ
رواضعُ تروعُ عِيناً وأثرُ
تجري وقد رَفَّ النَّبَاتُ فوقَها
وفوقَه الأغصانُ فوقَها الثَّمَرُ
ومنها :

أطيبُ أوقات الليالي سَحَـرُ
والليلُ في « بغداد » كلُّهُ سُحَرُ
كواكب غَرْقِي بأُفُقٍ مُتَرَعٍ
من بهجةٍ فاضت عليه فانفجرُ
وسائر الألفاف قد تسامرت

ليلاً ببغداد ■ فما أحلى السَّمَرُ !
تَنَفَّسَ القَدَاحُ صباحاً مخبِراً
عن ليلةٍ ، فاشمُمُ روائح الخَبَرِ
و« دجلة » قابَلَهَا بدُرُ السَّما
في ليلةٍ كُلُّ نواحيها غُرُرُ

طاحَ عمود النّور فوقَ صرّحها
 فصيّرتُه بارتجاجها كِيسِرُ
 زفت عروس النّهر جسراً ساخراً
 بالشّاطين في غرور وبَطَرُ
 كافٍ وتختال العذارى فوقه
 في الليلة القمرء واليوم الأغرّ



بغداد :

قال الشاعر الكبير « أحمد شوقي » من قصيدته (نهج البرودة) يمدح
 بها النّبِيَّ ، صَلَّى الله عليه وسلّم ، ويصف بغداد :

دَعُ عَنْكَ « رُوما » و « آثينا » وما حَوّنا
 كُلُّ اليواقيت في « بغداد » والثُّؤُمُ
 دارُ الشرائع « روما » كلّما ذُكِرَتْ
 « دارُ السّلام » لها أَلَقَتْ يدَ السّلمِ
 ماضارَعَتَها بيانا عندَ ملتأمِ
 ولا حَكَّتْها قضاء عندَ مختَصَمِ
 ولا احتوت في طِرازٍ من قِياصِها
 على « رشيدٍ » و « مأمون » و « معنصمِ »
 من الذين إذا سارت كتائبُهم
 نصرّفوا بحدودِ الأرضِ والتّخُمِ
 ويَجْلِسُونَ الى علمٍ ومعرفةٍ
 فلا يُدَانُّوك في عقلٍ ولا فِهمِ
 يطأطِئُ العلماءُ الهامَ إنْ نَبَسُوا
 من هيبة العلمِ لا من هيبة الحكمِ

وَيُمْطَرُونَ فَمَا بِالْأَرْضِ مِنْ مَحَلٍ
وَلَا بِمَنْ بَاتَ فَوْقَ الْأَرْضِ مِنْ عَدَمٍ



ولحافظ إبراهيم :

جَبَيْنَا الشُّحْبَ فِي عَهْدِ «الرَّشِيدِ»
وَبَاتَ النَّاسُ فِي عَيْشٍ رَغِيدٍ
وَطَوَّقَتِ الْعَوَارِفُ كُلَّ جَيْدٍ
وَكَانَ شِعَارُنَا رِفْقاً وَلِيناً
سَلُّوا «بَغْدَادَ» وَالْإِسْلَامُ دِينُ
أَكَانَ لَهَا عَلَى الدُّنْيَا قَرِينُ ؟
رَجَالٌ لِلْحَوَادِثِ لَاتِلِينَ
وَعِلْمٌ أَبَدَ الْفَتْحِ الْمُبِينَا
فَلَسْنَا مِنْهُمْ وَالشَّرْقُ عَانِي
إِذَا لَمْ تَكْفِهِ عَنَّتِ الزَّمَانِ
وَتَرَفَّعْنَاهُ إِلَى أَعْلَى مَكَانٍ
كَمَا رَفَعُوهُ أَوْ نَلْقَى الْمَنُونَا



بغداد :

أنشدتها الشاعر المصري الأستاذ علي الجارم في حفل افتتاح المؤتمر
الطبيعي العراقي ببغداد في ٩ شباط ١٩٣٨ م :
بغدادُ يا بلدَ الرَّشِيدِ
ومنارةَ المجدِ التَّليدِ
يا بسمَةَ لما تَبَزَلْ
زهراءُ في ثغر الخلدودِ

يا موطنَ الحُبِّ المقيدِ
 هم ومضربَ المَثَلِ الشَّرُودِ
 يا سطرَ مجدٍ للعُروِ
 بةِ خُطِّ في لوحِ الوجودِ
 يا رايةَ الإسلامِ والـ
 إسلامُ خُفَّاقِ اليُنُودِ
 يا مغربَ الأملِ القديدِ
 هم ومشرقَ الأملِ الجديدِ
 يا بنتَ دجلةَ قد ظمئتِ
 من لُرشفِ مِيسمِكِ البَرُودِ
 يا زهرةَ الصحراءِ رُدِ
 ي بهجةَ الدُّنيا وزِيدي
 يا جَنَّةَ الأحلامِ طـ
 لَ بقومنا عهدُ الرُّقُودِ
 يا بُهْرَةَ المُلْكِ الفسيـ
 حِ ، وصخرةَ المُلْكِ الوطيدِ
 يا زورةَ تحيي المُنَى
 إن كنتِ صادقَةً فعُودي
 بغدادُ يا دارَ النهى
 والفنِّ يا بيتَ القصيدِ
 تَبَّتْ القريض على ضيفا
 فيك بينَ أفنانِ الورودِ

سرقَ التَّدْلِيلَ مَنْ «عَنَا
 ن» وَالتَّفَنُّنَ مَنْ «وَحِيدٍ»^(١)
 يَشْدُو كَأَنَّ لَهَا تَهْهُ
 شُدَّتْ عَلَى أَوْتَارِ عَمُودِ
 بَغْدَادُ ، أَيْنَ الْبُحْتُرِيِّ ؟
 وَأَيْنَ أَيْنَ ابْنُ الْوَلِيدِ^(٢) ؟
 وَمَجَالِسُ الشُّعْرَاءِ فِي
 بَيْتِ ابْنِ يَحْيَى وَالرَّشِيدِ^(٣) ؟
 أَيْنَ الْقِيَانُ الضَّاحِكَا
 تِ يَمِينُ فِي وَشْيِ الْبُرُودِ
 السَّاحِرَاتُ الْفَاتِنَا
 تِ النُّجْلُ مِنْ هَيْفٍ وَغَيْدِ
 السَّاهِرَاتِ مَعَ النُّجُوجِ
 مِ الْأَنْفَاتِ مِنَ الْمَسْجُودِ
 مَنْ كَلَّ بِيضَاءَ الطَّلَى
 مَهْضُومَةُ الْكَشْحِينَ رُودِ^(٤)
 يَخْطِرْنَ حَتَّى تَعْجِبَ الْـ

-
- (١) عنان : جارية الناطقي . كانت مغنية رائعة الحسن فاتنة الدلال والتصرف والتنويع في فنون الغناء . (ووحيد) اسم مغنية اشتهرت في العصر العباسي ، ولابن الرومي قصيدة في وصفها تقدم ذكرها في باب مغاني بغداد .
- (٢) ابن الوليد : هو مسلم بن الوليد الملقب بصريع الفواني . كان من الشعراء الفحول في عصر الرشيد .
- (٣) ابن يحيى : هو الفضل بن خالد بن برمك ، وكان هو وأخوه جعفر من وزراء الرشيد .
- (٤) الطلى : الاعتناق أو أصولها ، واحداً طلية أو طلاة . ومهضومة : ضامرة . والكشح ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف ، ومعناه هيفاء ضامرة البطن .

أَغْصَانُ مِنْ لَيْنِ الْقُدُودِ
وَإِذَا سَفَرْنَ فَأَيْنَ ضَمَوِ
أَشْمَسُ مِنَ شَفَقِ الْخُدُودِ
يَعْبَثْنَ بِالْأَيَّامِ ، وَالـ
أَيَّامُ أُعْبِثُ مِنْ وَلِيِّدِ
خَبَأَ الْجَمَالُ لَهْنًا كَسَنَدِ
زَأً بَيْنَ سَالِفَةِ وَجِيدِ
كَمْ جَاشَ جَيْشُكَ بِالْفُوقِ
رَسٍ مِنْ أَسَاوِرَةٍ وَصِيدِ (٥)
لِلنَّصْرِ فِي أَعْلَامِهِمْ
صِلَةٌ بِأَبْنَاءِ الْغُمُودِ
مُلْكٌ ، إِذَا صَوَّرْتُهُ
عَجَزَ الْخِيَالُ عَنِ الصُّعُودِ
وَجُهُودِ جَبَّارِينَ تَصْ
غُرُ دُونَهَا شُمُ الْجُهُودِ
الرُّسُلُ تَتَلَوُ الرُّسُلَ مِنْ
بَيْضِ صَقَالِبَةٍ وَسُودِ
سَارِوَالِ « قَصْرُ الْخُلْدِ » يُغْ
شِي طَرَفَهُمْ وَهَجُّ الْحَدِيدِ
يَتَعَثَّرُونَ ، كَأَنَّهُمْ
يَمْشُونَ فِي حَلَقِ الْقِيُودِ
الْحَوِثُ يَسْتَطْعُ بِالظَّبَا
وَالْأَرْضُ تُزْخَرُ بِالْجُنُودِ

(٥) جاش جيشك : ماج واضطرب لكثيرته ، والفوارس : جمع فارس
والاساورة : جمع أسوار بضم الهمزة وكسرهما ، وهو القائد الجيد الرمي
بالسهام . والصيد : جمع اصيد وهو الشريف .

حتّى إذا رجَعُوا ، بهذا
 بجباهاهم أثارُ السُّجودِ
 الفلسفاتُ عَرَفَتْهَا
 والعِلْمُ طِفْلٌ في المهودِ
 والغرب ينظُرُ في خمودِ
 دِ نحوَ قاتلةِ الخمودِ
 كم مؤثِّلٍ للمستجيبِ
 ر ، ومنهَلٍ للمستفيدِ
 والجاحظُ المَرِحُ اللَّعُودِ
 بُ يَغُوصُ للدُّرِّ الفريدِ
 بغدادُ ، يا وطنَ الأدبِ
 بِ وأيكةَ الشَّعرِ الغريدِ
 جدّتِ أحلامِي وكنـ
 تٌ صُحُوتٌ من عهدِ عهدِ
 جَمَحَ الخَيَالُ ، فما أطمـ
 أنَ ولا استقرَّ إلى خُلُودِ
 جازَ القرونَ النَّائِبِـ
 تِ ، وفكَّ أسرارَ العُقودِ
 ذَكَرَ العهودَ ، فأَنَّ للبدنِ
 كَثُرَ ، وحنَّ إلى العهودِ
 واهتاجه الطَّيفِ البعيدِ
 دُ ، فجُنَّ للطَّيفِ البعيدِ

وصبا الى ظلّ (العُرو
 بة) في حمى الملك العنيد
 يا أمة (العرب) اركُضي
 مِلاء العِنان ولا تهيدي^(١)
 سُودي ، فأمالُ المنى
 والعبقرية أن تسُودي
 هذا أوانُ العَدوِّ ، لا الدُّ
 لإبطاء والمشى الوثيد^(٢)
 المجدُّ أن تنوثبني
 واذا وثبت فلا تحيدي^(٣)
 وتحلّقي فوق النجُو
 م بلا شيه أو نديد
 واذا شدا الكونُ المفسا
 خير كنتِ عنوان النشيد
 لا تُخطئي حدَّ العلّى
 ما للمعتالي من حدود
 من يصطد النّمر الوثُو
 ب يَعِف عن صيد القُرود
 هذى طلائع نهضة
 ذهبت بأثار الرُّكُود
 بغدادُ ، أشرق نجمها
 وبدا بها سعد السُّعود

(١) لا تهيدي : لا تخافي ولا تبالي .

(٢) الوثية : التآني والسير البطيء والاهمال .

(٣) لا تحيدي : لا تميلي عن الصراط المستقيم .

سلكتُ الى المجد القسدي
 ثم مَحَجَّةَ النَّهْجِ السَّيِّدِ
 وزهت بأقمار الهدى
 وسطت بأظفار الأسودِ
 بغدادُ ! إِنَّا وَقَدُ (مصـ
 رَ) نفيض بالشَّوقِ الأكيدِ
 جئنا نُحيِّي العِلمَ والـ
 آدابَ في العددِ العديديـ
 مرآةَ عِيدِ الْمُنَى
 فُزْنَا بِهِ فِي يَوْمِ عِيدِ (١)
 أهْلوكِ أهْلونا وأبـ
 ناءُ العشيرةِ والجسدودِ
 بين القلوبِ تَشَوُّقُ
 كَتَشَوُّقِ الصَّبِّ العَمِيدِ
 حتَّى يكادُ يُحِبُّ نَحْـ
 لُكِ نَحْلَ أَهْلِي فِي « رَشِيدِ »
 شطَّتْ مَنَازِلُنَا وَمَا أَحـ
 تَاجُ الْفُؤَادِ إِلَى بَرِيدِ
 الرَّافِدَانِ ، تَمَازِجَا
 فِي الْحَبِّ بِالنَّيْلِ السَّعِيدِ
 وَتَعَانِقِ الظِّلَانِ : ظِلُّ
 الطَّاقِ وَالْهَرَمِ الْمَشِيدِ

(١) تاسع شباط ١٩٣٨ صادف يوم عَرَفةَ (وقفة عيد الاضحى من ذي الحجة
 سنة ١٣٥٦ هـ) .

طالت بنا الصَّحراء حتّى
 سى خيلَتْها أبَدَ الأَبِيدِ
 يستخلص المرمى المدي
 مدُّ بنا الى مرمى مَدِيدِ



بغداد تاج الحقب الخوالي :

أمّت « العراق » من مصر ، في سنة ١٩٣١ م ، بعثة من « الجامعة
 المصرية » . ضمت الأستاذ أحمد أمين رئيساً ، والأساتذة الدكتور عبد
 الرزاق السنهوري ، والدكتور عبد الحميد العبادي ، والدكتور عبد الوهاب
 عزام ، والدكتور شفيق غربال ، وأربعة عشر طالباً من طلاب الجامعة .
 وقد كان ذلك بتشجيع من الأستاذ ساطع الحصري ، واحتفل البغاديون
 بهم في الحفلات التي أقيمت لهم روح الأخوة ، وتعالّت فيها مفاهيم
 القومية ، وعرف الأساتذة الضيوف الكرام أبعاد الدعوة الى القومية
 والوحدة العربية لأول مرة . فكان لذلك أثر بليغ في تعميق الوعي القومي
 وصدى بعيد في التوجيه التربوي الجامعي ، وتجسد هذا الأمر في هذه الموشحة
 للدكتور عبد الوهاب عزام ، وقد أنشدتها في احتفال السيد تحسين
 قدرتي كاتب سر الملك فيصل الأول بهذه البعثة الكريمة . قال :

« بغدادُ » تاجُ الحُقبِ الخوالي
 ودُرّةُ المستقبلِ المكنونِ
 « دارُ السَّلامِ » ! لاعداكِ المسجدُ
 وارفَةٌ ظلالُهُ تمتدُّ
 ولاحداً نجمك الا السَّعدُ
 موصولةَ الآجالِ بالأَجالِ
 لابسةٌ مُجدّدِ القرونِ

فكم ليستِ عُمُرَ الدُّهُورِ
مليكة الأقطار والعصورِ
وموئل الصُّعلوك والأميرِ
والدينِ والعلومِ والمُجُنونِ
ورُبَّ يومٍ باسمِ الصَّبَّاحِ
بينَ المياهِ والرياضِ ضاحِ
وهبَّتِه لشاعر صداحِ
منظَّم في مدحك اللَّآلِي
مطرَبٍ في شعره مبینِ
ورُبَّ يومٍ بالوغى مشهودِ
بعثتِ فيه شُهْبَ الجنودِ
ترعاهُمُ خفاقةُ البُنُودِ
يُدَّالُّونَ نائرَ الأهوالِ
ويأسِرُونَ الأُسْدَ في العرينِ
ورُبَّ يومٍ ملؤه الوفودُ
يلوح في غُمرَتِه «الرَّشيدُ»
حكماً بيدى أو يعيدُ
الظُّلُمُ فيه ضيقُ المجالِ
والعدلُ فيه مشرقُ الحبينِ
ورُبَّ يومٍ للنَّدَى جنودِ
يَفِيضُ فيه بالعطاء النَّدَى
وتُنَجِّزُ الآمالَ بالأصفادِ
يشهد فيه جَيِّدُ المقالِ
مذلة الألوْفِ والمُتَّسِنِ

وَرُبَّ دَارٍ مَوْرِدِ الْعِلْمِ
 يَتَوَمَّئُهَا الطُّلَّابُ وَرَدَ الْهِيمِ
 وَيُصْدِرُونَ حُفْلَ الْحُلُومِ
 زَلَالُهَا الْحَيَاةَ لِلْجِهَادِ
 مِنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ لَأَرْضِ الصَّيْنِ
 الرَّأْيُ فِيهَا مُحْكَمٌ وَثِيقٌ
 وَالْقَوْلُ فِيهَا مَرْسَلٌ طَلِيقٌ
 وَالْعَقْلُ لِلتَّيْدِينَ بِهَا شَقِيقٌ
 تَبَعَتْهُ فِي الْآفَاقِ بِالْأَقْوَالِ
 جَوَابَةُ السُّهُولِ وَالْحَزُونِ
 وَمَجْلِسُ الْبَاحِثِينَ حَافِلٌ
 يَقْرَعُ فِيهِ الْحِجَّةَ الْمُجَادِلُ
 تَجُولُ فِي حَلَبَتِهِ الْفُطَاحِلُ
 الْحَقُّ فِيهِ مُطْلَقُ الْعِقَالِ
 يَجُولُ حُرّاً فِي حِمَى « الْمَأْمُونِ »
 « أَبُو الْعَلَاءِ » أَزْمَعَ الرَّحِيلَا
 لِإِمْلِكِ فِيمَا يَنْقَعُ الْغَايِلَا
 فَصَادَفَ الْمَشْرَعَ سَلْسَبِيلَا
 وَسَارَ عَنْ مَغْنَنَّاكَ غَيْرَ سَالِ
 يَقْطَعُ الْأَوْقَاتَ بِالْحَنِينِ
 بِشَهْدٍ أَنَّ الْعِلْمَ فِيكَ جَارِ
 كَالْمَاءِ فِي « خَضَارَةِ الزَّخَارِ »
 وَكَالْحَصَى فِي سَاحَةِ الْجِمَارِ
 « أَبُو الْعَلَاءِ » كَانَ لَا يُغَالِي
 وَكَانَ لَا يَرْمِي عَنْ الشُّظُنُونِ

سارت على هامتك الخطوبُ
عانية صرصرها هبوبُ
شؤبؤها يتبعه شؤبُوبُ
حتى كستك حلك الليالي
تسلمك الشجون للشجون
فزلزلت صروحك السماء
وصوحت جنانك الغناء
وغمرت ضياءك الظلماء
من بعد ما قضت بك المعالي
أوطارها سبتاً من القرون
حتى دهاك الجحفل الحرارُ
يرعد فيه الموت والدمارُ
وحل في ساحتك التاتار
لشد ما رُميت بالأهوالِ
ياسنة الستة والخمسين
دجلة والفرات باطرادِ
ما غصّ منهما الزمان العادي
وفي بنيك السادة الأجداد
كل كريم قائل فعّالِ
يبغي العلاء غير مستكينِ
القلب من قريضه خلي
لهم في أرجائه دوي
ينفير منه الوزن والرويّ
« بغداد » في الآلام والآمالِ
أوحى لقلب جامد ضنينِ

أوحى « الزهراوي » لبي القوافي
من بعد عهد بالقريض عاف
وهاج من أشجاني « الرصافي »
فانجاب هم كان كالرمال
عن منهل مستعذب الميعين
أسرق فيه الشطر بعد الشطر
وأكره الفكرة بين السفير
« تالفوا » ، لست أدري
ماذا نظمته ولا أبالي
بسالم الأوزان والمخبون
آيات شعر ترجمت أشجاني
رديته وجوده سيان
وما نظمته لكي يزهاني
قول بدا مقطّع الأوصال
ألف في حب لكم مكين
يا « مبي » ! ما شطّ بي المزار
فلا تنني دان لكم وجار
أبوك لم تبعده به الديار
منعم في قوميه والآل
وضاحك الفؤاد والحبسين
يا قومنا أعود من « بغداد »
مقسماً بينكم فؤادي
ومبلغ سلامكم بلادي
تحية اليمين للشمال
ووصلة الشمال لليمين

أهل « العراق » ! شكرُنا الجزيلُ
 وحبُّنا المخلصُ لايحولُ
 كيما ينفي ثناؤنا الجميلُ
 مكارماً في الحيل والترحال
 كيما نفي بهتا على السنين ^(١) .



من جحيم الظلم في القاهرة
 الى سحر الوجد في بغداد :

للدكتور زكي مبارك رحمه الله ، ألقاها في « نادي القلم العراقي »
 سنة ١٩٣٨ م ^(٢) :

وقدتُ على « بغداد » والقلبُ موجعٌ
 فهل فرجتُ كربِي؟ وهل أبرأتُ دائِي؟
 عفا الحُبُّ عن « بغداد » كم عشتُ لاهياً
 أكائر أيامي بليلى وظمياء
 فكيف وقعتُ اليوم في أسر طفلة
 مكحلة بالسحر ملثوغة الرء
 أصاولُ عينيها بعيني ، وادوى
 يشيع الحمى في فؤادي وأعضائي

(١) جريدة السياسة ، ١٧/٢/١٩٣١ م .

(٢) [درس الدكتور زكي مبارك في دار المعلمين العالية (كلية التربية اليوم) .
 وكان نديه للتدريس في بغداد كتباً للأدب ، فقد كان عاملاً من عوامل
 النشاط الأدبي . كتب في الجرائد والمجلات ، وخطب وحاضر في
 المنتديات الأدبية ، وكان خير سفير للعراق من وادي النيل . ألّف « ملامح
 المجتمع العراقي » و « من وحي بغداد » و « ليلى المريضة في العراق »
 وهو أول كتاب في الغزل نثراً ، وملاً « الرسالة » وغيرها بمقالاته
 وقصائده ، وبعث في المتأدبين حركة ونشاطاً منقطع النظير] .

أَكَاثِمُ أَهْلِهَا هُيَامِي وَلَوْ دَرَوَا
 لَهَامَتَ بِجَنبِ الشَّطِّ أَرْوَاحُ أَصْدَائِي
 إِلَى الْحُبِّ أَشْكُو بَلْ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ
 أَفْوُضُ بِأَسَائِي لَدَيْهَا وَنَعْمَائِي
 أَحْبَابِي فِي «مَصْرِ الْجَدِيدَةِ» ! سَارِعُوا ،
 فَقَدْ صَرَعَنِي حَوْلَ «دِجْلَةِ» أَدَوَائِي
 أَدْجَلَةٌ ! مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ؟ أَفْصَحِي ،
 فَقَدْ طَالَ فِي مَغْنَاكَ تَبْرِيحُ إِضْنَائِي
 وَرَدَنكَ أَسْتَشْفِي ، فَثَارَتْ بِلِيَّتِي
 وَأَرْمُضَنِي حَزَنِي وَأَضْرَعَنِي دَائِي
 أَدْجَلَةٌ أَيْنَ الْحُبُّ ؟ قُولِي فَلِمَ نَنِي
 عَلَى الشَّطِّ أَسْتَهْدِي دِيَا جِيرَ ظَلْمَائِي
 أَدْجَلَةٌ وَاسِينِي قَلِيلَ ضَيْفِ حَقِّهِ
 إِذَا شِئْتَ مِنْ زَادٍ وَحُبِّ وَصْهِبَاءِ
 طَغَى مَوْجُكَ الصَّخَّابَ فَاهْتَاكِ لَوْعَتِي
 وَأَيْقِظْ أَشْجَانِي وَبَلْبِلْ أَهْوَائِي
 وَقِفْتَ أَبْتُ الْجَسَرَ مَا بِي ، فَلَمْ أَكُنْ
 سِوَى نَافِثٍ فِي أُذُنِ رَقِطَاءِ صَمَّاءِ
 وَقِفْتَ أَرْجِيهِ ، وَلَمْ أَدْرِ أَتَنِي
 أَسْطَرُّ أَحْلَامِي عَلَى ثِيَابِ الْمَاءِ
 إِلَى أَيْنَ هَذَا التَّيْبَرُ يَجِيرِي وَحَوْلَهُ
 حَرَائِقُ مِنْ أَرْضِ عَلَى الرَّيِّ جَدْبَاءِ
 تَحْدَرَتْ تَحْتَالًا فَلَمْ تُغْنِنِ أُمَّةً
 تَشْتَهَى لَطُولَ الْجَدْبِ أَوْ شَالَ أَنْهَاءُ ^(١)

(١) الإنهاء : جمع نهى ، بكسر النون ، وهو الفدير .

تَشْكِيّ (العراق) الجذبَ ، وارتعت أبتغي
نصبي ، فلم أظفر لديقٍ بإِرواءِ
أعندك يا صوب الغَوادي تحيةً
لناسٍ على شطّيك ذاوِينْ أنضياءِ
شكا الزَّهْرُ في شَطِّيك فاحجَلْ ونجتهِ
من الظَّمأ الباغِي ومن حِيَةِ الماءِ
أ(بغدادُ) هل تدرين أتي مودّعٌ
وأنَّ سموم البين تُلْفَح أحشائي
وردتك ملتاعاً أصارع في الهوى
دموع رفاقٍ وامقيين لِإِحْتِلاءِ
تنادوا الى (باب الحديد) فودّعوا
بقايا فؤادٍ وافر العطف وُضَاءِ
وردتك مطعوناً تشور جروحه
فكان بنوكِ الأكرمون أطبائي
لحبّك (يا بغداد) والحبُّ أهـوجُ
رأيت فنائي فيكٍ شوق أحبائي
تداسيت في (مصرَ الجديدة) صبيةً
هم الزَّهْرُ الظَّمآن في جوفِ بيدا
يناجون في الأحلام أطيافَ والدِ
لعهد بَنِيهِ والبنيات نَسَاءِ
أ(بغدادُ) هذا آخر العهد ، فاذكري
مدامعَ مَفْطُورٍ على الحبِّ بكاءِ
أ(بغدادُ) يُضْئِنِي فراقُكَ ، فاذكري
لدى ذمّةِ التَّأْرِخِ بيني ولِإِضْئائِي

خلعتِ على الدنيا جمالك ، فانشئتُ
 تخايلُ في طيبٍ وحسنٍ وآلاءِ
 سيدكُرنى قومٌ لديكُ عهدتهم
 يحبّون ظلامين ضُرّي وايدائي
 يستمسي خصومي بعد حين أحبةً
 يُذيعون مشكورين أطيب أنبائي
 ستذكر أرجاء الفراتين شاعراً
 تفجّر عن مكنونة الدّر عصماء
 سيّال قومٌ : من زكيّ مبارك؟
 وجسمي مدفون بصحراء جرداءِ
 فإن سألوا عني ، ففي (مصر) مرقدني
 وفوق ثرى بغداد تمرح أهوائي



يوم الجسر (١) :

للدكتورة عاتكة الخزرجيّة :

- (١) [الجسر هو « جسر الشهداء » الذي يربط الرصافة بالكرخ ، ويقع في نهاية « جسر المأمون » ، وينتهي بساحة الشهداء - ساحة السويدي - ، وعلى هذا الجسر سارت جموع الطلاب سنة ١٩٤٨ بمظاهرة صاحبة ينادون باسقاط « معاهدة بيفن - صالح جبر » ، وفتح أعوان الاستعمار النار على هؤلاء العزل الا من رايات الاحتجاج ومن أصواتهم التي هزت المشاعر ، فسقط على الجسر عدد من الشهداء والشهيدات . وفي هذا الحادث الفاجع نظمت الشاعرة الدكتورة عاتكة الخزرجيّة أحاسيسها الملتبة متفاعلة مع تلك المشاهد الوطنية التي شملت الجماهير الساخطة . وعلى أثر هذه الاحتجاجات وما أعقبها من تأزم اضطر الوصيّ على العرش مكرّها لا بطلا أن يقيل وزارة صالح جبر هذه] .

ما بـ « العراق » ؟ أَصَفْوَةٌ أَمْجَادُ
 تُودِي بِهَا السُّفْهَاءُ وَالْأَوْغَادُ ؟
 مَا فَيْكَ ، يَا وَطَنِي ؟ أَشِرُّ ذِمَّةٍ طُغَتْ
 تَبَغْيِي السِّيَادَةَ فَيْكَ وَهِيَ تُسَادُ ؟
 مَاذَا ؟ أَيْرَجُو الْخَائِنُونَ وَلَاءَنَا
 وَخَضَوْعَنَا ؟ أَلْتَمَثَلُهُمْ نَشْقَادُ ؟
 أَنْحِبْ مَنْ بَاعَ الْبِلَادَ بِمَنْصَبٍ
 فِيهِ الصَّغَارُ وَفِيهِ الْاِسْتِعْبَادُ ؟
 أَنْحِبْ مَنْ ضَرَبَ الْبِلَادَ بِبَعْضِهَا
 فَإِذَا بِهَا سُعْلٌ « وَثَمَّ رَمَادُ ؟
 أَنْحِبْ مَنْ أَوْرَى الضَّغَائِنَ بَيْنَنَا
 فَإِذَا الْقُلُوبُ بَطِيئَتُهَا الْأَحْقَادُ ؟
 أَنْحِبْ جَلَاداً تَخَفَّتْ هَارِباً
 إِذْ هَالَهُ الْإِجْرَامُ وَالْإِفْسَادُ ^(١) ؟
 « بَغْدَادُ ! مَهْلًا » لَا تَرُعْكَ فَجْجِيعةٌ
 هِيَ مِنْ جِرَاحِكَ بَلَسَمٌ وَضِمَادُ
 قَدْ مَاءُ فِتْيَتِكَ الْبَرِيئةُ قَدْ مَحَتْ
 صَفَحَاتِ عَارٍ كُلُّهُنَّ سَوَادُ
 نَادَوْا بِحَقِّكَ فِي الْحَيَاةِ وَجَاهَدُوا
 وَكَذَا حَيَاةَ الْمُخْلِصِينَ جِهَادُ
 نَادَوْا بِحَقِّكَ فَاسْتَشَارَ نِدَاؤُهُمْ
 غَضِبَ الذُّنَابِيُّ الْخَائِنِينَ وَكَادُوا

(١) هرب نوري السعيد وصالح جبر من العراق اتقاء غضبة الشعب الذي كان يغلي غضباً على الرجلين اللذين سعيًا لعقد المعاهدة .

لم يَشْنِيهِمْ كَيْدٌ ، ولم يَعْثُ بِهِمْ
 غَدْرٌ ، ولم يُرْهِبْنَهُمُ الْإِيعَادُ
 وسروا الى سوح العلى أسداً ، على
 طَلَعَاتِهِمْ تَتَلَأَلُ الْأَمْجَسَادُ
 متظافرين على هواك ، وهل سوى
 هذا الهوى زادٌ لهم وَعَتَادُ ؟
 «بغداد» ! يَوْمُكَ فِي الْجِهَادِ مِلَاحِمُ
 غُرُرٌ بِهَا تَتَرَنَّمُ الْآبَادُ
 هِيَهَاتِ يَمْحُوهَا الزَّمَانُ مُوَاقِفًا
 ضَجَّتْ لَهَا فِي تُرْبِهَا الْأَجْدَادُ
 سَيُظَلُّ «يَوْمَ الْجَسْرِ» أَرْوَعٌ صَفْحَةٌ
 بِفَخَّارِهَا تَتَيَمَّنُّ الْأَحْفَادُ
 شَهِدَاؤُكَ الْأَبْرَارُ أَحْيَاءُ ، عَلَى
 قَسَمَاتِهِمْ نُورُ الْمَدَى الْوَقَادُ
 يَتَبَاشَرُونَ مُجَلَّجِلِينَ هَتَافَهُمْ :
 عَاشِ الْعِرَاقُ ، وَمَاتِ الْإِسْتِبْدَادُ !
 «بغداد» ! لَا تُذْزِرِي الدُّمُوعَ لَفْتِيَّةً
 ذَهَبَتْ وَطَابَ لِمَثَلِهَا اسْتِشْهَادُ
 وَدَمُ الشَّهَادَةِ إِنْ أَرِيقُ ، فَانْمَا
 بِهَدِيرٍ تَحْطُمُ الْأَصْفَادُ
 فَالْأُسْدُ تَأْبَى أَنْ تَعِيشَ وَأَنْ تَرَى
 بِعَرِينِهَا تَتَحَكَّمُ الْأَوْغَادُ
 وَإِذَا تَنُورُ عَلَى الطُّغَاةِ ، فَانْمَا
 بِزُبَيْرِهَا تَنْزَلُزَلُ الْأَطْوَادُ

بوركت ، يا « بغداد » من بَلَد ، به
تُفدَى النفوس ، وتُبْتَنَى الأُمُجَدُ
أَرْجَعْتَ عَهْدَ الغَابِرِينَ بِوَقْفَةٍ
شَمَاءَ فِيهَا تُبَدَّلُ الأَكْبَادُ
وَجَلُوتَ للأَجِيالِ غَضَبَةَ حَرَّةٍ
عَرِيَّةٍ ضِيَمَتْ فَكَانَ جِيلَادُ
وَكُتِبَتْ فِي سِفْرِ الزَّمَانِ قَصِيدَةٌ
صَخَّابَةٌ ، فِيهَا الدَّمَاءُ مِدَادُ
شُهَدَاءِنَا ! لا ، لَنْ تُطْلَلَ دِمَاؤُكُمْ
هَدْرًا ، فَإِنَّا فِي الثَّرَاتِ شِدَادُ
سَهْبٌ نَبْغِي الثَّارَ هَبَّةً ثَاكِلٍ
لَوْحِيدَهَا ، إِذْ نَالَهُ الأُنْكَمَادُ
فِي ذِمَّةِ التَّارِيخِ أَبْطَالٌ مَضَتْ
وَبِذِمَّةِ الْحَقِّ الْمُضِيْمِ جِيَهَادُ^(١)



ولها في بغداد ، وهي تُحْيِي وفداً جزائرياً جاء بغداد بعد اعلان
استقلال «الجزائر» :

قَسْماً بِالْإِلَهِ عَزَّ وَجَلَّ
إِنَّ قَلْبِي عَنْ حُبِّهَا مَا تَسْلَى
هِيَ مَنْتَى رُوحِي ، وَمَا أَنْصَفَ التَّعَفُّ
بِئْسَ ، لَا بَلَّ أَعَزُّ مِنْهَا وَأَعْلَى
هِيَ عِنْدِي دُنْيَا مِنَ الْحَسَنِ طَابَتْ
وَزَكَتْ نَبْتَةٌ وَفِرْعَاءٌ وَأَصْلَا
حَاشَ لِلَّهِ ! لَيْسَ حُبُّكَ يَلْقَى
غَيْرَ قَلْبِي لَهُ مَكَاناً وَأَهْلَا

(١) ديوان الشاعرة « أنفاس السحر » .

قسماً بالتذي براك من السُّحْر
 رَ وَمَنْ صَوَّرَ الْجَمَالَ فَأَعْلَى
 والذي نَوَّرَ الْجَبِينِ ، فكانتْ
 طلعةُ كالصَّبَاحِ يُمْنًا وَنُبْلًا
 أنا أهْوَكَ فوق ما عَرَفَ الحُبُّ
 كَأَنَا فِي الحُبِّ « قَيْسٌ وَلَيْلَى »
 لِيَتَنِي مِتْ فِي هَوَاكَ ، فَمَا أَكْ
 رَمَ فِي حُبِّكَ المَمَاتُ وَأَحْلَى !
 إِيَّاهُ « بَغْدَادُ » ! يَاعَرُوسَ اللَّيَالِي ،
 فُكِّتِ فِي العِزِّ بَدْرَهَا إِذْ تَجَلَّى
 وَبَدَنِيَا الْأَمْجَادِ كَانَ لَكَ السَّبُّ
 قُ تَبَاعاً وَالْقِدْحُ فِيهَا الْمُعَلَّى
 قِبْلَةً كُنْتَ لِلرُّورِيِّ وَمَحَجَّجًا
 وَمَطَافًا وَكَعْبَةً وَمُصَلَّى
 وَمَتَى ضَلَّ سَائِرٌ فِي خُطَاهُ
 كُنْتَ هَدْيًا لَهُ وَبَيْتًا وَأَهْلًا
 إِيَّاهُ « بَغْدَادُ » ! يَا سَمَاءَ المَعَالِي
 وَرَفِيفَ النَّدَى رَذَاذًا وَوَبْلًا
 حَاشَ لَكَ أَنْ أَرَى لَكَ ، يَا « بَغْدَادُ »
 مَا عَشْتُ فِي الحَوَاضِرِ ، مِثْلًا
 أَنْتَ لِلْعُرْبِ أَوْلَاً وَأَخِيرًا
 تَدْفِيَا مِنْ ظِلِّ نَخْلِكَ ظِلًّا
 وَعَلَى شَاطِئِكَ خُطَّتْ سَطُورُ
 هِيَ عِزٌّ عَلَى المَدَى لَيْسَ يَبْلَى

مُرْهَفٌ أَنْتِ فِي يَمِينِ الْمَعَالِي
يَبْهَرُ الْعَالَمِينَ حَدًّا وَصَقْلًا
وَوِسامٌ ۖ بِهِ الْعُرُوبَةُ بَاهَت
وَأَدْلَتْ بِحُسْنِهِ وَأَدْلًا
غُرَّةٌ أَنْتِ فِي جَبِينِ اللَّيَالِي
تَمْلَأُ الْمَشْرِقِينَ نُورًا وَثُبْلًا
وَكِتَابٌ بِهِ الْمَحَامِدُ تُتَكَلَّى
سُورًا مِنْ سِنَا الْمَكَارِمِ تُمْتَلَى
كَانَ لِلظَّالِمِينَ وَرِدَاً وَرِيًّا
وَمِنْ الْمُعْتَفِينَ خِصْبًا وَفَضْلًا
إِيَّاهُ «بَغْدَادُ» ! رَحِيْبِي بِوَفُودٍ
تَسْتَحْثُ الْخُطَا مِنَ الشَّوْقِ عَجَلًا
أَنْشُرِي الْوَرْدَ وَالرَّيَّاحِينَ فِي الدَّرِّ
بِ ، وَقُولِي لَقَيْتَ ، يَا وَفْدُ ، أَهْلًا
وَانْفَحِي الْجَوَّ بِالْبُخُورِ وَبِالطِّيبِ
بِ ، وَقُولِي : نَزَلَتْ ، يَا وَفْدُ ۖ سَهْلًا |
ثُمَّ صُفِّي النَّخِيلَ كَيْمَا تُحْيِي الدَّ
وَفْدٌ مِنْ حَيْثُ سَارَ أَوْ حَيْثُ حَلَا
وَمُرِّي «دَجْلَةَ» الْعَظِيمِ يَغْنِي
بِهَا فُصُولَ الْأَمْجَادِ فَصْلًا فَفَصْلًا
إِيَّاهُ «بَغْدَادُ» إِنَّ أَعْيَادَكَ الْغُرَّ
صَبَاحٌ بِهِنَّ حُسْنُكَ يُجَلَّى
يَتَلَلَا جِيْنُكَ الْأَزْهَرُ الْوُضْدَ
بَاءٌ فِيهَا صَبْحًا عَلَيْنَا مُطِيلًا

أيُّ عُرْسٍ هذا ؟ وأيُّ عروسٍ ؟
 أأرى « شهر زاد » ؟ بل أنت أحلى !
 من مَعِينِ الحِياةَ رُوِّيتِ صَفْوَاً
 وَسَقَيْتِ الفنونَ نَهْلاً وَعَمَلاً
 ففقتِ الأنامَ جِيلاً فجيلاً
 وشغلتِ الزَّمانَ بعضاً وكُلاً
 وسحرتِ التَّاريخَ حتى غدا في
 لكِ مُعَنَى لا يَرْتَجِي منكِ وصَلاً
 جرري الذَّيْلَ واخِطِري وأدلي
 وافتني النَّاظرين حُسناً ودَلاً
 واملئي العالمين سعداً ويُمناً
 وابشري ، فالعروبة اليوم جدّلى
 هذه أختنا ، الجزائر ، أضحت
 حُرّة حطمت من البَغْيِ كبَلاً
 وأراها تلوح في أفقنا بشـ
 رى بها تُطْرَدُ اليهود وتُجسَلِ
 وتعودُ الأرض الطَّهور طهوراً
 تزدهي بُقعةً ورَبْعاً وأهلاً !



بلد الهدى النشوان :

ولها أيضاً :

بلد الهوى النشوا

نِ في كأس من السحر الفريد

السَّحَرُ فِي هَمْسِ الْعِيُو

ن ، وَبَيْنَ سَالِفَةٍ وَجِيْدٍ

فِي ذَاتِ دَلٍّ كَالنَّسِيْبِ

بِمِ ، تَرْوَعُ بِالْحَطِّ وَالْوَيْدِ

أَوْ ذَاتِ حَسَنِ كَالضَّيِّبِ

يَنْبِثُ لِلْفَجْرِ الْوَلِيدِ

أَوْ ذَاتِ لِحْظٍ ، إِنْ تُصِيبُ

لَكَ ، فَلَا تَسَلْ : هَلْ مِنْ مُقَيِّدٍ ؟

السَّحَرُ فِي هَذَا الْجَمَلِ

ل ب (دَجَلَةٌ) الْعَاتِي الْعَتِيدِ

فِي النَّخْلِ هَيْمَانَ الظِّمَلِ

ل عَلَى الشَّوْاطِئِ وَالْحُدُودِ

فِي رَنْتَةِ الْأَذْكَارِ لِلْـ

طَيِّرِ الْمَسْبَحِ بِالْوُجُودِ

فِي اللَّهِ تَتْلُوهَا بِأَنْـ

غَمَامٍ عَلَى شَفَةِ الْخُلُودِ

السَّحَرُ فِي (بَغْدَاد) أَطـ

يَافُ مِنْ الْأَمْسِ الْبَعِيدِ

وَكَأَنْتَنِي أَلْقَى بِهِـ

بَعَثَ الشَّوَاعِرَ مِنْ جَدِيدِ

وَأَرَى (عَلَيَّةَ) تُنْشِدُ الـ

أَشْعَارَ فِي حَرَمِ (الرَّشِيدِ)

وَالشَّاعِرَ الْمَفْتُونِ (عَبَّـ

سَاساً) يَدْنِدُنُ بِالْقَصِيدِ

السَّحَرُ فِي (بَغْدَاد) أَلَسَ
هَوَانٌ مِنْ الْمَاضِي الْبَعِيدِ
صَبِغْتَ بِهَا الْأَجْوَاءَ مِنْ
حَوْلِي بِأَلْوَانِ الْخُلُودِ
فَتَلَوْنَ الْقُرْطَاسَ حَتَّى
سَى بَانَ فِي شَفَقِ الْخُلُودِ
وَزَكَ الْيَرَاعُ ، فَمَجَّ عَمْرُ
فَأَشَاعَ فِي رُوحِ الْوُجُودِ
فَلَمَحَتْ جَمْعُ الزَّاهِدِ
مِنْ عَمُوجِ بِالْعَدَدِ الْعَدِيدِ
فِي زَحْمَةٍ مِثْلِ الْحَجِييْ
حَجَّ ، وَقَدْ تَدَاعَى فِي الصَّعِيدِ
وَتَنَفَّسَ (الْكَرَّخِي) فِي
جَوْ مِنْ التَّقْوَى رَغِيدِ
وَتَحَفُّهُ زُمْرُ الْمَلَا
ثَكَ تَحْتَ شَارَاتِ الْمُرِيدِ
وَزَأَيْتَ لِلْمُجْتَانِ سَا
دَرَّةً عَلَى كَأْسٍ وَعُودِ
كَرَعْتَ مِنَ الشَّرْبِ الْحَرَا
مَ ، وَزَمَزَمْتَ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟
و (أَبَانُوسِ) إِثْرَ (بَشْ
تَار) يَعْرِبِدُ بِالنَّشِيدِ
فِي حَانَةِ بِالْآسِ تَعْمُ
بَبَقُ مِنْ قَدِيمٍ أَوْ جَدِيدِ

وتعُجّ بِالغِلْمَانِ وَالسَّـ
 سُدُومَانَ وَالصَّخَبَ الشَّامِدِ
 ضَلُّوا بِبَيْهَمَاءِ الضَّلَا
 ل ، وما رَعَوْا حُرْمَ الْوُجُودِ



بغداد يماؤني هواءك . :

ولها في التشويق الى بغداد ، وكانت منتدبة لخدمة العلم في (الرياض)
 في ١٠/٢/ من عام ١٩٨٤ .

وسُئِلْتُ حِينَ الدَّمْعُ حَا
 ر وحثَّ حادي البَيْنِ رَكْبَهُ :

أَتَرَيْنَ وادي الرّافديـ
 ن ؟ تِلَالَهُ .. ؟ أَتَرَيْنَ كُتْبَهُ .. ؟
 أَتَعَيْنَ وَسُوسَةَ النَّخِيـ

لِ وَمَجْلِسَ الْأَحْبَابِ قُرْبَهُ .. ؟
 وَسَقَاسِقَ الْعُصْفُورِ لِمَا
 النُّورُ شَقَّ عَلَيْكَ دَرْبَهُ ..

وَعُودُ أَسْرَابِ الطَّيْرِ
 ر ، وَرَوْحَهَا فِي كُلِّ رَحْبَةٍ ..

أَتَلُوحُ بِغَدَادُ الْهَوَى .. !
 أَتَجِيءُ أَطِيفُ الْأَحِبَّةِ ؟
 أَتَهْوُمُ الذِّكْرَى ؟ أَيْـ

لِي الشَّوْقُ لِلْمَشْتَاقِ كُتْبَهُ .. ؟
 أَتَذْكُرِينَ .. ؟ وَهَلْ نَسِيـ

تِ ؟ وَكَيْفَ يَنْسِي الْمَرْءُ حُبَّهُ .. ؟ !
 (بغداد) عَفْوَكِ قَدْ جَرَحـ

تِ الْقَلْبَ إِذْ أَثْقَلَتْ عَتْبَهُ

وَرَمَيْتِ بِالْغَدْرِ الْوَفَى
ضَلَالَةً فَخَرَقْتَ لُبَّهُ
أَنْتِ الْحَبِيبَةُ لَا تَخْشَا
فِي نَبْوَةٍ ، فَالْغَدْرُ سُبَّةٌ ... !
حُبَّانٍ : حُبُّ اللَّهِ وَالْ
أَوْطَانِ لِأَحْرَارِ حِسْبَةٍ ... !
بَغْدَادُ يَمْلُؤُنِي هَوَا
ك . وَفُرْقَةُ الْأَحْبَابِ كُتْرَبَةٌ
مَا غِيبْتِ عَنْ عَيْنَيَّ يَمُو
مَاءً ، أَوْ نَسِيتُ لَدَيْكَ صُحْبَةَ
(بَغْدَادُ) أَنْتِ سَوَادُ عَيْدِ
نِي ، وَالْفَوَادُ سَكَنْتِ لُبَّهُ
تَبْقِيَيْنَ أَنْتِ الْحَبَّ وَالْ
وَحْيِي الْأَمِينِ لَدَى الْمُحِبَّةِ ... !



إذا قيل بغداد :
ولها :

إذا قيل بغدادُ قيل العروبةُ حَـ
سَبُّ الْعُرُوبَةِ مِنْ آصِرَةٍ ..
وقيل « الجزيرة » قيل « الحِجَاز »
و « مكة » و « الكعبة العَامِرَة »
وقيل « المدينة » مَشْوَى الرَّسُولِ
و « نجد » و « بطحاؤها » الشَّاعِرَة
وقيل « الكويت » وكلُّ « الخَلِيجِ »
أَفْسَدِي أَوَاذِيَهُ الثَّائِرَة ...

وقيل «عُمَانُ» و «عَمَّانُ» بل
 «دمشق» «وبيروت» «والقاهرة» ..
 وقيل «الجزائر» «قيل» «الرباط»
 و«تونس» «خضراؤنا السَّاحِرَة»
 اذا قيل «بغداد» قيل الإِبَاءُ
 وقيل العُلَى واليد القَادِرَة ..
 وقيل انبعثَ لعهدٍ جديدٍ
 يُعَفِّي على الأَرْسَمِ الدائِرَة
 وقيل بدورٌ تَجَلَّى بها
 تُنِير طريقَ الفِدا سَاهِرَة
 وقيل الصُّقُورُ بأجوائِها
 تَرَبَّصُ كالأنجم الدَائِرَة
 وقيل بها كُلَّ قَرَمٍ جليلٍ
 جميلٍ كطَلَعَتِهَا البَاهِرَة
 اذا قيل بغدادُ قيل الإِبَاءُ
 يسوقُ العُتَاةَ لها صَاغِرَة
 وقيل افتدَاءٌ وقيل اعتلاءٌ
 وبالبَغْيِ دارت بها الدَائِرَة
 وبغدادُ نورٌ وبغدادُ نارٌ
 وسيفُ مآثِرنا الحَاضِرَة



(*) وقصائد الشاعرة في بغداد كثر يطول حصرها لذا اجتزأنا بآخر ما تهيأ
 لها فيها .

ثورة تموز ١٩٥٨ ونأسيس الجمهورية

أصداؤها في شعر الشعراء

*
صباح الأمل

أو نشيد ١٤ تموز ١٩٥٨

للاستاذ محمد بهجة الأثري :

أَفِقْ .. صَبَاحُ الْأَمَلِ الْمَشْهُودِ لَاحٌ حُلُوءَ الْوِشَاحِ ١

*

لَاحٌ ، وَلَاحَتْ فِي حَفَافَيْهِ شُعَلٌ (١)

أَذْكَى الزَّغَارِيدِ وَأَطْرَابَ الْجَذَلِ

وَاسْتَدْفَعَ الشَّقْوَكَ بِمَحْمُومِ الْقُبُلِ

حَرَّانَ ، ظَمْنًا إِلَى ثَغْرِ الْأَمَلِ

يُبْرِي آلامًا ، وَيَأْسُو مِنْ جِرَاحِ

مَا آنَ لِلْأَشْوَاقِ يَوْمًا أَنْ تُرَاحَ مِنْ النَّضَاحِ (٢) ؟

أَفِقْ .. صَبَاحُ الْأَمَلِ الْمَشْهُودِ لَاحٌ حُلُوءَ الْوِشَاحِ ١

*

تَأَلَّقَتْ مِنَ السَّنَا أَوْضَاحُهُ (٣)

وَهَزَّ عِطْفَ الْوِطَنِ التِّمَاحُهُ (٤)

أَنْسَهُ ، بَعْدَ الدُّجَى ، لِصَبَاحِهِ

فَهَاجَ مِنْ سُرُورِهِ صُدَاحُهُ

وَاسْتَضْحَكَ الْكَوْنُ شِعَافًا وَيِطَاحُ (٥)

غَرَّدَ جَذْلَانِ ، وَلِلنَّفْسِ انْشِرَاحٌ مِنْ الْمِرَاحِ (٦)

(١) حَفَافَاهُ : جَانِبَاهُ .

(٢) النَّضَاحُ : الدَّفَاعُ .

(٣) أَوْضَاحُهُ : أَضْوَاؤُهُ .

(٤) التِّمَاحَةُ السَّنَا : ابْصَارُهُ لَهُ .

(٥) الشِّعَافُ : رُؤُوسُ الْجِبَالِ

(٦) الْمِرَاحُ ، بِكَسْرِ الْمِيمِ : اسْمٌ مِنَ الْمَرَحِ ، وَهُوَ النِّشَاطُ .

أَفِيقْ .. صَبَّاحُ الْأَمَلِ الْمُنْشُودِ لَاحُ حُلُوَالِوِ شَاحُ !



أَفِيقْ .. فَقَدْ أَدْبَرَ لَيْلُ الظَّالِمِ
أَفِيقْ .. فَقَدْ أَفَاقَ كُلُّ نَائِمِ
وَنَابَ لِئَلَيْقَيْنِ كُئِلُ حَالِمِ^(١)
وَقَامَتِ الْأَعْرَاسُ فِي الْعَمَوَالِمِ
وَعَجَّتِ الْأَرْضُ سُرُوراً وَمِيرَاحُ
مَعَ الصَّبَّاحِ أَرْسَلَتْ شَمْسُ الْفَلَاحِ بُشْرَى النَّجَاحِ
أَفِيقْ .. صَبَّاحُ الْأَمَلِ الْمُنْشُودِ لَاحُ حُلُوَالِوِ شَاحُ !



بُشْرَاكَ .. صَرَّحُ الْبَغْيِ قَدْ دُكَّ فَزَالُ
زَالَ كَلَمُحِ الطَّرْفِ مِنْ قَبْلِ « الزَّوَالِ »
زَالَ مِنَ الْكَتُونِ إِلَى أُخْرَى اللَّيَالِ
فَهَلْ عَرَفْتَ الْآلَ أَوْ طَيْفَ الْخِيَالِ^(٢) ؟
أَيْنَ غُذُو الظَّالِمِينَ وَالرَّوَّاحِ ؟
عَفَّتْ مِنْ (الْكَذَّابِ) آثَارُ السِّفَاحِ وَمِنْ (سَجَاحِ)^(٣) !
أَفِيقْ .. صَبَّاحُ الْأَمَلِ الْمُنْشُودِ لَاحُ حُلُوَالِوِ شَاحُ !



قُمْ .. بَارِكِ (الثَّوْرَةَ) فِي نَجَاحِهَا
قُمْ .. شَارِكِ (الْأَحْرَارَ) فِي كَيْفَاحِهَا

(١) ثَاب : رَجَع .

(٢) الْآل : السَّرَابُ وَهُوَ مَا يَرَى فِي الصَّحَارَى كَالْمَاءِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْحَرِّ .

(٣) الْكَذَّابُ : لَقِبَ مَسِيلِمَةُ الْمُتَنَبِّئِ وَقَدْ قَتَلَ فِي « الرَّدَّةِ » . وَسَجَاحُ امْرَأَةٍ ادَّعَتْ النُّبُوَّةَ كَذَلِكَ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَتَزَوَّجَ بِهَا مَسِيلِمَةُ ، ثُمَّ أَسْلَمَتْ بَعْدَ مَقْتَلِهِ ، وَهَاجَرَتْ إِلَى (الْبَصْرَةِ) فَتَوَفَّتْ فِيهَا .

قُمْ .. سَاهِرِ (الأوطانَ) في أفراحِها
 قُمْ .. واصْحَبِ (العُربَ) إلى طِمَاحِها
 وامْشِ إلى (العِزَّةِ) وثَبَّأْ وجِمَاحُ
 إنَّ مَنَالَ العِزِّ والمجدِ الصُّرَاحُ ^(١) رَهْنُ الكِفَاحِ !
 أَفِقْ .. صَبَاحُ الأَمَلِ المنشودِ لاحُ . حُلُوِّ الوِشَاحِ !

بغداد :

وحين انطلقت هذه الثورة ، تجاوبت مصر مع ثورتنا، فنظم
 الشاعر محمود حسن اسماعيل هذا النشيد ، وغنّته مطربة الشرق
 أم كلثوم .. قال :

« بغدادُ » ! ياقلعة الأسودِ ياكعبة المجد والخلودِ
 يا جبهة الشمس للوجودِ

✱

سمِعت في فجرِكَ الوليدِ
 توهَّجَ النارِ في القُيُودِ
 وبيرقُ النصر من جديدِ
 يعود في ساحة « الرشيدِ »

✱

ثأرت في حالكِ الظَّلامِ
 وقُمتِ مشدودةَ الزَّمامِ
 للنُّورِ ، للبعثِ للأمامِ
 لبأسكِ الظَّافرِ العَدَيمِ
 ومجدكِ الخالدِ التَّليدِ
 عصفتِ بالنَّارِ والحديدِ
 وعُدتِ للنُّورِ من جديدِ

✱

(١) الصراح : الواضح الخالص مما يشوبه .

يا عرباً دَوَّخُوا الليالي
 وَحَطَّموْا صَخْرَةَ المُحَالِ
 صَوْنُوا عَلَى شَعْلَةِ النَّضَالِ
 مَوَاكِبَ الْبُعْثِ وَالصُّعُودِ
 لِقِيَمَةِ النَّصْرِ فِي الْوُجُودِ
 عُدُّوا لِأَيَّامِكُمْ وَعُودِي
 كَالْفَجْرِ فِي زَحْفِكَ الْمَجِيدِ

*

قَدْ أَذِنَ اللَّهُ فِي عُلَاهُ
 أَنْ يَصْحَوْ الشَّرْقُ مِنْ كَرَاهُ
 وَيَرْحَلَ اللَّيْلُ عَنْ سَمَاهُ
 وَتَسْطِيعَ الشَّمْسُ مِنْ جَدِيدِ
 مِنْ أَمْسِنَا السَّاحِرَ الْبَعِيدِ

*

«بَغْدَادُ» ! يَاقْلَعَةُ الْأَسُودِ يَا كَعْبَةَ الْمَجْدِ وَالْخُلُودِ
 يَا جِبْهَةَ الشَّمْسِ لِلْوُجُودِ

ليالي بغداد :

لِلشَّاعِرِ الْحَالِدِ الْأَدِيبِ خَلِيلِ مَرْدَمَ ، نَظَمَهَا أَيَّامَ كَانَ وَزِيرًا
 مَفُوضًا لِسُورِيَةِ فِي بَغْدَادِ سَنَةِ ١٩٥٣ م :
 لِيَالِيكَ ، يَا «بَغْدَادُ» فِي الْحُسْنِ كَالْفَجْرِ
 مَعْطَرَةٌ الْأَنْفَاسِ طَيِّبَةُ النَّشْرِ
 وَالنُّورِ وَالْحَسَنِ الْمُبِينِ سَوَادُهَا
 كَذَلِكَ سَوَادُ الْعَيْنِ لِلنُّورِ وَالسَّحْرِ
 وَمَارُوعَةُ الْإِشْرَاقِ أَوْ رَوْنَقُ الضُّحَى
 بِأَحْسَنَ مِنْ لَاءٍ أَنْجُمِهَا الزُّهْرُ

فففي كلِّ سطرٍ من صفاء سمائها
 يُلاقيك وجهٌ بالطلاقة والبِشْرِ
 وما القُبَّةُ الزَّرْقَاءُ لولا نجومُها
 ولولا ازدهارُ الهلالِ والبدْرِ
 اذا الرِّيحُ مَرَّتْ فوقَ « دجلة » رفرفت
 بأجنحة فيها الزَّوارقُ إِذْ تجري
 وبات شُعاعُ النُّورِ في الماءِ شُعْلَةً
 تشبُّ بأحشاء المياه وتَسْتَشْرِ
 ورُبَّ فتى أَمسى على الشَّطِّ مُشْدَأً :
 « عيونُ المَها بين الرُّصافة والجَسْرِ »
 فأوردني ما قد تحاميت ورْدَهُ
 زماناً ، وهاجَ الوجد والشَّعر في صدري
 فياليلةٍ من دونها « ألفُ ليلة »
 سأذكرها بالخير ما مُدَّ في عمري
 شهيدت بها ما يملأ النَّفْسَ بهجةً
 ويَقْضِي على العينين والقلبِ بالأَسْرِ
 كأنَّ الحِسانَ الغَيدَ يَخْطِرْنَ بَيْنَنَا
 ملائكةُ الرَّحْمَنِ في ليلة القَدْرِ
 فكم غادةٍ تُصِبي الحليم بسحرها
 تُضيءُ ظلام الليل كالكوكب الدُّرِّي
 تفتَحُ أعلَى الثوب عن غَضِّ جسمِها
 كما انشَقَّ كَيمُ الزَّهْرِ عن ناضِرِ الزَّهْرِ
 تَقَلَّصَ عن صدرٍ وظهرٍ سَوَادُهُ
 كما انشَقَّ ليلٌ عن عَمُودٍ من الفجرِ

تَشَبَّثَ لَمَّا زَالَ أَعْلَاهُ عَنْهُمَا
 بِنَاهِدٍ تُدَيِّبُهَا وَدَارَ عَلَى الْحَصْرِ
 تَمَوَّجَ دُونَ الْكَشْحِ وَأَنْدَاحَ ذَيْلُهُ
 فَكَانَتْ كَمَنْ يَطْفُو عَلَى لُجَجٍ خُضِرَ
 يَزِيدُ بَرِيقاً عِقْدُهَا فَوْقَ نَحْرِهَا
 فَنُورٌ عَلَى نُورٍ حِيلَاها عَلَى النَّحْرِ
 إِذَا رَطَنْتَ كَانَتْ لِكِسْرَى وَقَيْصَرٍ
 وَإِنْ أَعْرَبْتَ فَهِيَ الصَّرِيحَةُ مِنْ فِيهِرٍ
 أَرَى سَهْرِي فِيهَا أَلَذَّ مِنَ الْكَرَى
 بَعَيْنِي طَلِيحٍ مِنْ سُهَادٍ وَمِنْ سُكْرِ
 وَمَا أَنْسَ مِنْ شَيْءٍ فَلَا أَنْسَ لَيْلَةً
 تَبَسُّمٌ فِيهَا الْأُفْتُقُ عَنْ بَارِقٍ يَسْرِي
 بِدَا مِنْ أَهَاضِيبِ السَّحَابِ ، كَأَنَّهُ
 خَوَافِقُ رَايَاتٍ عَلَى عَسْكَرٍ مَجْرٍ
 تَأَلَّقَ فِي الْأُفْتُقِ الشَّأْمِيُّ مَوْهِنًا
 يُضِيئُ وَيَخْبُو كَالْمُشِيرِ إِلَى أَمْرِ
 فَحِيًّا قِبَابًا فِي « الْعِرَاقِ » مُنِيفَةً
 وَأَيُّظُ مِنْ نَوْمٍ « أَبَا الْهَوَلِ » فِي « مِصْرٍ »
 رَجُوتُ لـ « بَنْدَادٍ » رَجَاءَ الْمُحِبِّ أَنْ
 تَعُودَ لِيَا لِيَهَا بِأَيَّامِهَا الْغُرِّ



هَدِمَ اللَّهُ مَا بَنَوْا مِنْ حُدُودٍ :
 للشاعر سليمان الاحمد ، المعروف بـ « بَدَوِي الْجَبَلِ » :
 لِيَهْ دُنْيَا « الرَّشِيدِ » تَفْنَى الْحُضَارَا
 ت ، وَتَبْقَى كَالدَّهْرِ دُنْيَا « الرَّاشِدِ »

صُورٌ لِّلنَّاسِ الْقَدِيمِ وَضَاءٌ
زَوَقْتُهَا رُؤَى الْخِيَالِ الشَّرُّودِ
صُورٌ لِلْقَدِيمِ تَعْرِضُهَا الدُّنْ
جَا ضِيَاءًا، وَرُوعَةً فِي الْجَدِيدِ
هَذِهِ « دَجَلَةٌ » وَهَذِي الْبَسَاتِي
— نُ وَشَدُّوا الْقُمْرِيَّةَ الْغَيْرِيْدِ
وَالْأَمَاسِيَّ وَالنَّخِيلَ وَمَـلَا
حُ طَرُوبُ الْحُدَاءِ حُلُوُ النَّشِيدِ
وَاللِّبَالِي فِي النَّهْرِ وَالْأَنْـ
سَامُ أَصْدَاءُ زَوْرَةٍ وَصُدُودِ
وَالْقِيَانُ الْمِيْلَاحُ يَخْطِرُنَ فِي الشَّطْـ
— سُكَارَى مُرْتَحَاتِ الْقُدُودِ
آهَةٌ بَعْدَ آهَةٍ مِنْ « عَرِيْبٍ »
تَخْلُقُ الْبُظْلَ لِلضُّحَى الْمَكْدُودِ
كَلَّمَا هَلَلَتْ صَبَاً أَوْ حِجَازاً
ضَاعَ حَلْمُ الْمُتَوَجِّحِ الْمَحْسُودِ
وَجَوَارٍ يَمْرَحُنَ فِي الزَّوْرَقِ السَّـ
جِي ۝ وَيَضْحَكُنَ عَنْ نَدَى وَبَرُّودِ
رَفَّ مِجْدَافُهُ عَلَى الْمَاءِ وَانْسَا
قَـ بِأَحْلَى مَعَاصِمِ وَزُنُودِ
فَانْتَشَى مِنْ طَيُوفِهِنَّ وَجُنَّتْ
قَطَرَاتُ عَلِيقِنَ بَيْنَ النَّهْودِ
وَالْقُصُورِ الْبَيْضَاءِ وَالْحُلُمِ اللَّـدِ
— جَلَاهُ دُخَانُ نَدَى وَعُودِ

فترامت مَفَاوِزٌ من ضياء ،
ورمالٌ من لؤلؤ وورودِ
وخيام في البِيد والحسن والنَّجْدِ
سدة والشَّعْرُ في خيام البِيدِ
تم لاحت « بغدادُ » بدعة سِحْرِ
قادرٍ مُتَرْفٍ الخيالِ فَرِيدِ
ليس بين العراق والشَّام حَدٌّ ،
هَدَمَ اللهُ ما بَنَوْا من حُدُودِ !
قل كما قال للغمامة « هارو
نُ » ، وفي الجَوِّ زَمَرَمَاتُ الرُّعُودِ
قل لها : أَيُّهَا الغَمَامَةُ جودي
شاطيء « الرَّافِدَيْنِ » أو لا تجودي
حَوْمِي ما أردتِ شرقاً وغرباً
في تخوم الكون الفسيح المديدِ
سَرَفَيْنِ مُخْصِباً من سفوحِي
وتُرُوبَيْنِ ظَامِئاً من نُجُودِي
أمطري أين شئتِ ، فالكون ملكي
وبنوه قبائلي وجُنُودِي ^(١) !



تحية بغداد :

وحياً بشارة الخوري شاعر لبنان بغداد في مقدمة قصيدة أنشدها في
رثاء جميل صدقي الزهاوي ، وكانت حفلة ذات أبهة وجلال ، حضرتها
وفود من مختلف الأقطار العربية . قال مخاطباً بغداد :

(١) مجلة « التفتيش » ١٩٣٩ م .

قُولِي لشمسك : لا تغيبــــــــــــــــي
وتكبدي فلّك القلوب
بغدادُ | يا وطنَ الجها
دِ ومَوْضِعَ الأدبِ الحبيبِ
غناكِ جدّةُ والفرات
قصائدَ الزّمنِ العجيبِ
رَقَصَتْ قوافيها على
نغمِ البشائرِ والحروبِ
أعراسُ « دارا » من مقا
طيعها وخيبةُ « سنحريبِ »
حتى إذا طلع « الرّشيدـــــــــــــــــ

بغدادُ ! ياشَغَفَ الحما
 لٍ وَمَا عَبَّ الغَزَلَ الطَّرُوبِ
 بَنَتِ المكارمُ للعُـرو
 بة فيكِ جامعة القلوبِ
 بيت من الأخلاق ضا
 قت عنه أخلاقُ الشعوبِ
 وَسِيعَ الدِّياناتِ السِّمّا
 حَ وَضَمَّ أَشْجَاتِ النُّدُوبِ
 زَفَرَاتُ «أحمد» في رِسا
 لَتِهِ ، وَالْآمُ الصَّلِيبِ
 (بغداد) ! ما حَمَلَ السُّرَى
 مِنِّي سِوَى شَبَحٍ مَرِيبِ
 جفست له الصَّحراءُ والـ
 سَفَتَ الكَثِيبُ إلى الكَثِيبِ
 وَتَنَصَّتْ زُمَرُ الجَنّا
 دِبٍ مِنْ قُوءِهَاتِ الثُّقُوبِ
 يتساءلون «قَدْ رَأَوْا
 «قِسَ المُلُوحَ» في شحوبِي
 وَالتَّمَتَّاتُ عَلَى الشُّفَا
 وَ مَضَرَّجَاتُ بالنَّسِيبِ
 تبكي لها قُبْلُ الصَّبَا
 ويزدوبُ فيها كلُّ طِيبِ
 يتساءلون : مَنْ الفتى الـ
 معرَّبِي في الزَّيِّ الغَرِيبِ؟

صحراء ! يا بنت السما
 والبكر والوحي الحصب
 أنا لو ذكرت ذكرت أحد
 سلامي وأنا سلامي وكُوبِي
 إحدى الشموع الذائب
 ت أمام هَيْكَلِكِ الرَّهيبِ
 أنا دمعَةُ الأدب الحزيبِ
 من رسالة الألم المذيبِ
 من قلب (لُبْنان) الكئيبِ
 لب لقلب (بغداد) الكئيبِ^(١)



يا أُمَّة العرب :

للأستاذ احمد دمشقية :

سائلُ بني الغَرْبِ : هل ينسَوْنَ ما قبسوا
 من حكمة « الشَّام » أو آدابِ « بغدادنا » ؟
 أيَّامَ « دجلة » يروي الواردين الى
 تهل العلوم زرافاتٍ ووحْدانا
 ألا ترى صور الماضي المجيد على
 ضيفاه شهاداتٍ بالذي كانا
 لما أطلَّ على « بغداد » موكبنا
 خلنا « الرَّشيد » بدا حياً فحيانا
 وإنَّ « بغداد » دار العزِّ ما برحت
 تسيلُ ألويةً حمراً وفيتيانا

(١) ديوان الأخطل الصغير ■ ص ١٤٤ .

هو « العراق » اتخذناه لِنَـمَـثَـلاً
 أعلى ، ولِلنَّهْضَةِ القَعَسَاءِ عُنْوانَا
 سائلٌ فِـلَـسَـفِـيـنَ : هل كانت قَضِيتُها
 لولاهُ تَدْرِكُ نُجْجَاحاً في قضايانَا
 منازلُ العُرْبِ قد أَضحت موحَّدةً
 بالفكر حقّاً وما استثنيت ■ لُبنانا »
 وما الحَـوَاجِزُ مِن حُبِّ بِمَانَعَةٍ
 مادام أن الذي نَهْـوَاهُ بِهَـوَائِنَا



دجلة في الليل ، أو الليل في بغداد :

للشاعر الرقيق أنور العطار الدمشقي رحمه الله ■ قالها أيام كان مدرّساً
 في بغداد سنة ١٩٣٨ م :

الليلُ في (بغدادَ) لا ينامُ
 سهرانُ تُضِبي روحه الأنغامُ
 وَيَسْتَبِيهِ الْوَجْدُ وَالْهُيَامُ
 واللَّهُوُ وَالْإِنْسُ وَالْمُؤْدَامُ
 وَالشَّعْرُ وَالْأَوْهَامُ وَالْأَحْلَامُ
 أَسْكُبِ النُّورَ بِأَقْمَرُ
 وَاغْمُرِ النَّهْرَ بِالصُّورِ
 وَأَذِيعْ فَرَحَةَ الْهُوَى
 وَأَشِيعْ لَذَّةَ السَّمَرِ
 يَجْمَعُ النَفْسَ كُلَّهَا
 مِنْ تَشْهِيهِ فِي النَّظَرِ

ما هنا الليلُ شاعرٌ
 مُلْهُمُ خَيْرُ الْفِكَرِ
 مستطارٌ إذا انتشى
 مستثارٌ إذا اذكر
 ملء أفيائه السَّنا
 ملء أعطافه الدُّرُ
 في وشاحٍ مُنَمَّنٍ
 ساحرٍ فتنةِ البَصَرِ
 والنَّسيمُ الَّذِي يَطُورُ
 فُ شِعْرٌ لِمَنْ شَعَرَ
 ونشيدٌ مسلسلٌ
 في العشياتِ والبُكرِ
 ما أحيلاه ساجياً !
 ما أحيلاه إن فَتَرَ !
 طافَ بالأعينِ الرُّقَا
 دُ ، وما شَفَنِي السَّهَرُ
 يتصبَّاني النَّخِيـ
 لٌ ، ويُغْرِينِي النَّهَرُ
 في ثناياه صُـ
 حُلوةٌ كلُّها سِيَرُ
 بأبي أنت مـورداً
 ليس في ورده كسدرُ !
 يتشَهَّاك خاطري
 وتسألني بك الذِّكرُ

إِنَّ تَشْنَيْتَ فَالنَّدى
 أو تَأَوَّدْتَ فَالطُّرَرْ
 أو تسلسلت صافياً
 فأخو الدَّلِّ والخَفَرُ
 مَرَّ بي طيفُك الحبيـ
 ب ، وكم طائفٍ سَحَرُ !
 في أسارىـره فتـو
 نٌ وفي طَرفه حَوَزُ
 المُنَى طوعُ أَمْرِهِ
 ما تَمَنَى وما أَمَرُ
 والشَّذا منه عابِقُ
 فاغِمُ العِطْرُ منتشِرُ
 فعلى الشَّمسِ عَرشُهُ
 وعلى هامِها استَقَرُّ
 هو ربحانة العُلى
 فيه من عَبَقَرٍ أثرُ
 عدتُ للغابِرِ البعيـ
 دِ أناجي الذي غَبَرُ
 هاهنا سيرةُ الزَّما
 ن وعاهما الَّذي ذَكَرُ
 هاهنا الكوخُ سابِحُ
 في خِضَمِّ من العِبرُ
 هاهنا تخشع القلـو
 ب وتصبـو وتنسـفـطـرُ

أنت لي الحُبُّ والمنى
أنت لي القصدُ والوطَرُ
ليس لي عنك مُبْتَغى
ليس لي عنك مُصْطَبَرُ
أتمنّاسي بك الأسى
غمَرَ النَّفْسَ ما غَمَرَ
واحنيّني الى التّضيقِ
ف تراحمن بالشَّجَرِ !
أنت يانهرُ عاشقُ
من صباياتك القَمَرُ
مرّ بالماء صورة
فَتَنَتْ كُلٌّ مِنْ نَظَرُ
وينابيع حُفَّاء
باللّالي وبالسدُرُ
والنُّجوم السّتي تَرفُ
إطارٌ من الزّهَرُ
وربيعٌ من المُنَى
ورياضٌ من الثَّمَرُ
يَتَوَهَّجُنَ باللّظى
يتراقصُنَ كالشَّرَرُ
فيك مايملاً النّهى
فيك مايبهَرُ البَشَرُ
آية أنت للعلى
راية أنت للظّفَرُ

يَتَشَنَّى بِكَ الزَّمَانُ
نَ ، وَيُزْهِمَنِي بِكَ الْعُصْرُ
وَيَبَاهِي بِكَ الْجَلَالُ
لَ ، وَيُتَنَدَّى وَيَزْدَهِيْرُ
رُبَّ مَاضٍ بَعَثْتَهُ
مِثْلَمَا يَجْمَعُ الْبَشَرُ
رَفًّا كَالْحُلُمِ خَاطِئاً
وَتَوَارَى وَمَا انْتَظَرُ
أَنْتَ كَالْحُبِّ سَارِبٌ
أَنْتَ كَالْعُمُرِ مَخْتَصِرٌ
أَنْتَ كَوْنٌ مِنَ الشُّمُورِ
سَ سَنَا ضَوْئُهَا بِهَرَرُ
بِئْسَ أَسْتَلْهُمْ السُّرُورُ
بِئْسَ أَسْتَقْرِئُ الْإِذْكَرُ
وَالْهَوَى طَائِفٌ يَجُـ
سَدَّ ، وَكَمْ يَرْكَبُ الْغَرَرُ
لَا يَخَافُ الرَّدَى الرَّهِيْدُ
سَبَّ ، وَلَا يَعْرِفُ الْحَذَرُ

ومنها :

إِيهِ « بَغْدَاد » هَلْ يَمُو
دُ الْجَلَالِ الَّذِي انْدَثَرَ ؟
فَأَرَى تَاجَكَ النَّضِيْبُ
رَّ عَلَى الْكَوْنِ يَنْضِيْفُ
وَأَرَى الْأَرْضَ كُلَّهَا
وَهِيَ مَهْدٌ وَمُسْتَقَرُّ

آيَةً أَنْتِ فَذَّةٌ
 كُلُّ مَا فِيكَ مُبْتَكَرٌ
 حَفِظَ الدَّهْرُ ذِكْرَهَا
 وَرَوَى لِلْعَدِ الْخَبَرُ



وحدة العرب :

لحليم دَمْثُوس الشاعر العربي اللبناني :
 أَنَا كَيْفَ سِرْتُ أَرَى الْأَنَامَ أَحَبَّنِي
 وَالْقَوْمَ قَوْمِي وَالْبِلَادَ بِلَادِي
 بَرَدَى كَدِجِلَةَ وَالْفِرَاتَ مَحَبَّةً
 وَالتَّيْلَ كَالْأُرْدُنَّ طَيِّ فَوَادِي
 وَالغُوطَتَيْنِ وَكَرَّمْ وَادِي زَحْلَةَ
 كَنْخَيْلَ مَصْرٍ فِي ظِلَالِ الْوَادِي
 وَحَفِيفَ هَذَا الْأَرْزِ فِي لِبْنَانِيهِ
 كَحَفِيفِ ذَاكَ النَّخْلِ فِي «بَغْدَادِ»



عيناك يا بغداد :

زار نزار القباني الشاعر الشامي المعروف ببغداد في آذار سنة ١٩٦٢ م
 فحياً ببغداد بهذه الأبيات الرقيقة التي تتسم بالنعومة والعذوبة ، تطيف
 على حواشيها الأضواء والأطيفاف . قال :
 مُدِيْ بِسَاطِكِ وَأَمْلَيْتِي أَكْوَابِي
 وَأَنْسِي الْعَتَابَ ، فَقَدْ نَسِيتُ عَتَابِي !
 عَيْنَاكَ (يَا بَغْدَاد) مِنْذُ طِفْلَوَاتِي
 شَمْسَانِ نَائِمَتَانِ فِي أَهْلِ دَابِي

لا تنكري وجهي ، فأنت حبيبتي
 وورود مائدتي وكأس شرابي
 (بغداد) جنتك كالسفيننة مُتَعَبّاً
 أخفي جراحاتي وراء ثيابي
 ورميت رأسي فوق صدر أميرتي
 وتلاقت الشفتان بعد غياب
 أنا ذلك البحار يُنفِقُ عمره
 في البحث عن حبٍ وعن أجاب
 (بغداد) طرت على حرير عباءة
 وعلى ظفائر زينب ورباب
 وهبطت كالعصفور يقصد عُشّه
 والفجر عرسٌ مآذنٍ وقباب
 حتى رأيتك قطعةً من جوهر
 ترتاح بين النخل والأعشاب
 حيث التفت أرى ملامح موطني
 وأشُمُّ في هذا التراب ترابي
 لم أغترب أبداً . فكل سحابة
 بيضاء فيها كبرياء سحابي
 إنَّ النجوم الساكنات هضابكم
 ذات النجوم الساكنات هضابي
 (بغداد) عشت الحسن في ألوانه
 لكن حُسْنُكَ لم يكن بحسابي
 ماذا سأكتب عنك . يا فيروزاتي
 وهواك لا يكفيه ألف كتاب

يغتالني شعري فكلُّ قصيدة
 تمتصُّني ، تمتصُّ زيتَ شَبَابِي
 الحِنْجَرُ الذهبيُّ يشرب من دمي
 وينام في حمي وفي أعصابي
 (بغدادُ) ياهزج الخلاخل والحلي
 يامخزن الأضواء والأطيابِ
 لا تظلمي وتَرَّ الرِّبَابَة في يدي
 فالشَّوْقُ أَكْبَرُ من يَدِي ورَبَابِي
 قبلَ اللقاء الحائِر كنت حبيبتِي
 وحبيبتِي تَبْقَيْنَ بعدَ ذهابي



تحية حب لبغداد :

أرسلها الشاعر نزار قباني بعيد انبثاق فجر ثورة ١٤ تموز التي
 أردناها للحرية ■ وتوحيد الكلمة لتقضي على الاستبداد والاستغلال
 وتعيد الى العراق كرامته ، ولتجعل منه قوة لأمتة العربية .

باسم مليون عراقي قتلته	ورغيف من فم الشعب سرقته
بيدك	باسم شعب
باسم حلف بدم الشعب كتبته	عربي الوجه للأحلاف بعته
وانتهى	ياحذاء الضرب
لأرحمة الله عليه	للشيطان بعته
أو عليك	باسم آلاف المقاصل
باسم رب انكليزي عبده	وضرعات الشكالي
وضمير ما عرفته	والحوامل

لَهَبٌ غَدَنِي... وَبِرْكَانُ تَضَرَّمُ
يَا حِذَاءَ الْغَرْبِ يَادِمِيتِهِ
بَيْنَنَا أَلْفَ حَسَابٍ سَوْفَ
يُحْسِنُ
هذه « بغداد » . . . يابائعها
رَجَعْتُ

أَشْهَى مِنَ الْحَلْمِ وَأَكْرَمُ
كُلَّ جَرْحٍ وَلَهُ مِيعَادُهُ
يَلْعَنُ الْجَرْحُ وَلَكِنْ لَيْسَ يَفْظُمُ
مَا كَرِهْنَا الظُّلْمَ مَاضِقْنَا بِهِ
يَصْبِحُ الشَّعْبُ إِلَهًا حِينَ يَظْلُمُ
رَبُّنَا مَاتَ قَتَلْنَا رَبَّنَا
وَرَمِينَاهُ إِلَى قَعْرِ جَهَنَّمَ
كَانَ رَبًّا تَافَهُاً مِنْ وَرَقٍ
كَانَ مَسْخَاً ، كَانَ أَعْمَى
كَانَ أَبْكَمُ
كَانَ رَبًّا أَجْنَبِيّاً
رَبَّنَا . . .

كَانَ فِي لِنَكْلَتَرَا
يُسْقَى وَيَطْعَمُ
كُلَّ رَبٍّ أَجْنَبِيٍّ صُنْعُهُ
سَوْفَ يَلْقَى حَتْفَهُ
سَوْفَ يُحْطَطُّ (١)

بِاسْمِ شَعْبٍ
طَيِّبٍ كَالطُّفْلِ بِالنَّارِ حِكْمَتِهِ
بِاسْمِ مَنْ شَرَدَتْهُ
مَنْ أَصْدَقَانِي أَوْ صَلْبَتَهُ
فِي سَبِيلِ الْكَلِمَةِ
أَبْدَأُ لَيْسَ تَمُوتُ الْكَلِمَةُ
هِيَ خَبْزُ الطَّيِّبِينَ وَضَرْيُحُ الظَّالِمِينَ
بِاسْمِ بَغْدَادِ الْحَبِيبَةِ
مَرْفَأُ الْأَنْجَمِ . . . وَالْفَيْرُوزِ
شَلَالِ الْعَذُوبَةِ

بِاسْمِهَا... مَنْ كَتَبَتْ أَوَّلَ حَرْفٍ فِي الْعُرُوبَةِ
وَأَلْفَ الْعِبَاءَاتِ مِظَلَّاتِ الرُّطُوبَةِ
بِاسْمِ أُمِّي بِاسْمِ أُخْتِي
بِاسْمِ أَحْزَانِ السَّنِينَ الْمَاضِيَةِ
بِاسْمِ أَحْدَاقِ الصِّغَارِ الصَّافِيَةِ
بِاسْمِهِمْ يَاطَاغِيهِ .
أَيُّهَا الْجَاعِلُ مِنْ « رُومَا » ثَانِيَةً
بِاسْمِ مَنْ مَاتُوا عَلَى أَرْضِ « الْعِرَاقِ »
مَنْ رَفَاقِي

فِي سَبِيلِ الْقَافِيَةِ أَتَكَلِّمُ
صَارَ فِي إِمْكَانِنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ
يَا عَمِيلَ اللَّيْلِ وَالْإِرْهَابِ وَالدَّمِ
صَارَ فِي قَدْرَتِنَا أَنْ نَتَبَسَّمَ
نَحْنُ فِي قَصْرِكَ فِي سَاحَاتِهِ

تحية الشعر :

للشاعر حافظ جميل :

أضيافَ (بغدادَ) هذا وجهه (بغدادِ)
صحائفٌ من بطولاتٍ وأمجادِ
ما جَبَرَ الدهرُ تاريخاً كأُسْطُرِها
في لوحِ خُلْدٍ ولا في سِفْرِ آبادِ
في كُلِّ صدرٍ كتابٍ من روائعها
يُتلى « وفي كلِّ ثغرٍ حلُو إنشادِ
هاتوا الصحائفَ من عزٍّ ومن حَسَبِ
إن كنَّ أُنْدَادَها أو شبهَ أُنْدَادِ
إرثُ العباقرةِ الأَفْذاذِ ، إنْ وقفوا
بينَ الجبابِرِ كانوا شُْمَّ أطوادِ
مآثرُ الخلفاءِ الغُرِّ ، ما تركوا
لسادةِ الأرضِ رأساً غيرَ مُنَادِ
السَّالِكينَ طريقَ النَّصْرِ ، ما وَهَنُوا
من طُولِ مرحلةٍ أو بُعْدِ آمادِ
الرافعينَ لواءَ الحقِّ ، ما فترت
سيوفُهم بينَ إشهارٍ وإغمادِ
ما شَأْنُهم ويمينَ اللهِ تُسَنِّدُهم
أنْ يشرَكوَا السَّيْفَ في دعمٍ وإسنادِ
تبارتِ البيضُ والأقلامُ ، فانطلقت
لم يَتَّخِذْها طولُ آفاقٍ وأبعادِ
إذا نبا السيفُ في زِيغِ يقوَمِهِ
سلَّ اليراعُ عليه سيفَ جَلادِ

وحكمةُ السيفِ في زجرِ وفي رَهَبِ
 كحكمةِ الله في وعدٍ وإيعادٍ
 تبقى العقائدُ تستوحي شجاعَتَها
 من غِيلِ أفتدةٍ لاغِيلِ آسادٍ
 والحربُ ساحةُ آراءٍ وفلسفةٍ
 طلائعُ الحقِّ فيها خيرُ أجنادٍ
 وما الحضارةُ إلا كَدُّ أدمغةٍ
 وقُدرةُ العقلِ في خلقٍ وإيجادٍ
 وثروةُ الفكرِ طاقاتٌ تفجرُها
 في غيرِ مصنعٍ بارودٍ وفولاذٍ
 لم تحتضنِ غيرَ أقلامٍ وألسنةٍ
 مُشَهَّراتٍ لتَهذيبٍ وإرشادٍ
 ما أعجزَ السَّيفَ حسنُ الرأْيِ يُعَوِّزُهُ !
 وما أضلَّ السُّرَى من غيرِ ما هادٍ !
 رَبُّ البطولةِ خلفَ الطيرسِ مقعدهُ
 لافوقَ « بارجةٍ » أو فوقَ « طرادٍ »
 لولا المخلَّدُ من شعرٍ ومن أدبٍ
 أخنى الزَّمانُ على ذكرِ (ابنِ شَدادٍ)
 حسبُ البراعةِ أن تسقى إذا ظمئتُ
 من جَنَوفٍ مَحْبِرَةٍ ، لا جوفٍ أكبادٍ
 وما الحُسامُ بلا دينٍ ولا خُلُقٍ
 إلا النَّهايةُ في كفرٍ وإلحادٍ
 من زَيْفِ الحقِّ إلا غِشٌّ أنظمةٍ
 واستعبدَ النَّاسَ إلا ظلمُ أفرادٍ ؟

ومن قضى أن يكونَ البعضُ 'ألمة'
 وأن يَظَلَّ سِوَاهُمْ مُحضَ عِبَادٍ؟
 هَانُوا الْعَبِيدَ أَقْطَعَ كَفَّهُمْ قُبَلًا
 وَلَا أَصَافَحُ كَفَّ الظَّالِمِ الْعَادِي
 أَهْمِي الْكَرَامَةَ فِي جَاهٍ وَفِي نَسَبٍ
 وَلَيْسَ فِي عَمَلٍ مُضْنٌ وَإِجْهَادٍ؟
 وَلِيَ الَّذِي كَانَ إِنْ غَنَى بِمَحْتَدِهِ
 خَلَى الْوَرَى بَيْنَ عَشَاقٍ وَحُسَادٍ
 فَمَا رَفِيقُكَ فِي جَهْدٍ وَفِي عَمَلٍ
 إِلَّا شَرِيكَكَ فِي بُؤْسٍ وَإِسْعَادٍ
 أَيْحَسَبُ الْجَشِيعُ الْمَنُومُ أَنْ لَهُ
 دِينًا بِذِمَّةِ هَذَا الْجَائِعِ الصَّادِي؟
 وَأَنْ يَعِيشَ أَخُو اللَّذَاتِ فِي رَغَدٍ
 وَالكَادِحُونَ بِلَا مَأْوَى وَلَا زَادٍ
 بِئْسَ الشَّعَارُ شَعَارُ الْعَدْلِ يَرْفَعُهُ
 بَاغٍ يَعِيشُ عَلَى مَجْهُودٍ أَنْكَادٍ

*
 أَضْيَافَ (بَغْدَادَ) ، أَوْ جَزُرْتُمْ زِيَارَتَكُمْ
 عِدُّوا بِطُولِ زِيَارَاتٍ وَتَرْدَادٍ
 طُوفُوا بِ (بَغْدَادَ) لَا يُلْهَبُ مُشَاعِرُكُمْ
 مَا شَاقَكُمْ مِنْ حَدِيثِ الرَّائِحِ الْغَادِي
 وَاسْتَعْرَضُوا وَجَهَ مَاضِيهَا وَحَاضِرَهَا
 بِمَا شَهِدْتُمْ ، وَكُونُوا خَيْرَ أَشْهَادٍ
 (بَغْدَادُ) هَذِي ، أُمِّ الدُّنْيَا وَمَا شَهِدَتْ
 مَوَاقِبُ الْفَتْحِ مِنْ عُرْسٍ وَأَعْيَادٍ؟

(بغداد) هذي، أم الفِرْدَوْسُ ناشرة
أعلامها بين مُفْتَتِرٍ وَمِيَادٍ ؟
(بغداد) هذي ، ومن أولى بتكرمة
منها طَوَالِ المدي ، أم عيد ميلادٍ ؟
وتلك (دجلة) ، أم عذراءُ حاملة
تُضاحك النّجْمَ عن فِضِّي أبرادٍ ؟
جَرَّتْ على صفحة الوادي مَطَارِ فَهَـ
فسحح الخير يسقي ساكنَ الوادي
كأنّها وجَنَاحُ النّخْلِ يحضُّنها
فجرٌ تسلّأ في أكنافِ أورادٍ
ساحت على القفَر فاخضرت جوانبه
فالنّاسُ ما بين رُوَادٍ وورادٍ
من قَيَّضَ السّحر (للمنصور) فانتفضت
كفاهُ عن كوكبٍ في الأرض وقادٍ ؟
ومن أحوالَ كُثِيبِ الرَّمْلِ زنبقة
تُناظرُ الشَّمْسَ في حُسْنٍ وآرادٍ ؟



في مهرجان الشعر :

للشاعر خالد الشواف :

عوجوا على عُدوة الوادي نُبَشِيرُهُ
فمنبرُ الشّعير في (بغداد) منبرُهُ
قولوا لـ (عبقر) : هذا المهرجانُ له
فالشعرُ من عنصر في المرج عنصرُهُ
أعياده اليومَ عادت بعدما طُوِيت
حيناً من الدهر أغفى فيه مِزْهَرُهُ

تَلَمَّسَ الْوَتَرَ الْغَافِي فَنَبَّهَهُ
وراح بالسَّلْسَل الصَّافِي يُفَجِّرُهُ
بَقِيَّةَ مَنْ بَنِيهِ ۖ فَهُوَ يُؤْثِرُهَا
بِمُعْجَزَاتِ الْقَوَافِي وَهِيَ تُوْثِرُهُ
قَامَتْ مَهَارِجُهَا بِالْأَمْسِ فَانْتَضَمَتْ
فِي (الشَّامِ) كَالْعِمْدِ يَسْنِي فِيهِ جَوْهَرُهُ
وَجَاءَتِ الطَّيِّيرُ تَشْدُو فِي خِمَائِلِهِ
وَحَطَّتِ الْوُرُقُ تُصْنِيهِ وَتَبْهَرُهُ
وَمَالَ بِالْخَمْرِ مَنْ تَرْجِيْعُهَا (بَرَدَى)
فَكُلُّ قَافِيَةٍ صَهْبَاءُ تُسَكِّرُهُ
حَتَّى إِذَا نَعَقَتْ فِي الْآيِكِ أَغْرَبَهُ
رَأَيْتَ أَطْيَارَهُ وَالْوُرُقَ تَهْجُرُهُ
وَأَقْفَرَ الرُّوْضَ مِنْ طَيْرٍ يُسَاجِعُهُ
وَصَوَّحَ الْغَصْنَ مِنْ زَهْرٍ يَعْطِرُهُ
وَعَادَ مَا كَانَ يُصْبِي الْلَيْلَ مِنْ نَعْمٍ
هَذَا النِّشِيجُ الَّذِي دَمَعًا يُقَتِّطِرُهُ
وَأَرْهَفَ الْلَيْلَ فِي (بَغْدَادِ) مِسْمَعَهُ
وَالْوَتَرَ يُومِي لَهُ ، وَالتَّارَ يَنْظُرُهُ
فَاطْلَعَ الشَّمْسُ ، شَمْسَ الْغَيْظِ ، صَاعِقَةً
هَوَتْ عَلَى (هُبَلِ) صَبْحًا تُدْ مَرَّهُ
حَتَّى إِذَا عَادَ لَيْلٌ رَاقٍ أَلِيقُ
يَسَامِرُ النُّجُومَ فِيهِ مَنْ يَنْتَوِرُهُ
نَادَى بِهِ (بَغْدَادَ) : هَاكِ الشَّعْرُ ، فَاحْتَفِلِي
كَأَمْجَجٍ بِهِ فِي الْبَيْدِ عَبْقَرُهُ

فطافَ بالنَّهرِ حُلُمٌ من (رُصافته)
 ومن عُيُونِ الْمَنَّا والجَسَرِ يَسْهَرُ
 ومن مجالسَ بالسُّمَارِ حَالِيَةِ
 في (الكَرْخِ) ، والفجرُ يدعوها فتنَّهَرُ
 وطافَ بالنَّهرِ حُلُمٌ من هَوَى عَيْقٍ
 ضاعت به قافياتُ الشِّعْرِ تنشرُهُ
 كأنَّ صاحبَ (فَوْزٍ) حينَ أرسلها
 أزجى بقلبٍ ، قوافيه تُؤَطِّرُهُ
 وطافَ بالنهرِ مفتونٌ يذوب جَوَى
 يد (عُتْبَةَ) ، وهْيَ تجفوه وتهجرُهُ
 وما تنكَّرَ للدُّنْيَا وبهجتها
 لو لم تكن (عُتْبَةُ) دنياه تُنْكِرُهُ
 وطافَ بالنَّهرِ غصنٌ غيرَ منقصف
 وإن يكن دقَّ واستوفى مخصَّره
 بينا يتيه دلالةً ينثني مرححاً
 إذا (صريعُ الغواني) قام بهـِـصرُهُ
 وطافَ بالنَّهرِ كَرَمٌ عندَ منقطع
 في (ديرِ كُلواذَ) نجنيه وبِعِصرُهُ
 فإنَّ أفاقَ النَّدَامَى من مُعَتَّقِهِ
 مالَ (ابنُ هانئٍ) وتَلَّ الزِّقَّ ينحَرُهُ
 وطافَ (هارونُ) ، والدُّنْيَا تطوف به
 في موكبٍ يَبْهَرُ التَّارِيخَ منظرُهُ
 يسعى إلى (البيتِ) أو يغزو ، تحف به
 راياته ومواضيه وعسكرُهُ

يُعْشِي السَّمَاءَ بَرِيقٌ مِنْ سَوَابِغِهِ
وَبَيِضِهِ ، وَتَرْجُ الْأَرْضَ ضَمَرُهُ
فَإِنْ سَعَى ، فَتَدَى كَفَيْهِ مَسْتَقٍ
إِلَى (الْعَتِيقِ) ، وَخَوْفُ اللَّهِ يَعْمُرُهُ
وَإِنْ غَزَا ۖ فَالْحَتُوفُ السُّودُ تَسْبِقُهُ
إِلَى الْعِدَا ۖ وَالْفَتْوحُ الْبَيْضُ تُحْضِرُهُ
أَوْ عَادَ ۖ فَالْبُشَرِيَّاتُ الْغُرُ سَابِقَةُ
بِالنَّصْرِ يَخْفِقُ تَيَّاهَاً مَوْزَرُهُ
وَإِنْ أَقَامَ ، أَقَامَ الشَّعْرُ مَحْفَلُهُ
وَبَادِرُ (الْمَوْصِلِي) الْعُودَ يُوتِرُهُ
وَأَقْبَلَتْ طُرْفُ الْأَعْرَابِ لَائِذَةً
بِـ (الْأَصْمَعِيِّ) تَسْلِيهِ وَتَسْحَرُهُ
وَلَأَلَّتْ حِكْمَةُ الدُّنْيَا بِمَجْلِسِهِ
مِنْ أَنْجَمِ عَبَقَرِيَّاتِ تَنْوَرُهُ
سَلَّ الْغِمَامَةَ ، إِذْ ضَنَّتْ بِمُزْنَتِهَا :
أَبْصُرْتُ غَيْرَهُ فِي الْأَرْضِ تُمْطَرُهُ ؟
وَسَلَّ (زَبِيدَةَ) عَنْ (هَارُونَ) مَعْتَكِفًا
يَتْلُو الْكِتَابَ : أَلَمْ يَخْضَلْ مِئْزَرُهُ ؟
خَلِيفَةُ اللَّهِ . . عُرْسُ الدَّهْرِ مُدَّتُهُ ،
لَمْ يُعْرِسِ الدَّهْرُ (كَيْسَرَاهُ) وَ (تَيْمَرُهُ)
وَأَخَذُ النَّهْرَ مِنْ أَحْلَامِهِ سِنَةً
وَبَرَجَعَ اللَّيْلَ بِالْأَحْلَامِ يَغْدُرُهُ
وَبُرْجَفُ الْمَاءِ صَوْتُ مَنْ (عَمُورِيَّة)
لَبَسَتْ نَسْجِيدُ (بَنِي الْعَبَّاسِ) يُثْرِرُهُ

فكانَ للخيلِ في الميدانِ عَشِيرُهَا
 عندَ اللقاءِ ۝ وللطائيِ عَشِيرُهُ
 وانسابَ والموجُ لحنُ هاجَ غيرَتَهُ
 يُغازِلُ (البِرْكَة الحساء) ميزَهرُهُ
 وكادَ يَعتَبُ لولا أَن بَكَى حَزَنًا
 (للجَعْفَرِي) عشاءَ ارتاعَ جُو ذَرُهُ
 ويرهصُ النّهرُ بالبشرى ۝ وقد أَزفت
 نُبوّةُ الشّعيرِ إرهاباً يَحِيرُهُ
 أُحِسُّهُ عندَ حوضي قائماً، وله
 حوضِ سواي يرويه وَيُضدِرُهُ . .
 ما للشَّقِيقِ (الفراتِ) العَذْبُ مكتماً
 أمراً بِشَطَطِهِ يُخَفِّيه وَيُضْمِرُهُ ؟
 وتسبقُ (الكوفة) السَّمراءُ ضَرَّتَها
 وتُهَرِّعُ الجِنَّ للوادي تبشِيرُهُ
 فقد أَطَلَّ على الدنيا ليملاًها
 ويشغلُ النَّاسَ بادي الوجهِ أَسْمَرُهُ
 وترقصُ (الخيل) عاصيها وطَيَّعُها
 ويضحكُ (الليل) داجيه ومُقْمِرُهُ
 وتهزجُ (البِيد) حاديها وأينقُها
 ويكنسي (الشَّعب) أفوافاً تُنْتَضِرُهُ
 وترقُبُ (الحَدَثُ الحمراء) معجزة
 إذا الرَّدَى هَدَّرتِ بالموجِ أبحرُهُ
 ويستحيلُ أَسَى (بغداداً) مفخرة
 وقد رأتِ (حلبُ الشَّهباء) تُكْبِرُهُ
 وتستطيلُ على الدنيا به (حَلَبُ)
 وبالذي ألهمَ الإعجازَ مفخرُهُ

سيفان : هذا (بنو حمدان) تشهره
 على الأعادي ، وذلك (الشَّعْرُ) يشهره
 يا مودعَ الحكمة العليا شواردةُ !
 نَمَّ مِلْءٌ جَفَنَيْكَ . نحن الليلَ نسهره
 ويفغم الشَّطَّ من أرضِ الحجاز هَوَى
 مُهَذَّبُ البَثِّ ، صافيه ، معطره
 تضوع ريح الخزامى وهى تحملُه
 عن (الرُّضَى) ، وتندى وهى تنثره
 ويحلم النَّهْرُ . . حتى الفجر ، مُدَكِّراً
 ويقبل الصَّبْحُ ، مَرَهُوًّا ، يذكره
 اليوم . . يوم القوافي . . فاستعدَّ له
 ويمسح النَّهْرُ جَفَنَيْهِ . . ويذكره

أهلاً ، وفودَ القوافي ، في (مُدَوَّرَة)
 يُطْنَوَى القريضُ فتُحْيِيهِ وتنثره
 لا يظماً الشَّيْعَرُ في أرضٍ ويقصدها
 إِلا ويُرْوِيهِ في (بغداد) كَوَثْرَهُ
 فالشَّيْعَرُ (دِجَلْتُنَا) السَّلْسَالُ مُورِدُهُ
 والشَّيْعَرُ (دِجَلْتُنَا) المختالُ مُصْدَرُهُ
 يا إخوة الشَّيْعَر . . هل تمت مناسكه
 وثَمَّ (كعبته) الأولى (مَشْعَرُهُ) ؟
 وثَمَّة (الحُرَم) اللائى يراد لها
 أن تستباح ■ وبَيْتٌ كان يخفره ؟
 اليوم ، والقَدَرُ الأعلى يُهَيِّبُ به
 لوحدة ، وجلالُ الصَّوْتِ يغمُرُهُ
 تفيض بالدَّعْوَةِ المُثَلَّى مقاطِعهُ
 وبالجهادِ قوافيه وأبحره

أعراس بغداد :

للشاعر نعمان ماهر الكنعاني :

أبيلَ الضَّادُ بِأَمالِ اللِّقَاءِ
فالبَّسِي (بغدادُ) ثوبَ الخُبَلَاءِ
وارفعي الفجرَ خِياماً ، فلقـد
جاءك الرِّكْبُ بمرفوع اللواءِ
واسمعي العلياءَ في موكبِها
تحمِلُ الشَّوْقَ على راحِ الخُداءِ
سعت الرِّيحُ به مزهُوَّةٌ
تنظُرُ البَيْدَ بعَيْنِ الغُلَّواءِ
لم يعد للبَّيْدِ عَيْسٌ ومـدى
يسألانِ الشِّعْرَ عن ظِلِّ وماءِ
غالبِ الجَمُوعِ على أطلـاحِها
بنُـسُورٍ أدركتِ سِرَّ الفُضَاءِ
لا الوَجَى يقربُ من أخفـافِها
لا ، ولا تعِرفُ ما كـدُّ الحَفَاءِ
وإذا النُّوءُ دهاها صرَّصَراً
خففتُهُ بجَنَاحٍ من دَها
وإذا طال السُّرى طـالت لها
صولة تَطْنُوِي السُّرى طَيَّ الرِّداءِ
أعفت الشَّاعِرَ من أوصافِها
ما كُتِبَ الرَّمْلُ ۝ ما وَحَشَ الظِّباءُ ؟
لو درى عنها (عُكاظُ) خبراً
قال : مَهْلاً يادعاوى الشَّعراءِ

واذكُرُوا لي غيرَ ماجودُتُمُ
وصِفُوا لي كيف أرجاء السَّماءِ
أو سَلُّوا (بغدادَ) عن موسمها
فلقد أَلَوَى بِأَيَّامٍ احتفائي
ما أراني غيرَ تَلَمَّاحٍ سهى
عارضَ الشَّمسَ ، ودفاق الضياءِ



إيهِ (بغدادَ) ، وقد هَزَّ اللقا
ألف سرَّ ضاقَ دهرأ بالخباءِ
هاهْمُ فيكَ كما شئتِ ، وما
حُلُمُ المجدِ بِأَيَّامٍ وِضاءِ ؟
هاهْمُ في حلبة الشوق وفي
مُكلِّ صدرٍ نشوةٌ من كبرياءِ
حملوا أُمَّ اللغى مكسوةً
من سنا الإيمانِ من عَرَفَ الإباءِ
تتهادى بين رأي طالع
طلعة النَّصْرِ وعزمِ الإنتخاءِ
تساقاها رَحِيقاً كلَّما
أَوَمَّاتِ يوماً بكأسِ الخُلصاءِ
فسلي الأيَّامَ عن تَسْكَابِها
والليالي باخلاتٍ بالسَّقاءِ
هل نأت حوضاً وجفت منبعا ؟
لا ومن نادى بها صادى حيراء ؟
هيَ نجوى الله فينا ■ وهَيَّ في
صلوات الكونِ ملهوف الدُّعاءِ

تَحَلَّلُ الدُّنْيَا وَمِنْ سَلْسَالِهَا
 تَكْتَسِي الدُّنْيَا بِأَبْرَادِ الْعَطَاءِ
 أَيَّ سَرٍّ إِنْ تَقَصَّيْتُ سَوَى
 سِرِّهَا الْمَحْجُوبِ فِي نَوْرِ الْبَقَاءِ
 ضَمَّتْ (الْخُلْد) فَإِنْ مُنِّيَّتْهُ
 نَاشِدَ (الْفُرْقَانِ) آيَا لِلرَّجَاءِ
 وَائِلُ مِنْهُ مَعْجِزاً إِلَّا لَهَا
 تَرَّ مَا أَهْوَنَ مَجْدَ الْحُكَمَاءِ
 يَا تَعَالَتْ سَوْرُكُمْ شَامَتَهَا
 شَامَخُ الْفِكْرِ فَخْلِيَّ لِلْغَيْبَاءِ
 وَهِيَ بِنْتُ الْوَحْيِ إِمَّا فُيِّصَلَتْ ،
 وَهِيَ أُمُّ الْوَحْيِ عِنْدَ الْاجْتِلَاءِ
 هَاهُمْ كَمْ قَبَسُوا مِنْ لَحْيَا
 جَذْوَةَ النَّصْرِ وَالْآءِ الْعِلَاءِ

جَلَّ شَأْنُ الضَّادِ ! كَمْ وَقَى الْحَمَى
 حَيْثُ لَا مِينَ دَارِيٍّ أَوْ مِنْ وِقَاءِ !
 كَلَّمَا جَاشَ عِدَاءٌ نَحُونَا
 صَرَخَ (الضَّادُ) بِجِيَّاشِ الْعِدَاءِ
 وَأَثَارَ النَّخْوَةِ الْكُبْرَى عَلَى
 طَالِعِ الزَّخْمِ وَصَحَابِ الْبِلَاءِ
 وَتَلَاهَا سُوراً بِاعْثَةِ
 رَاقِدِ الْعِزْمِ قَلْبِيَّ لِلْفِتَاءِ
 فَإِذَا الْعِثِيرُ زَهْوٌ وَشَذَا
 وَإِذَا الْعِيشُ اغْتِبَاطُ الشُّهْدَاءِ

وإذا الآمالُ في أطيافها
 حومةٌ تسألُ عن درب الفداء
 لانتها (الفُصحى) : وهذا عهدا
 جَلَّ عن مَينٍ وخَتَلٍ ورياء
 نسبٌ مارَتْ يوماً ، أو سـلا
 رَحِمًا في حالٍ جَهدٍ أو عناء
 آهةُ (الفُسطاطِ) إنْ فاه بها
 أسمعت (كُوفانَ) صوتَ البرحاء
 وربُّا (صنعاء) إن جفَّت ، سعت
 نحوها (وهرانُ) بالوبل الزَّكاء
 نسبٌ (الفُصحى) : وما غاظَ العدا
 غيرهُ في يومٍ عُسِرٍ أو رخاء



الى اهل المريد :

للدكتور نوري حمودي القيسي :

أ (بغدادُ) ! ماعزَتَ عليك المفاخرُ
 ولا روعتُنا في حِمَاكِ القِواهرُ
 ولا ضايق يوماً في رؤاك مسامرُ
 تناهت الى سمعيه منك مآثرُ
 ولا كابِدُ الشَّوقِ المبرِّحَ عاشقُ
 بسحر لياليك الحسانِ يجاهرُ
 ولا سكنت عند الصَّبَاحِ خِوافقُ
 بها كُـلُّ موصولِ النِّجارِ يناظرُ
 ولا ازدهرتْ إلّا بعزِّكَ نفحةُ
 مكارمُها عندَ النِّزالِ بشائرُ

عَشِيقُنَاكَ عَشَقَ الْوَالِهِينَ أَعْمَزَّةً
وَرَحْنًا بِمَا تَطْوِي اللَّيَالِي نَحَاوِرُ

*

أ (بغدادُ) ! والأبناء شَدُّوا رَحْلَهُمْ
إِلَى كُلِّ وادٍ ، والرُّبُوعُ زَوَاهِرُ
يُغْنُونُ عُرْسَ النَّصْرِ زَهْوَ قَصَائِدِ
وَيُرَوْنَ أَيْتَامًا بِهَا الْعِزُّ غَامِرُ
طَوَّوْا فِي هَوَاكَ الدَّرْبَ كُلَّ حِكَايَةِ
تَذَوُّبٍ عَلَيْهَا مِنْ رُؤَاكَ خَوَاطِرُ
وَفِي كُلِّ رَكْبٍ تَسْتَفِيقُ مَلَا حِمٍ
وَفِي كُلِّ عَيْنٍ تَسْتَطَابُ نَوَاضِرُ
مَشَوْا وَالْهَوَى يَتَخَفَّرُ عِنْدَ خُطَاهُمْ
وَصَوْتُ اللَّقَا تَلْوِي إِلَيْهِ الْمُحَاجِرُ
يَشْقُونُ دَرْبَ اللَّيْلِ تَعْلُو وَجُوهَهُمْ
لِحَاضِ لَيَالٍ فِي رُبَاكِ سَوَاحِرُ

*

أ (بغدادُ) ! حَلَّ الْعَاشِقُونَ رَحَابِنَا
تَشَدُّهُمْ عِنْدَ الدِّيَارِ أَوَاصِرُ
يَطُوفُونَ دَرْبَ (الْكِرْخِ) وَأَنْهَى وَقَدْ مَشَتْ
عَلَى خَطَوَاتِ (الْجَرِّ) مِنْهُمْ حَرَائِرُ
يَجُوبُونَ دَرْبَ (الْأَحْنَفِ) الشَّهْمِ وَالْهَوَى
عَلَى كُلِّ ثَغْرِ مِنْ لَيَالِيكَ حَاضِرُ
وَضَاقَتْ عَلَى أَنْصَارِهِمْ كُلُّ حِيلَةٍ
وَدَارَتْ عَلَيْهِمُ بِالْيَمِينِ الدَّوَائِرُ

فكانت لهم سُودُ الصَّحائفِ صورةً
يَجِدُهَا مِنْهُمْ دَعْيٌ وَغَدْرٌ

■

هواك هوى كُلِّ الأَحبةِ إن زها
وعزُّك يومَ الرَّوْعِ صيدٌ كواسرُ
مشى ظالماً يبغي حِمَاكَ مُضَلَّلُ
ينوءُ به حظٌّ من اليأسِ عائِرُ

فساق إلى الموتِ الزُّؤامِ سوائماً
تضيّقُ بها عندَ اللقاءِ « المشاورُ »
وتعلّمُ أنَّ الموتَ حتفٌ مُقَدَّرُ

وأنَّ الذي تخشاهُ لا بُدَّ صائرُ
وتعلّمُ أنَّ الموتَ يطوي زحوفها
إذا حانَ حَيِّنٌ « أو تحامت مساعرُ

يُسَمِّنِي بها نفساً طوى الغدرُ ذُلَّها
ويأملُ حُلماً أنقلتهُ الجرائرُ

فكانَ على حدِّ (العراق) فناؤها
مُرَّوعها سُمُرُ القنا والهواجرُ
وتتركهم نهياً لكل طريدة

تعيثُ بهم كفُّ الرَّدَى وتعاورُ
وتشرهم في كُلِّ وادٍ أذِلَّةٌ
جوانبهم لا يلتقي والخواصرُ

*

أ (بغدادُ) ! عادت من لياليك ومضةُ
بها كُلُّ ميمونِ النَّقِيبَةِ ظافرُ

حببتك يدُ (المنصور) نصراً مؤزراً
وعزّت بد (صدام) ليالٍ سوافرُ
يباركُها صوتُ البطولةِ إن مشى
ويُسعدُها بالنَّصرِ إن جمارُ جائرُ
ويتحسّمُ إن عزَّ الفدا صولة الوغى
بكفّ براها ناصرُ الحقّ قادرُ
به تستعادُ الذّكريات عزيزة
وأيتامهُ بالعزّ غُرّ حرائرُ
تذكرهم («فوز» العراق) عيونها
ويُسلمهم (جدر) من الشّوق حائرُ
جبن الهوى من كلّ ربعٍ مُحبّبٍ
وطفنَ به عند اللقا وهوَ سادرُ
و (دجلة) في سيفر الزّمان حكاية
لها أوّلُ يروى وماجدٌ آخِرُ

✱

أ (بغدادُ) دارَ الأكرمين ، ولم نزل
بعزّ بنيك الأكرمين نكائرُ
على جانبَيّ مجديك رفّت نواظرُ
ورقّ على (جسرِ الرّصافة) ناظرُ
وعاشت على رقراق (دجلة) بسمةُ
تطوفُ بها من رَقَّتْكِ المشاعرُ
تهدهدها عينُ المها وهني صبوةُ
ويأمرُها صوتُ الهوى وهوَ صابرُ
وتشرُّها زهواً على (الكرخ) مقلّةُ
بها من رُوي ماضيكِ ترقى أواصيرُ

فتغفو على حكم الليالي مكارمُ
وتحنو لعصر الخالدين البصائرُ
على كَلِّ دربٍ من حماك حكاية
وفي كُـلِّ قلبٍ من هواك مشاعرُ

*

يمرُّ بك التاريخ (بغدادُ) حائراً
بأيّ غوالي الحادثات يُحاورُ
ومن أيّ عزٍّ يرتجيك مُحدِّثُ
ومن أيّ زهوٍ يبتدليكِ المبادرُ
تباركتِ أرضَ الله سيدةَ الدنيا
ودارَ سلامٍ لا يَـرِيبُكِ جائرُ
تعالى بك (المنصور) صوتاً على المدى
فكانَ له من عزِّ مجدَيْكِ ناصرُ
وشيدتْ بأيّام (الرشيدِ) مآثرُ
أوائلها لانتقي والأواخرُ
بها جُنْدَ أصلُ (البرمكيين) بعدما
تمادى بفضل الأوفياء (الأكاسيرُ)
يُشدُّ بها عزمُ الرّجال ويحتمي
بقبضتها يومَ النّيزال النّوافرُ
بكل فتى تهفو المنايا اذا رمى
وتعلو به عند الفخار المآثرُ
بهم ترتجى عند الشّدائد صولةُ
ويعنو لهم هولُ الرّدَى وهُوَ صاغِرُ .

■

أ (بغدادُ) ! يا عِزَّ الليالي ، أَلتَقِي
 ففِيكَ مِنَ الشَّوْقِ الدِّفِينِ زَوَاخِرُ
 ذُرّاً المَجْدِ فِي فَخْرِيكَ تُرَوِّى مَلاحِمُ
 وَعِزَّ المُنَى فِي مِعْصَمَيْكَ أَسَاوِرُ



بغداد :

للشاعر سليم الزركلي :

أَحَقّاً تَرى (بغدادَ) ، أَمْ أَنْتِ حَالِمُ ؟
 و (بغدادُ) « يا قَلْبِي » المَوَى والمَعَالِمُ
 مَعَالِمُ أُمَاجِدٍ ، وَدُنْيَا حَضَارَةٍ
 أَضَاءَ بِهَا دَهْرُ العِلا « والمحارِمُ
 تَغْنَيْتُ ، والبِيداءُ تَفْصِلُ بَيْنَنَا ،
 فَهَاتِ ، وَأَنْتِ اليَوْمَ جَدْلانُ نَاعِمُ
 أَدْرِهَا كُؤُوساً ، بَارِكِ اللهَ نَفْحَهَا
 مِنَ الوُدِّ ، والأَمْشاجُ نَشْتَوِي تَنَاغِمُ
 فَكُمِ الْكَ فِي أَظْلَالِهَا مِنْ مَنَاعِمِ !
 وَكُمِ طَابَ فِي الْكَ كَرَى هَوَى وَمَنَاعِمِ !
 أَنَا جِيكَ ، يَا أُمَّ المَدَائِنِ ، والرُّؤَى
 تَهْتَشُّ لَهَا أَرْوَاحُنَا والمَبَاسِمُ
 رُؤَى فِي طَرِيقِ المَجْدِ تُزْهِى رَوَائِعاً
 وَخَيْرُ جَدِيدٍ مَا بَتَتْهُ العِزَائِمُ
 وَأَرْجِعْ لِلْمَاضِي ، فَاسْجُدْ خاشِعاً
 وَحَقُّ لِمَاضِيكَ الرُّقَى والتَّمَنَائِمُ
 زَمَانَ شَدَا بِالشِّعْرِ فِي كُلِّ مَنَبَرٍ
 أَخُو (عَبَقَرٍ) ، والشِّعْرُ بِالمَجْدِ هَائِمُ

وَعَتْنِي هَزَارُ الشَّعْرِ فِي كُلِّ رَوْضَةٍ
 وَطَرَبَتِ الْأَفْلاكَ فِيهَا الْحَمَائِمُ
 وَطَوَّفَ فِي سُوحِ الْفَتْوحَاتِ أَعْصَرُ
 تُسَاقُ إِلَى جَنَّاتِهِنَّ الْغَمَائِمُ
 وَدُنْيَاكَ - يَا (بَغْدَادُ) - وَالْدَّهْرُ طَيِّعٌ
 تَشِيدُ وَتَبْنِي ، وَالْحِظْوُظُ كَرَائِمُ

*

أُ (بَغْدَادُ) ! عُرْسٌ فِي رِجَابِكَ قَائِمٌ
 وَهَذِي بَنَاتُ الْفِكْرِ فِيكَ نَوَاطِمُ
 تَحْيِيكَ ، وَالْآمَالُ خَفَقَ حُرُوفُهَا
 وَتُنْشِدُ لِلْأَزْمَاتِ ، وَالرُّوحُ بِاسْمِ
 وَتَرْقُبُ لِلْفَجْرِ الْأَنِيقِ مَطَالِعاً
 بِبَهْنٍ فُصُولٌ لِلْعَلَا وَمَوَاسِمُ
 عَسَى يَلْتَقِي مَاضٍ وَأَتٍ ، فَتَشْتَفِي
 قُلُوبٌ لَهَا خَلْفَ الضَّالُّوعِ مَآثِمُ
 تَحْيِفُهَا جُورُ الْحَوَادِثِ ، فَانْبَرَتْ
 تُصَارِعُ أَفْوَاجَ الْأَذَى وَتُخَاصِمُ
 وَتُتَصَرَّخُ الدُّنْيَا : لَعْلَ فَيَا الْقَا
 تَحْسُ ، فَتُشْتَاقُ الصِّبَالُ صَوَارِمُ
 أَضَاعَتْ عَلَى الْأَفْصَى عَهْدَ كَرَامَةٍ
 وَهِيَ هَاتِ أَنْ يُنْسَى الْأَسَى وَالْمَظَالِمُ
 وَلِلْوَجْدِ فِي أَحْنَائِهِنَّ مَجَامِيرُ
 وَمَنْ لَعْمِيدٍ أَثْقَلَتْهُ الْمَغَارِمُ ؟

■

نشدتك للودّ القديم ، واللهوى
 وبين ضلّوعي من هواك عوالمُ
 أدغدغها ، والفجرُ بعد ملثّم
 وأوقظها والذكرياتُ حوالمُ
 و (دجلةُ) يَسْري ، والسّخيلُ مُهِيمُ
 والسّبحرُ في أعطافهنّ نواسمُ
 وفوقَ خدودِ النّهرِ راقصُ شعلة
 خواطرها تحتَ العُبابِ بواسمُ
 وقلبي ، في أشواقه ، يَضُوءُ صَبْوتِي
 وهَلْ تَسْتريحُ الطّيرُ ، وهَيَّ جِوائِمُ ؟
 تحيّةُ أعراقٍ وعِطرُ أواصرِ
 أسَقِيكَ ، يا (بغداد) ، والوجدُ عارمُ
 فقي (بردي) و (الغوطتين) مشاعرُ
 تَرَفُّ ، فما تقوى عليها السّائمُ
 نحنُ لأيامِ خلتْ من عهدِها
 وأنتِ نَجْاواها ، وأنتِ الدّعائمُ
 وليس سبيلَ الحُبِّ هجرٌ وفرقة
 وليس شِعَارَ الأكْرَمينَ سَخائمُ
 هَبِّي للعلا دهرًا يَضُوعُ أريجُه
 تَطْيِبُ به أجيالُنا والعواصمُ
 وخاتِي الجوى بِحَرْقِ كُبُودِ عواذِلِ
 وتُثْرِقُ بالغيظِ الدّفينِ نِوائِمُ
 ونحنُ على حالٍ من الودّ تستقي
 نوافحه أنجادُنا والتّهائمُ

فقد تعظمُ الأشياءُ ، وهي صغائرُ
وقد تصغرُ الأرزاءُ وهيَ عظامُ
وما الحزمُ إلا أن نضمَّ شتاتنا
فتسعدَ أوطانُ بنا ومشائمُ



الى بغداد :

للشاعر احمد رامى :

في هوى (بابل) وحبِّ (النواسي)
جئتُ أسري على هُدَى إحساسي
أملأ العينَ من مباحجِ (بغدا
(د) ، وأسعى إلى حِمى (العباس)
وأرى (دجلة) الذي فاض بالحىـ
ير عليها ، وماج بالإناسِـ
ورفاقاً إلى فؤادي أحببنا
ء ، على العين ودُّهُمُ والرأسِـ
جمعنني بهم ديارى ، فكانوا
في مراح الصبّا أعزَّ الناسِـ
فيهمُ حافظُ الحميلِ ، وفيهم
صادح فوق غُصْنِهِ الميَّاسِـ
ذاك يلقي البيان سحراً ، وهذا
يزنُ المشجيات بالقسطاسِـ
لم أزرهم من قبل هذى ، ولكن
سبقني إليكم أنفاسيـ
رددتها صداحة الشرق أنعا
مأ عذاباً نديّة الأجراسِـ

هيّ قلبي يذوب في اللحن وجسداً
ودموعي تجرت على قيرطاسي
أنا أودعتها حينني إلى (بغد
سداد) ، في عهدها الجليل الماسي
حيث (هارون) في سنّي علاه
سيد الشرق في الندى والباس
و (دنانير) في المقاصير تشدو
بالنسيب الشهي من (عباس)
والجوارى يرسلن وسوسة الحـ
لني ، ويرفئن في بهيّ اللباس
يتهادين في الغلائل أطيا
فأ تراءى لسابح في نعباس
ويردّدن ساحرات الأغاريـ
سد على وقع ميزهر ونحاس
هنّ في الروض بلبل يبعث الشجن
مو ، وفي الحيدر شادن في كيناس
ليه (بغداد) ، والليالي كتاب
ضمّ أفراحنا ، وضمّ الماسي
عبّث الدهر في بساتينك الغنا
ء ، والدهر حين يعبث قاس
ودهاك (المغول) بالطلعة النكـ
راء يبعثون قطف ذاك الغراس
فتصدّيت للغزاة ، وجابهمـ
مت أذاهم مثل الجبال الرواسي

ثُمَّ نَافَحْتَ عَنْ حِمَى الْحَقِّ وَالشَّرِّ
 قِ ۖ وَأَصْبَحْتَ شَعْلَةَ النَّبِيرِ اسِرِ
 يَقْبِسُ الْقَابِسُونَ مِنْكَ سَنَنَا الْعِلْمِ
 سَم ، فَتُعْطِيهِمْ بِلَا مِقْيَاسِ
 وَتُدِيرِينَ فِي الْوُجُودِ مَتَنَاراً
 ثَابِتَ الرُّكْنِ مُسْتَقِرّاً الْأَوَاسِي

✱

يَا بَنِي الْعَمِّ ! آتَ أَنْ نَجْمَعَ الشَّمَمَ
 لَ ۖ وَبَنِي عَلَى مَتِينِ الْأَسَاسِ
 فَاصْنَعُوا الْمَعْجَزَاتِ مِنْ عِزِّ مَنَا الْمَا
 ضِي ، وَمَنْ صَبَرْنَا وَطُولِ الْمِرَاسِ
 وَصِلُوا وَاسْتَقْلُوا سَفِينِ النَّ
 ضَرَّ نَبْلُغْ بِهَا أَمِينَ الْمَرَاسِي
 ثُمَّ نَعْلِي لِلْعُرْبِ أَعْلَامِ مَجْدِ
 وَنَحْيِي مَعَالِمَ الْأَعْرَاسِ
 وَأَنَا بَيْنَكُمْ أَرْدُ شَعْرِي
 وَعَلَى ذِكْرِكُمْ أَشْعِشُكَ كَاسِي !

★

يلبي :

للشاعر صالح جودت

وَحَقَّ الَّذِي عَقَدَ الْأَصِيرَهُ
 وَوَحَّدَ (بِفِدَادَ) وَ (الْقَاهِرَهُ)
 دَعَانِي إِلَيْكُمْ بَنِي (الرَّافِدِيَّةِ)
 - (حَنِينٌ لِكَأْسِهِمَا الْعَاطِرَهُ)

ويا طالما كان حلمي (العراق)
 وأمنيّتي هذه الحاضـرة
 فلمّا قضاهـا ليّ المهرجان
 رَكِبْتُ لها الفرحة الطّائرة
 أسائل : أين ليالي (الرّشيد) ؟
 وأين ملاعبه الزّاهـرة ؟
 وأين النّدامى ؟ وأين العبيـد
 يدُ يطوفون بالكأس والنّادـرة ؟
 وأين (زبيدة) فوق البـساط
 تجرّ أذيالها الفاخـرة ؟
 وأين (دنائـر) في سـحـرها
 كأنّي بها (سومة القاهـرة) ؟
 وأين الجوّاري يـلـدّـن الفـتـون
 ويُرْقِصْنَها كالمـها النّافـرة
 وهن المدافئ في الزّمهرير
 وهن المـراوح في الهـاجـرة



سهرت أسامر هذا الخيال
 وأحلم بالصّورة الباهـرة
 إلى أن غزا الفجر ليل (العراق)
 وأطلع أنواره الباكـرة
 ومن خلفه أقبلت (شهر زاد)
 كأجمل ما تُقبـل الزّائـرة

وراحتُ تحدُّثُنَا بالجديد
 وخلَّتْ أساطيرَها الغابرةُ
 وقالتُ : لقد راح عهد (الرَّشيد)
 وفضَّتْ طلائعنا سامرةُ
 فإِنَّا نفضنا زمانَ العبيدِ
 ودارت على ليله الدائرةُ
 وإنَّا زرعنا المني والكسرام
 في العزم في الهمم الخائرةُ

*

أَطِيلِي الروايةَ يا (شهر زاد)
 وزُفِّي البشائرَ يا قـادـرةُ
 وقُصِّي علينا حديثَ الجلالِ
 وأنشودةَ الثورةِ الحاضرةُ
 ولا تسكُتي إن أطلَّ الصِّباحُ
 وأطفأَ مُشكاتكِ السَّاهرةُ
 أَطِيلِي ، ولا ترهَّبي (شهر يار)
 ولا بَأْسَ أسيفه الباترةُ
 فإِنَّا طويْنَا زمانَ الطغاةِ
 ودُسْنَا رؤوسَهُمُ الفاجرةُ
 فإن تسألِي : مَنْ ولايةُ الأمورِ ؟
 فإنَّ الشُّعوبَ هيَ الآمرةُ

بغداد :

للتشاعر محمد التهامي :

هذا الجمال . . عرفته وألفته
ورأيت أكثره - (مصر) وذقته
لوام أرِدْ هذا الحمى ، وسألتنى
عما احتواه من الجمال ، وصفته
أو جي . لي يوماً ببعض أرابه
وأنا البعيد ، شمته . فعرفته
لو لم يقولوا : أنت فيه لهزني
رغم البعاد أريحه فلكثمته
(بغداد) ما طول الطريق ، وفي دمي
شيء - بمغناك الحبيب - وجدته
فلأنت (قاهرتي) وحبك قاهر
في كل خفقة نابض أحسنه

بلدي . ولو رفع العمدو جداره
بيني وبينك للسماء عبّرتنه
وفتاك يا (بغداد) بين جوانحي
لو كنت أدعوه الشقيق ظلمته
بل إنّه بعضي وإني بعضه
قد كان في هذا الوجود وكنّته

ما كان ماقد كان غير تمزق
في أضلعي أحسنه وبكيتنه

إن بعثوا جسدي ، فغايةُ جهدهم
 فالقلبُ ، رغمَ أنوفِهِم، وحدثُهُ
 وطخت أشواطَ الحدودِ بواحد
 ما خُنْتُه يوماً ولا قَسَمْتُه
 من فوق أمواج (الخليج) وصخره
 حتى انطلاقات (المحيط) بسطتهُ
 يسعى لوحده فيخمد صوته
 فيصيح في كلّ المسامع صمتهُ
 أصغني إليه بكلّ حسّ نابض
 وإذا أصخت إلى القبور سمعتهُ
 هذي حقيقتنا تجلجل حولنا
 كالرعد يحتاج المكابرَ صوتهُ
 من كان فينا لا يُحسّ نداءنا
 سيانٍ منه حياتهُ أو موتهُ
 والسارقون لنا يُجنّ جنونُهُم
 ويُقض مضجعَ أنبيهِم ما قلتهُ
 هم موقنون بأنّ غايةَ أمرهم
 موتٌ يَحِينُ مع التَّوَحُّدِ وقتهُ
 ولذلك ، كل مُضَلَّلٍ بسمومهم
 يبدو لوحده قِلاه ومقتتهُ

■

التاهبون تسيلُ في أنيابهم
 حرّيةُ الشعبِ الكريم وقوتهُ
 الدّائبون على الصّراع يحيطنا
 ويُهزّ كلّ حياتنا جبروتُهُ

لِمَا حَيَاتُهُمْ ، وَلِمَا عِشْنَا
 يَاوِيلَ مَنْ رَكَّبَ الْحَيَاةَ يَفَوْتُهُ !
 عاشوا على دَمِنَا السَّنِينَ ، وفاتهم
 أَنَّ الْمُؤَدَّبَ لَنْ يَطُولَ سَكُوتُهُ
 والحقَّ مهما زلزلت أركانَه
 لأُبدَ - يوماً - أَنْ يَبْحِينَ ثُبُوتُهُ
 وصياحُ أبواق الضَّلَالِ ■ مصيرُهُ
 مهما استمرَّ به الصَّرَاخُ ■ خُفُوتُهُ
 هذي طبيعة كلِّ حَقِّ ، حكمة الـ
 دَيَّانِ ما يجرى به مَلَكُوتُهُ
 لانْفِرَ عَنِّ مِنَ الْعَوَاصِفِ إِنَّهَا
 زَيْفٌ ، عَرَفْتُ خِيَادَعَهُ فَكَشَفْتُهُ
 هم يكذِبُونَ ، فلا تَصَدِّقْ قَوْلَهُمْ
 ما كنت جئت ، لو انني صدَّقْتُهُ
 هم يسرقُونَ ، فلا يَغُرَّكَ مَا لَهُمْ
 كم قَدَّمَوهُ لَنَا ، وقد حَرَمْتُهُ
 لا تَرْهَبْنَهُمْ وَتَخْشَى جَيْشَهُمْ
 هذا الدَّعِي ، صدمته فَضَرَعْتُهُ

■
 إِنَّ الْقَوَى هُوَ اتِّحَادُ كِيَانِنَا
 فَأَنَا وَأَنْتَ ، صَنَعْتَهُ ، وَصَنَعْتُهُ
 من نور أحلامي ، وطول تطلَّعي
 وَحَصَادِ أَيَّامِي الطِّوَالِ جَمَعْتُهُ
 من كلِّ سَاعَةٍ شَدَّةٍ قَضَيْتُهَا
 من كلِّ مِضَّةٍ مَخْرَجِ الْهَيْمَتِ

من قبضة السَّجَّانِ ، من جَبَرُوتِهِ
 من قسوة الطَّغْيَانِ قد أخرجتهُ
 من خيرِ أوطاني يَسِيلُ لغيرها
 ولها الجفاف ، عصرتهُ وشَرَّ بتهُ
 من لفقةِ الظَّمآنِ في وهَجِ اللظى
 من صرخةِ الجَوَّعِ ، يُسْرِقُ قُيُوتَهُ
 من لاجيءِ نَهْشِ الذَّئَابِ عظامَهُ
 لما غدا نَهَبَ الضِّياعَ مَبِيتَهُ
 خطَّت وصيَّتهُ الدِّمَاءُ لِيَتَّقِي
 هذى النَّهَابَةَ مَنْ نَأخَرَ موتهُ



بغداد :

للشاعر احمد اللغماني :

عرفتك (بغداد) منذُ اكتشف
 ستُ بأتني منك ، وأنتكِ مني
 فعشت بأخيلَيتي واقِعاً
 وإن لم يكحل بمرآك جَفَنِي
 وما كنتِ أسطورةً في خيالي
 ولا كنتِ وهماً يخامر ظنِّي
 فإني بنيتُك في خاطري
 وأفراغت فيكِ روائعَ فنِّي
 بنيتُك من لبناتِ الهوى
 ودعمت من صبوتي كلَّ ركنِ

وخططت في خطرتي كلَّ حَيٍّ
 وهندستُ في وحدتي كُلَّ حِصْنِ
 ومددتُ بين المباني الدروب
 وظللتها بالوريفِ الأَغْنِ
 حملتُك في منظوى فكرتي
 وضمتُك من خافقي خيرُ حِصْنِ
 حملتُك كُلاًّ بأجزائه
 فما غاب جزءٌ ولا نَسَدٌ عَنِّي
 أراك إذا ما تسرّبت ليـلي
 وإِما تلحّف بالصّمتِ كَوْنِي
 وأغمض عيني ، فأبصرُ ما فيه
 لك ۝ ما في مغانيك من كلِّ حُسْنِ
 وأعرفُ كلَّ طريقٍ أروُدُ
 وأعرفُ ما ضمّه كُلُّ سَكْنِ
 رأيتُك (بغداد) رؤيا اليقينِ
 ورؤيايَ صادقةٌ لم تَخُنْني
 فتَيسّمتَني ، وفتنت الجوا
 نِجَحَ ، من قبل أن تفتني المقاتينِ
 عرفتُك (بغداد) منذ اكتشفت
 بأنّي منك ، وأنتك مِنّي

*

أيتك (بغداد) أركبُ شوقي
 أخفّ جناح ، وأسرعَ متنِ
 يَدِفُ بركبي غرامٌ مُلِحٌ
 ويدفعُني لك حُبُّ مُعَنِّي

تَحَيَّرْتُ لَمَّا اعْتَزَمَتِ الرَّحِيلَ
وساءتُ نفسي ، فما أَسَفْتُني
بماذا أَجِيء ؟ وأيُّ الطَّرائدِ
ف تُرْضِي ؟ وأيُّ النَّفَاسِ تُغْنِي ؟
أَحْمِلُ مِنْ رَمْلِ شُطْآنِنَا
صِرَاحَ النَّضَارِ ، وَمَحْضَ الدَّجَيْنِ ؟
وَأَذِرُوا عَلَيَّ ضَفَّتَيْ (دَجَلَة)
فَأَجْمَعُ مَا بَيْنَ خَيْدِنٍ وَخَيْدِنٍ
وَهَلْ أَنْقِي لَكَ أَنْضَرَ زَهْرٍ
تَفْتَحُ فِي غَصْنِهِ الْمُتَشَنَّبِي
مِنَ الْوَرْدِ ، وَالْقُلِّ ، وَالْيَاسَمِي
نَ ، فَأَنْشُرُ فِي كُلِّ سَهْلٍ وَحَزْنٍ ؟
وَهَلْ أَغْتَدِي « لَلْعَتَابَا » بِلَحْنِ
هُوَ السَّحَرُ فِي نَبَرَاتِ الْمَغْنِي
بِنَغْمَةِ « مَا لَوْفْنَا » الْمَغْرِبِي
بِهَمْسِ الْحَمَائِلِ فِي الْجَنَنَيْنِ
لَقَدْ ظَلَلْتُ دَهْرًا يَنْجِي فِرَادِي
س (أَنْدَلُس) بَيْنَ نَبْعٍ وَغُصْنٍ
وَحَطَّتْ عَلَى الرَّوْضِ ذَاتُ صَبَاحٍ
مَنَاقِيرُ نَحْسٍ ، وَغِرْبَانُ بَيْنِ
فَقَفَرٍ مَهِيضٍ الْجَنَاحِ طَرِيداً
وَحَطَّ بِهِ (نُؤْس) جَنَّةَ عَدْنٍ
وَهَلْ لَكَ (بَغْدَادُ) فِي نَوْرِ فَجَرٍ
تَبْلُجُ بَيْنَ قَنَامٍ وَدَجْنِ
وَأُثْرِقَ مِنْ جِبْهَةِ حُرَّةٍ
فَأَعْظِمُ بِهِ هَيْبَةً دُونَ مَنْ

جبينٌ أَشَمُّ ، عطاءٌ عريضٌ
 يَجُودُ الزَّمانُ بِهِ بَعْدَ ضَمْنِ
 يَفْدِيهِ مَنِّي أَعَزُّ عَزِيْزِ
 بَقايا شَبابي ، وإِنسانُ عَيْنِي
 هُوَ الفَجْرُ (بَغدادُ) سِرُّنا عَلَيْهِ
 بِعِزِّ جَدِيدِ كَيْشِيدُ وَتَبَنِّي
 هَدَيْتُنَا لَكَ - يا أُخْتِ (نُؤو
 نُؤس) - مِنْ كَدِّ (تُونُس) لَهْطِ أَيْنِ
 وإِيمانُ (تُونُس) أَنْ المطامِ
 حَ تَدْرُكُ بِالْجَهْدِ لَا بِالْتَّمَنِّي
 مَصيرُ ابنِ آدَمَ رَهْنُ يَدِيهِ
 وَمَا الحِظُّ إِلَّا أَباطِيلُ مَيْسِنِ
 هُوَ «الْقَدَرُ الحَتَمُ» قالَ القَنُوعُ
 بَلْقَمَةُ ذُلِّ وَجُرْعَةِ غَبْنِ
 عَقِيدَةُ مَنْ خَرَبُوا دَوْرَهُمْ
 بِأَيْدِيهِمْ فَقَضَوْا مَرَّتَيْنِ
 عَقِيدَةُ عَجْزٍ ، وَشَرْعَةُ ذُلِّ ،
 وَتَقْوَى نِفَاقٍ ، وإِيمانُ جُبْنِ
 أساطيرُ قَدْ خَدَّرَتْ عَزْمَنا
 رَمَتْنَا بِضَعْفٍ ، دَهَتْنَا بِوَهْنِ
 فَأَقْدارُ رَبِّي - وَسُبْحانَ رَبِّي -
 لَيْسَتْ قِضاءٌ يُبِيدُ وَيُفْسِدُ
 وَلَكِنَّمَا هِيَ أَعْمالُنا
 عَلَيْها نَكافَأُ وَزَنَّا بِوزْنِ



بغداد :

للشاعر احمد السقاف :

(١)

(بغدادُ) يا أزكى من المَلابِ
يا حُلوةً كأنَّها في فمِ عاشقٍ رُضابُ
لاتسألِي الفُؤادُ !
إنِّي حملتُ الحُبَّ قبل مولدِ الشَّبابِ
وكنْتُ مفتوناً بسحركِ الغريبِ
والنَّفْسُ يا (بغدادُ) في عذابِ
سلي الرفاقِ والصُّحَابِ
والله ما نسيتُ (شارعَ الرَّشيدِ)
(و) (الكرخَ) و (الصُّلَيْخَ)
ولا نسيتُ الثُّوتَ والأزهارَ والتَّخِيلَ
(و) (دجلةَ) الأصيلَ
لاتسألِي الفُؤادُ

(٢)

(بغدادُ) يا ساحرةَ الأزمانِ والدُّهورِ
يا قِصَّةً تُروى على مدى العصورِ
لقد حللتِ في الفُؤادِ
حروفك الخمسة يا (بغدادُ) في الضَّميرِ
مغروسةٌ تُثيرُ في الأعماقِ ما تُثيرُ
يا وِجْهَةَ العِبادِ !

يا حُلوةً كأنَّها في فمِ عاشقٍ رُضابُ
مهما تحكَّمتِ القَدَرُ
وطال ليلُ البُعْدِ والأشواقِ والسَّهرِ
فأنتِ يا (بغدادُ) في العيونِ
هيهاتِ أنسى الحُبَّ والنِّصالَ والشُّجُونِ
والشَّقِّقَ الآسِرَ والقيابِ !
(٣)

(بغدادُ) يا عاصمةَ (المنصورِ) و
(الرَّشيدِ)

يا كعبةَ العلومِ والفنونِ والأدبِ
(بغدادُ) يا أنشودةَ العَرَبِ
أقسمُ يا (بغدادُ) بالأنفالِ والفلَقِ
إنَّ جَمالَ المُدُنِ المزخرِفَةِ
أصبحَ يا (بغدادُ) في قَلَقِ
والكعبةِ المُشرَّفَةِ
فأنتِ أحلى ألفِ مرةٍ من الجَمالِ
فحسنُكِ الإِعجازُ والخيالُ
وصيبتُكِ العاطرُ في فمِ الخُلودِ
يزهو بكلِّ مُدهشٍ تليدِ
وينشرُ الطَّريفَ والجديدُ

(*) شارك الشاعر بهذه القصيدة في أمسية شعرية أقيمت في نادي كلية الآداب مساء ١٦/١١/١٩٨٥ وقد رأس وفد الرابطة الأدبية الكويتية ، وبثها « تلفزيون » بغداد مساء اليوم التالي .

(٤)

(بغداد) يا رفيعة الأُصول
يا ضجّة عظيمة في مِسْمَعِ الزَّمَنِ
من الذي يجهل ما قدّمت من ؟!
أبناؤك الأبطال كالسُدود !
يحطّمون الحِقدَ والأطماعَ والفِتنَ
ويرفعون رايةَ العَرَبِ
شامخةً منصورةً على الحدود
نُسُورُهُمْ إِنْ حَلَقُوا صَوَاعِقُ
الغَضَبِ

صولاً لهم تزلزلُ الجبالُ
ويكتبُ التاريخُ في دُهورٍ !
أسطورةٌ خلّدها (العراق) في القتال !
بقائده لا يَعرِفُ المُحال !

(٥)

العفو يا (بغداد) إِنْ تَنَكَّرَ الشَّقِيقُ
وأغمض العينين في جُحودٍ
وأنكَّرَ الوحدةَ والإخاءَ

واختار في المِجاءِ خندقَ العِدا
فالعُربُ يا (بغداد) تعرِفُ الطَّرِيقَ
وتكشِفُ التَّخريبَ والغِباءَ
والخُطْبَ التي يمجِّها السَّمَاعُ
فكم شبيعنا خُطْباً هي الوَباءُ !
مُثْقَلَةٌ بالكِذِبِ والتزيفِ والخِداغِ

نَعَصِرُهَا فيصرُخُ الهُزالُ
ويخجلُ السَّائلُ والسَّوَالُ
ويضحكُ العَدُوُّ والصدِّيقُ !

(٦)

يا أيُّها اللاهون بالتَّشديدِ
والمنطِقِ المشوِّهِ البليدِ !
لو لم تَقِفْ (بغداد) موقفَ الفِداءِ
لكانتِ الأيَّامُ كُلُّها سوادُ !
وانتحر الإِبَاءُ والرَّجَاءُ !
وراحت الأمجادُ تُعَلِنُ الحِدادَ
ومات في (الكويتِ) و (القطيفِ)
و (الرِّفَاعِ)

غناءً بحارٍ يهددُ الشِّراعَ
فليس عندَ المخلصينَ موقِفانُ
وايس عندَ الثَّائرينَ خندقانُ
لو لم تكن (بغداد) قلعةَ الدِّفاعِ
لضاعتِ الأُمَّةُ في البُضْيَاعِ !

(٧)

(بغداد) إِنْ تطاولَ الظُّلَامُ
وحاربت رموزهُ مَساعي السَّلَامِ
فالنَّصْرُ يا (بغداد) قد ظَهَرَ
يُطِلُّ يا (بغداد) من (مِيسانَ)
كالقَمَرِ

لن تسقُطَ (البصرة) في يدِ الغُزاةِ

ولنْ تَمُوتَ فِي عَيُونِنَا الْحَيَاءُ
فَالْحَرْبُ إِنْ جُنَّتْ فَهَمُّ لَهَا حَطَبُ
هَمُّ الَّذِينَ كَدَّرُوا الْجَوَارُ
وَمَزَقُوا وَسَائِلَ الْحَيَوَارِ
وَطَنَطَنُوا بِالْدِّينِ تَمْوِيهًا لِنُصْبَحَ
السَّلْبِ !

أَهْمُ بِنَاةُ الدِّينِ أَمْ نَحْنُ الْعَرَبُ ؟
عَجَبَ عَجَبَ !!

(٨)

(بغداد) يَا شَمُوحَ أُمَّةِ الْعَرَبِ
يَا مَجْدَهَا الْخَالِدَ فِي الدَّهْورِ

قُصِّي عَلَيْنَا كَيْفَ مَزَقَ الْغَزَاهُ
وَكَيْفَ صَالَتْ فِي الْمَعَارِكِ الْأُسُودُ
حِينَ تَغَطَّى «الْمُورُ» بِاللَّهَبِ
وَاحْتَرَقَتْ مَطَامِعُ الْهَجُومِ وَالْعُبُورِ
بَصُولَةَ نَفْسَ ذَاهَا الْأُبَاهُ
وَصَارَتْ الْقُلُوبُ خَارِجَ الْحُدُودِ
وَزَغَرَدَتْ (دَجَلَةُ) فِي سُرُورِ !
وَطَاطَأَ الْغَزَاةُ فِي انْكَسَارِ
لَا تَهَمُّ لَيْلٌ يُحَارِبُ النَّهَارُ
لَا تَهَمُّ لَيْلٌ يُحَارِبُ النَّهَارُ !

بغداد في الشعر

كتاب جمعت موادّه من مصادر متعددة ليصدر في احتفالات « بغداد والكندي » سنة ١٩٦٣ م ، وقررت لجنة الاحتفالات نشره . لكن تأخر طبعه لظروف خاصة . وقد حذفت منه فصولاً وقصائِدَ ، وأضفت إليه أخباراً وقصائد أكثرَ موضوعية .

وستظل بغداد عروساً ملهمة للشعراء والكتاب المؤرخين .

وفي مطلع المئة الخامسة عشرة ، اقترح الأستاذ العلامة محمد بهجة الأثري أن يتولى المجمع العلمي العراقي نشره في جملة الكتب التي قرر نشرها بمناسبة قراره الاحتفال بـ (بغداد ومؤرخها الخطيب البغدادي) ، وقد أقر المجمع اقتراحه . وأنجز طبع الكتاب بإشرافه وإخراجه .

فالى الأديب الكبير الصديق أقدم جزيل الشكر وصادق الحمد ، والى المجمع ورئيسه الشكر والامتنان ، ومعدرةً للشعراء الذين لم اختر لهم لأسباب الطبع .

جمال الدين الالوسي

مضامين الكتاب

(١)

تقديم

بغداد •• مدينة السلام : قصيدة الأستاذ محمد بهجة الأثري ٧ - ١١

(٢)

تمهيد المؤلف

في أسماء بغداد ، وأوصافها ١٣ - ١٨

(٣)

الباب الأول - بغداد في الشعر العباسي

(٢١ - ١٥٣)

شعر عمارة بن عقيل ٢١ - بغداد جنة الأرض ٢١ - ٢٢ وصف البشاري
بغداد وأهلها ٢٢ - تحيا النفوس بريها ، لعمارة بن عقيل ٢٢ - الدنيا بأجمعها
بغداد ، لابن زريق الكاتب ٢٣ - بغداد منبسط الآمال ■ لشاعر غير مسمى
٢٣ - هي البلدة الحسنة ، لظاهر بن المظفر الخازن ٢٤ - فارّق بغداد
ففارّق الجنة ، للعكوك ٢٤ - لذات بغداد ، لأبي نواس ٢٤ - السفن
والحراقات في بغداد وشعر أبي نواس في الحراقات ٢٥ - جسر بغداد ،
منثور لعبد الملك بن صالح العباسي ■ وشعر لعلي بن الفرّج الفقيه ٢٦ - من
دخل بغداد ٢٧ - شعر القاضي عبد الوهاب المالكي في فراقها ٢٧ - بغداد
معدن كل طيب ، للخطيب البغدادي ٢٨ - أيرحل ألف ؟ لعبيدالله بن عبدالله
ابن طاهر ٢٩ - لهف نفسي ، لأبي اسحاق الصابي ، وبيتان لشاعر مجهول
الاسم ٣٠ - بيتان للبياضي ٣١ - ابن الرومي يحنّ الى بغداد ٣١ - يوم

ببغداد ، لطيع بن اياس ٣١ - أنست بالعراق ، للقاضي علي بن النيه ٣٢ -
 آهاً على بغداد ١ لبعض شوارع بغداد ٣٢ - محلة باب الطاق وشعر عبدالله بن
 طاهر في القمرية ٣٣ - أبكي على بغداد ، لاسحاق الموصلي ٣٤ - معجز أن
 ترى لبغداد مثلاً ، لعلي بن الحسين الواسطي ٣٤ - أراجعة تلك الليالي ؟
 للقاضي عبد العزيز الجرجاني ٣٤ - سأغفر للأيام ، للقاضي عبد العزيز
 الجرجاني ٣٥ - مرأى بغداد من دجلة ، للسلامي ٣٦ - دجلة والقمر ، للقاضي
 التنوخي ٣٦ - بيتان لمنصور ٣٦ - في ذمّ بغداد ، ٣ أبيات لبعض الصالحين
 ٣٧ - وللمفاليس دار الضنك والضيق ، للقاضي عبد الوهاب المالكي ٣٧ -
 بلدة تمطر الغبار ١ لطيع بن اياس ٣٧ - أعرابي يفضل سكنى الحزن على
 كرخ بغداد ٣٨ - عبدالله بن المعتز ، يمدح سامراء ويذم بغداد (نثر) ٣٨ -
 ومقطوعات له في ذمها ٣٩ - ودأهل الزوراء زور ، لمحمد بن أحمد بن شميعة
 البغدادي ٤٠ - ميدان بغداد ، لأحد الشعراء ٤٠ - شهب البطون ١ لأعرابي
 ٤١ - كفى حزناً ، لأحد الشعراء ٤١ - سقياً لبغداد ، شاعر يمدح بغداد ويذم
 أهلها ٤٢ - بغداد حين تمطر ، لأعرابي ٤٢ - بغداد دار بلية ، لأعرابي أقام
 بها ٤٢ - بغداد تصلح للموسر ٤٣ - لبّيك بغداد ، لطاهر بن الحسين ٤٣ -
 رجز لعمارة بن عقيل ٤٤ - وحيد المغنية ، لابن الرومي ٤٤ - مغاني بغداد
 ٤٧ - علي بن الجهم يصف قيان المفضل ٤٧ - عيون المها أو القصيدة
 الرصافية ، لعلي بن الجهم ٤٩ - ديمة روت بغداد ، لعلي بن الجهم ٥٢ - ريم
 ابن رامين ، لأحد الشعراء ٥٣ - بغداد في عينية ابن زريق البغدادي ٥٣ -
 أشهر قصور بغداد التاريخية : قصر الخلد ٥٥ - قصر القوارير ١ وقصر التاج
 ٥٦ - القصر الجعفري ٥٧ - قصر الثريا ٥٨ - دور بغداد التاريخية الشهيرة
 ٦٠ - دار الخلافة ٦١ ، أبواب دور الخلافة ٦١ - الرشيد وزبيدة
 ٦٠ - ٦٩ ، - مجالس الرشيد الحضارية ٧٠ - ٧٩ . مجالس الغناء ٨٠ - ٩٤ ،
 الغلاء في بغداد ٩٥ - (نكبة بغداد بعد وفاة الرشيد) ٩٦ - شعر الحسين
 الخليل في وصف النكبة ٩٨ - وصف الحسين بن الضحاك نساء قصر الخلافة

في فتنة الأمين والمأمون ١٠٠ — شاعر من « المحمدية » أصحاب الأمين يصف
 الفتنة ١٠١ يعقوب الخريمي يصف الحصار الذي ضربه طاهر الأعور بن
 الحسين على بغداد ١٠٢ — ذاك انتقام الله ، للشاعر الأعمى ١١٣ — مَنْ
 ذا أصابك يا بغداد بالعين || لعمر بن عبد الملك الورّاق ١١٦ — الشاعر الأعمى
 يصف العيارين ١١٧ = مقارعة أهل الصراة وغيرهم لجند طاهر الأعور وشعر
 الأعمى في ذلك ١١٨ — أمّ محمد الأمين تشكو من طاهر الأعور ١١٩ — أبو
 العلاء المعري في بغداد وأشعاره في مدحها ١٢٠ — ياقاصداً بغداد ، لابن
 التعاويذي ١٢٧ — (المستنصرية) : شعر أبي القاسم بن أبي الحديد الفقيه
 الشافعي فيها ١٣٠ — شعر الحسين بن مجد الدين الكوفي في حفل
 افتتاحها ١٣٢ — قصيدة عبد الحميد هبة الدين ١٣٣ — ايوان الطب مقابل
 المستنصرية || لأبي الفرج بن الجوزي ١٣٥ — خزانة كتب المستعصم بالله ١٣٥
 (نكبة بغداد وخرابها على يد هولاكو) ١٣٦ : قصيدة سعدي الشيرازي في
 وصف النكبة ١٣٨ — لسائل الدمع ، لتقي الدين بن أبي اليسر يتفجع على
 بغداد ١٤١ — أروم صبراً ، لشمس الدين الكوفي الواعظ ١٤٤ — وقال
 شمس الدين محمود بن أحمد الهاشمي الحنفي يذكر الوقعة ويرثي بغداد
 ١٤٥ — وقال أيضاً يذكر خراب بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله ١٤٧ —
 بغداد في « المقامات » ومقاطع من مقامة الكازروني (البغدادية) ١٥٠ .

(٤)

الباب الثاني

بغداد في شعر شعراء العصر العثماني

(١٥٧ — ٢١١)

حنين واشتياق ، لأبي الخير عبدالرحمن السويدي ١٥٧ — الأرض
 تشقى وتسعد ، لأحمد بك الشاوي ١٥٨ — شكوى وسياسة ، لعبد الغني
 الجميل مفتي بغداد ١٥٩ — قصيدة ثانية له ١٦١ — قصيدة ثالثة له ١٦٢ —

قصيدة رابعة له ١٦٣ - شوق وحنين لأبي الشتاء الألوسي المفسر الشهير ١٦٥ -
شوق وحنين ، لأحمد بك الشاوي ١٦٦ - وفي الحنين والشوق ، لعبد الحسين
ابن محيي الدين النجفي ١٦٨ - بيتان لعبدالرزاق الشواف وعبدالغفار
الأخرس ١٦٩ - أحبتنا بزوراء العراق ، للسيد راضي القزويني ١٧٠ - وله
مخمساً بيتين لعبدالغني الجميل ١٧٠ - ومن تخميسات الآخرس لقصيدة
عبدالغني الجميل ١٧٠ - سلام على بغداد ، لعبدالغفار الآخرس ١٧١ -
الشكوى والسياسة ، لعبدالحميد بك الشاوي ١٧٢ - وله في بغداد من
قصيدة ثانية ١٧٣ - جسر بغداد ، لعبدالقادر العبادي الملقب (شَثُون)
١٧٤ - وفي هذا الجسر ، لمعروف الرصافي ١٧٦ - هولاء والمستعصم ،
لمعروف الرصافي ١٧٧ - (كتاب أخبار بغداد) تأليف العلامة محمود شكري
الألوسي ، تقرّظ تلميذه الرصافي له ١٨٢ = (معاهد العلم الكبرى في بغداد) :
(١) - النظامية : أطلال العلم للأستاذ معروف الرصافي ١٨٤ -
(٢) - المستنصرية : قصيدة الأستاذ جميل صدقي الزهاوي ١٨٦ - وللسيد
عبدالقادر العبادي يبكي المستنصرية ١٩٢ = الشيخ صالح التميمي من
شعراء داوود باشا ، يتشوق الى بغداد ١٩٣ - (نكبة بغداد بالفرق)
أصدائها في شعر الشعراء العراقيين ١٩٥ - بيتان لعبدالباقي العمري ١٩٥ -
سوء المنقلب ، للأستاذ معروف الرصافي ١٩٧ - غرق بغداد في سنة ١٣٣٣ هـ -
١٩١٤ بيتان لعبد الرحمن البناء ٣٠٢ - الأستاذ الرصافي حين زار بيك أوغلي
في اسلامبول يذكر العراق ٢٠٢ - وله من قصيدة « بعد البَيْن » ٢٠٣ -
شكوى وسياسة للأستاذ جميل صدقي الزهاوي ٢٠٤ - وله من قصيدة ثانية
٢٠٥ - وله وقد أزمع الرحلة عن بغداد ٢٠٦ - ايقاظ الرقود ، للأستاذ
معروف الرصافي ٢٠٧ - السدّ في بغداد ، للأستاذ معروف الرصافي ٢٠٨ .

الباب الثالث

بغداد في الشعر المعاصر « بعد عصر الدولة العثمانية »

(٢١٥ - ٣٢٣)

نواح دجلة ، للأستاذ معروف الرصافي ٢١٥ - الشارع الكبير في بغداد •
 للأستاذ معروف الرصافي ٢١٧ - الفَيْضَان ، للشيخ محمد رضا الشبيبي
 ٢٢٠ - وقال فيه الجواهري ٢٢١ - طوفان سنة ١٩٥٤ م : قصيدة الأستاذ
 محمد بهجة الأثري ٢٢٥ - المعجزة الجديدة • للأستاذ خالد الشواف ٢٢٩ ،
 وقال في هذا الغرق وجمع التبرعات ٢٣٠ - الشوق والحنين ، للشيخ
 عبد المحسن الكاظمي ٢٣١ - الحنين الى بغداد ، للشيخ محمد رضا الشبيبي
 ٢٣٣ ، الهيام بين العراق والشام ، له ٢٣٤ - شكوى وسياسة ، للأستاذ
 معروف الرصافي ٢٣٤ - ابن لبغداد ، للأستاذ جميل صدقي الزهاوي ٢٣٦ -
 بغداد في العصر الذهبي للأديب سعد صالح ٢٣٧ - أحلام الحضر ، للشيخ
 علي الشرقي ٢٤٠ - بغداد ، للشاعر أحمد شوقي ٢٤١ ، بغداد ، للشاعر
 حافظ ابراهيم ٢٤٢ - بغداد ، للأستاذ علي الجارم ٢٤٢ - بغداد تاج الحقب
 الغوالي ، للأستاذ عبد الوهاب عزام ٢٤٩ - من جسيم الظلم في القاهرة الى
 سعي الوجد في بغداد ، للأستاذ زكي مبارك ٢٥٥ - يوم الجسر للأستاذة
 عاتكة الخزرجية ٢٥٧ - ولها في بغداد ٢٦٠ - ولها : بلد الهوى النشوان
 ٢٦٣ - ولها : اذا قيل بغداد ٢٦٧ • (ثورة تموز ١٩٥٨ وتأسيس الجمهورية) :
 أصدائها في شعر الشعراء : صباح الأمل المنشود أو نشيد ١٤ تموز ١٩٥٨
 للأستاذ محمد بهجة الأثري ٢٦٩ - بغداد ، للأستاذ محمود حسن اسماعيل
 ٢٧١ • ليالي بغداد ، للأستاذ خليل مردم ٢٧٢ - هدم الله ما بَنَوْا من
 حدود ، للأستاذ سليمان الأحمد « بدويّ الجيل » ٢٧٤ - تحية بغداد ،
 للأستاذ بشارة الخوري ٢٧٦ - يأمة العرب ، للأستاذ أحمد دمشقية ٢٧٩ -
 دجلة في الليل أو الليل في بغداد ، للأستاذ أنور العطار ٢٨٠ - وحدة العرب ،

للأستاذ حلیم دَمُوس ٢٨٥ - تحية حب لبغداد ۛ للأستاذ نزار قباني ٢٨٧ -
تحية الشعر ، للأستاذ حافظ جميل ٢٨٩ - في مهرجان الشعر ۛ للأستاذ خالد
الشواف ٢٩٢ - أعراس بغداد ، للأستاذ نعمان ماهر الكنعاني ٢٩٨ - الى
أهل المربد ۛ للأستاذ نوري حمودي القيسي ٣٠١ - بغداد ، للأستاذ سليم
الزركلي ٣٠٦ - الى بغداد ، للأستاذ أحمد رامي ٣٠٩ - ليلى ، للأستاذ
صالح جودت ٣١١ - بغداد ، للأستاذ محمد التهامي ٣١٢ - بغداد ۛ
للأستاذ أحمد اللغماني ٣١٧ - بغداد ، للأستاذ أحمد السقاف ٣٢١ ۛ

(اصلاح الأغلاط المطبعية)

الصفحة - السطر	الخطأ	الصواب
٣٦ - ١٢	نأخذ	نأخذ
٣٧ - ١٤	قول أحد القاضي	قول القاضي
٣٩ - ٠٥	حَلَلْتُ	حَلَلْتُ
٥٧ - ٠٥	مؤنس عمران	—
٧٤ - ٢٥	احتار	حار
٧٧ - ٢١	شَطَّانَه	شُطَّانَه
١٣٥ - ١٤	فَسَلَكْ	فَتَلَكْ
١٤٠ - ١٥	لَلْمُرَّةِ	لَلْمُرْوَةِ
١٤٣ - ١٨	الذار	لذار
١٤٤ - ٠٩	كُلُّنَا	كُلُّنَا
١٤٤ - ١٧	الإسلامُ	الإسلام
١٤٩ - ١٦	خَيَّمُوا	خَيَّمُوا
١٥٢ - ٧	آذر	آذُر
١٥٢ - ٧	والضعيف	وضعيف
١٥٢ - ١٢	الموكب	المواكب
١٥٢ - ١٣	مُحمِل	محمل
١٥٢ - ١٧	شهود	مشهر
١٧٠ - ١٩	تخميسه	تخميسة
١٧١ - ١٩	سَأَرَحَلْ	سَأَرَحَلْ
١٧٢ - ٠٨	عبد للحميد	عبد الحميد

الصواب	الخطأ	س - ص
غِرَّةٌ	عِزَّةٌ	١٧٧ - ١٢
وَضِيعَتْنِي	وَضِيعَتْنِي	١٩١ - ٢٠
هل	وهل	١٩٣ - ١٨
البيروتي	البيروني	١٩٤ - ٠٣
انتشى	نشى	١٩٤ - ١٠
الْحَمَاتُ	الْحَمَاتُ	١٩٨ - ٢١
المُعَلَّى	المُعَلَّى	٢٠٠ - ٠٣
عليه	عليه	٢٠٠ - ٠٨
كَتَّ مُقَرَّنًا	مُقَرَّنًا	٢٠٠ - ١٣
التَّبْنِ	التبر	٢٠٠ - ٢٤
حَفَرَهَا	حضرها	٢٠٠ - ٢٨
« العراق »	« الطرق »	٢٠٢ - ٢١
يَتَبَعْدُونَ	يَتَعَدُونَ	٢١٦ - ١٧
يَعْلَمُونَ	يعلمون	٢١٦ - ١٩
شارع	بشارع	٢١٨ - ٠٢
رَكَبَتْ	نَكَبَتْ	٢١٨ - ٠٦
عَبَدُوهَا	عَبَدُوهَا	٢١٩ - ١٣
فَأَوْنَةٌ	فَأَوْنَةٌ	٢٢٠ - ٢٢
السماعية	الشماعية	٢٢١ - ٢٦
شُطْرَانُ	شُطْرَانُ	٢٢٦ - ١٤
حَيَاتُهُمْ	حَيَاتُهُمْ	٢٢٨ - ١٩
تَبْيِضُ	تبيض	٢٣٤ - ١٩
الْبُرْدَةُ	البرودة	٢٤١ - ٠٨

الصواب	الخطأ	س - ص
والتَّؤْمِ	والتَّؤْمُ	٢٤١ - ١٨
عَدَمَ	عَدَمَ	٢٤٢ - ٠٢
(العَرَبِ)	(العَرَبِ)	٢٤٧ - ٠٣
يَكَادُ	يَكَادُ	٢٤٨ - ١٥
وَرُبَّ	وَرُبَّ	٢٥٠ - ٠٥
أَخِلَاءُ	إِخِلَاءُ	٢٥٦ - ١٠
يَسْتَمْسِي	يَسْتَمْسِي	٢٥٧ - ٠٥
تَبْغِي	تَبْغِي	٢٥٨ - ٠٤
الْمِثْلَهُمْ	الْمِثْلَهُمْ	٢٥٨ - ٠٦
تَبْقَيْنَ	تَبْقَيْنَ	٢٦٧ - ١٣
ظَمَانُ	ظَمَانُ	٢٦٩ - ١٠
التَّمَاحُ	التَّمَاحَةُ	٢٦٩ - ٢٣
١٩٥٣ م	٩١٥٣ م	٢٧٢ - ١٧
أَصْدَاءُ	أَصْدَاءُ	٢٧٥ - ١٠
لِمَفْرِقِكَ	لِمَفْرِقِكَ	٢٧٧ - ١٤
النَّفْسِ	النَّفْسِ	٢٨٠ - ٢١
الكَلِمَةُ	الكَلِمَةُ	٢٨٨ - ٠٥

كمية الطبع ٢٠٠٠ نسخة

تاريخ أتمام الطبع ١٩٨٧/٣/٣١

السعر

ثلاثة دنانير ونصف